

دكتور مشتمار أنجب

# الإيمان في الإسلام

المعتقدات والأديان القديمة

مكتبة الفكارف  
الرياض

دكتور عسّارة نجيب

# الإنسان في ظلِّ الأديان

## المعتقدات والأديان القديمة



الشفافية لكل هذه التساؤلات وساعدني هذا الإزدواج في نفسي على الوصول إلى شيء أن أسميه قبل أن أعرضه مفصلاً من أجل الشباب والشيوخ معا . لكنني أؤثر عرض منهجي الذي أوصلي إلى ذلك الشيء خلال تمهيد يسبق دراستي أملا في أن نلتقي في طريق واحد وعلى كلمة سواء تجمع الإنسانية على منطق الحق والله هو الحق وهو الهادي إلى صراط مستقيم .

المؤلف

# بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## تمهيد

### حاجة الإنسانية إلى دراسة الأديان

وكيفية هذه الدراسة

بدهى أن الأديان والمذاهب موضوع يهم الإنسانية كلها سواء من يعتقد بدين ومن لا يعتقد .

وحاجة الإنسانية إلى دراسة هذا الموضوع ترتبط بحاجة كل إنسان - خاصة المثقف - إلى الإطّئنان ، إلى سلامة تفكيره ، وسلوكه ، أو اعتقاده وتصرفاته . خصوصاً في هذا العصر بالذات ، ونحن نقرب من نهاية القرن العشرين ، وكل شيء يعلن أو يكاد يعلن ، أننا نعيش عصراً استطاع العلم فيه أن يقتحم المجاهل وأوكار الخوف ، التي فرضتها الطبيعة على الإنسانية أزماناً طويلة . فانتصر العلم عليها أيما انتصار ، وقرب المسافات بين القرى والمدن والامصار ، لتتقارب العلوم والافكار والاعمال ، وتشابه المشكلات الفكرية والمادية ، ويصبح العلم مدعوا إلى كل مائدة تدرس هذه المشكلات ، كأنه الملجأ والملاذ وحده ولا شيء سواه . وصار العالم المتمدين يستفتيه في كل صغيرة وكبيرة مدعياً - إن صدق وإن كذباً - أن العلم قادر على كل شيء ، مهما دق أو استعصى .

بل ذهب بعض هذا العالم إلى الظن بأن ما لا يخضع للعلم فيدخل في إطار تجاربه وأبحاثه أو يقع في دائرة ملاحظاته وتأملاته ، فهو عدم ولا يصبح



القول بوجوده . أو الإيمان به ، أو حتى افتراض وجوده .

وكان طبعياً أن تتبادر الأسئلة المرتبطة بالعقائد والاديان إلى الأذهان ، وأن يقال : ما هو موقف المؤمنين بالاديان ؟ وهل هم قادرون على إخضاع الأديان والمعتقدات لهذا المنهج العلمى ، وماهى الكيفية التى تدرس بها الأديان دراسة يعرف بها صحيحها من باطلها ، وكاذبها من صادقها ؟ وكان لابد أن نسلم :

أولاً : بأن أشد الأسئلة إلحاحاً على الفكر الإنسانى فى هذا العصر ما يتعلق بحاجة الإنسان إلى أن يطمئن إلى سلامة تفكيره وسلوكه واتجاهاته ومذهبه ومصيره .

ثانياً : بأن العلم المنتصر العملاق أصبح مطمح الآمال فى هذا الوقت بالذات كى يجيب الإنسان على كل التساؤلات التى تصدر عن العقل الإنسانى ، خصوصاً وقد يبح العلم فى التوصل إلى النتائج الحاسمة ، والقوانين العلمية المسلمة ، أو العامة فى كل ميادين الحياة المادية .

ثالثاً : بأن لابد أن يحدد العلماء المؤمنون بدين أو بأديان موقفهم من الأسئلة المرتبطة بالعقائد وخاصة هذا السؤال :

هل يمكن أن تخضع دراسة الأديان للمنهج العلمى ؟

موقف العلماء :

فطن الإنسان منذ عصور سحيقة فى القدم إلى خضوع الكواكب والنجوم فى حركتها العامة لقوانين ثابتة مطردة وسن كونية لا تتبدل ، هدته إلى ذلك مشاهداته اليومية وملاحظاته لآثار النظام الذى تسير عليه هذه الأجرام . وعلى هذه المشاهدات أسس علم من أقدم العلوم التى عرفها بنو الإنسان وهو علم الفلك .

ومع ارتفاع الفكر الإنسانى أخذ الاعتقاد بخضوع الظواهر الطبيعية لقوانين

ثابتة يتسع نطاقه شيئاً فشيئاً حتى شمل جميع نواحي الطبيعة والكيمياء والجغرافيا وعلم الحياة (البيولوجيا) . وعلم الحيوان وعلم النبات وعلم وظائف الأعضاء (الفزيولوجيا) وما إلى ذلك من البحوث التي لم تغادر ظاهرة من الظواهر الطبيعية ولا ناحية من نواحي النمو إلا كشفت عما يسيطر عليها من قوانين .

وفي أثناء ذلك ، بل من قبل ذلك ، فطن الانسان إلى قوانين الكم ، فانشئت علوم الرياضة .

وهكذا لم يمض على ذلك وقت طويل حتى تمكن العلماء من الوقوف على ( ما سموه ) القوانين التي تخضع لها الظواهر النفسية الفردية في بني الانسان كظواهر التخيل وتداعى المعانى والتذكر والانفعال . . إلخ على هذا الاساس أنشئ علم النفس (السيكولوجيا) .

أما الظواهر الاجتماعية — أى القواعد والانجذابات العامة التي يتخذها أفراد مجتمع ما أساساً لتنظيم شؤونهم الجارية وتنسيق العلاقات التي تربطهم بعضهم مع بعض والتي تربطهم بغيرهم (ومنها القواعد الخلقية والدينية) فقد ذهب إلى القول بخضوعها لقوانين ثابتة مطردة كالقوانين التي تخضع لها ظواهر الطبيعة والرياضة ، بعض العلماء كابن خلدون ، وكنت ، ودر كايم ، وغيرهم ممن عنوا بالكشف عن هذه القوانين<sup>(١)</sup> .

إلا أن الذى يلفت نظر الباحث هو اختلاف علماء النفس بعضهم مع بعض . وكذلك علماء الاجتماع ، وعدم اتفاقهم على قوانين عامة ، تقدم للانسانية إجابة شافية يمكن الاطمئنان إليها وتعميمها والتسليم بها ، كقوانين الطبيعيات ، والرياضيات ، الأمر الذى حدا ببعض العلماء إلى القول بعدم خضوع هذه الميادين

---

(١) راجع عبد الرحمن بن خلدون الدكتور على عبد الواحد وافي

ص ١٤٦ وما بعدها .

لقوانين ، ولا يصح بالتالى خضوعها للمنهج العلمى خاصة ما يتصل بالعقائد والاديان - كظواهر اجتماعية ، وظواهر نفسية عامة .

ومن ثم اتبع اندارسون للظواهر الاجتماعية — بما فيها ظاهرة التدين — قبل ابن خلدون بوجه عام ، وبعض من بعده ، منهجاً يختلف تماماً عن المنهج العلمى ، اعتقاداً بعدم خضوعها لقوانين

فاكتفوا بالطريقة الوصفية للظواهر ، وبيان ما كانت عليه فى الماضى وما هى عليه فى الحاضر ، كما فعل ابن حزم فى دراسته للملل والنحل ، وكما فعل الفقهاء فى دراساتهم للشرائع إلخ .

أودعوا إلى مبادئ تؤيدها الظواهر الاجتماعية وتقرها معتقدات الامة وذلك ببيان محاسنها وترغيب الناس فيها كابن مسكويه والغزالي والماوردى وغيرهم .

أو ارتأوا ما ينبغى أن تكون عليه هذه الظواهر كالفلاطون وأرسطو والفارابى<sup>(١)</sup> .

وبقى الوجه العلى : أهم هذه الوجوه وأحقها بالبحث .

وكانت محاولات ابن خلدون ومن سار على دربه بداية هذا الاتجاه ، لكن ما هو المقصود بالمنهج العلمى بالضبط ؟

### المنهج العلمى :

يذهب العالم التجريبى إلى معمله ومعه :

أولاً : عينات من : المواد والعناصر التى سيجرى عليها تجربته .

ثانياً : معارفه ومعارفاته عن هذه العناصر والمواد .

ثالثاً : افتراضه العلمى بشأن التجربة أو آماله التى يرغب فى وقوعها .

---

(١) د . على عبد الواحد المرجع السابق .

رابعاً : دقة الملاحظة : التي لا تتوفر إلا لعالم خبير يحيط بموضوع البحث والدراسة .

أما عينات المواد والعناصر في أماكن أي أحد أن يستحضرها ، ويبقى بعد ذلك معارف ومعلومات ضرورية ، لا تتوفر إلا لخاصة الناس ولا تصل إليهم إلا إذا سبقهم إليها علماء مجربون أعطوا نتائج تجاربهم لهم أو وضوها في إمكانهم ، أو على الأقل عرفت لهم ، وكانت صادقة تماماً ، وفي هذا الميدان لا يغنيهم عن قديم هذه التجارب ما حصلوه من حديثها ، بل لابد من جميع المعارف المتصلة بموضوع البحث من ألفها إلى يائها ، لتبدأ التجربة من علم وتنتهي الملاحظة الدقيقة إلى عطاء علمي مفيد .

ولذلك يجب أن تكون هذه المعارف والمعلومات السابقة صادقة في يحملها ، بعكس ما إذا جهل المجرب خصائص عناصر التجربة وموادها ، أو كانت معارفه بشأنها كاذبة ، أو لم يكن دقيقاً في ملاحظاته ، فالنتيجة في كل حال سواء وهي فشل التجربة نهائياً ، أو إعطاؤها نتيجة مغالطة للافتراض العلمي المسبق بشأن التجربة ، أو كذب الدعوى وبطلان التقنيات .

فإذا يمكن أن تتوفر من ذلك لعالم الاجتماع أو الباحث الديني ؟

اعتمد المؤمنون بضرورة المنهج العلمي ، كطريق يوصل إلى التعرف على القوانين التي تخضع لها الظواهر الاجتماعية ، بما فيها ظاهرة الدين وفي مقدمتهم ابن خلدون . اعتمد هؤلاء في بحوثهم على ملاحظة ظواهر الاجتماع في عينات من الشعوب والقبائل والأقوام التي تيسر لهم الاتصال بها ، والحياة معارف وقت ما ، إلى جانب دراسة هذه الظواهر في تاريخ هذه الشعوب نفسها في العصور التي تسبق وقت الملاحظة ، وكذلك تتبع أشباه ونظائر هذه الظواهر في تاريخ شعوب أخرى لم تيسر للدارس الاحتكاك بها ، ولا التعرف على أهلها ، ليوازن بين الظواهر هنا وهناك ، وليتأمل في مختلف شئونها ، للوصول إلى معرفة الطباع ، والصفات ، والأعراض ، والعلاقات ، وما يمكن أن يؤديه ذلك

كله من وظائف فى حياة الشعب ترقيا أو تفككا وانحلالا أو تماسكا وعصبية،  
ليخرج من ذلك بالقوانين التى تخضع لها هذه الظواهر فى جميع أحوالها

فهم بهذا يحاولون أن يستعرضوا مواد البحث وعناصره الأولية ، متمثلة  
فى تجاربهم وملاحظاتهم ، بالإضافة إلى المعارف الضرورية اللازمة عن هذه  
المواد والعناصر ، سواء من دراسة التاريخ أو من تتبع أشباه ونظائر مواد  
البحث ليصلوا إلى الكشف عما يحكم هذه الظواهر الاجتماعية من قوانين

ولا ريب أن الدراسة على هذا النحو هى أقرب الدراسات إلى المنهج  
العلمى المستقيم ، وعليه فقد اختار علماء الاجتماع عينات تجاربهم شأنهم شأن عالم  
المادة ووضعوا هذه العينات تحت الملاحظة الدقيقة ، فمنهم من اختار نماذج  
بشرية تتمثل فى الشعوب والقبائل التى تدرس لهم العيش فيها والاطلاع على  
أخلاقها وتصرفاتها وعقائدها وسلوكها وانفعالاتها وعواطفها إلى آخره

وكانوا من قبل قد تتبعوا تاريخ هذه الشعوب والقبائل فى سابق العصور .  
كما تتبعوا أشباهها ومثيلاتها بالدراسة فى تاريخها القديم والمعاصر ، ووازنوا  
بين الظواهر الاجتماعية المتماثلة والمتباينة جميعها ، ملاحظين ذلك كله فى مختلف  
شئون هذه الظواهر ، ليقفوا على عناصرها ، وصفاتها ، وطبائعها ، الذاتية  
والعرضية ، وما تؤديه من وظائف فى حياة هذه الشعوب والقبائل ، بل ذهبت  
بهم دقة الملاحظة ، إلى حد ، إدراك العلاقات التى تربط الظواهر ببعضها ،  
وتجعلها تتأثر وتؤثر فى بعضها البعض ، ليس فقط ، بل إلى حد إدراك  
العلاقات التى تربط الظواهر الاجتماعية بما عداها من الظواهر الطبيعية  
والبيئية ، وعوامل تطورها واختلافها باختلاف الأمم والشعوب ،  
وباختلاف الأزمان والعصور ، ملاحظين ذلك كله ، محاولين أن يكشفوا  
القوانين التى تحكم الظواهر الاجتماعية . بما فيها ظواهر النفس والدين .



ومنهم من اختار عينات من الحيوانات التي ادعى أنها أقرب شئها بالإنسان ، كالقردة والنسائس ، واستخدموا معها كل الظروف التي يمكن أن تتشابه مع ظروف الإنسان ، لينتهوا هم أيضا إلى قوانين يرونها كافية لترقية حياة الإنسان أو انحطاطها .

ومع ذلك كله فكل العينات وحقول التجارب والملاحظات الدقيقة ، والعلمية التي أضفيت على هذه المحاولات ، خرجت بالتقديرات الخاطئة ، بل أوجدت خلافات واسعة الشقة بين علماء هذا الميدان ، وكل منهم يدعى أنه الأكثر صدقا ، وبقي الانسان حاراً بل أصبح أكثر حيرة من ذي قبل .

فأى الاتجاهات يختار ، وأى المذاهب يذهب ؟

المنهج العلمي وهذه المشكلة :

الحق أننا إذا أردنا أن نصل إلى حل ، فلا بد لنا من الاعتقاد بخضوع الظواهر الاجتماعية بما فيها الظواهر الخلقية والدينية لقوانين عامة ، وهو ما يعنى إمكانية التوصل الى هذه القوانين عن طريق البحث العلمي ، واتباع المنهج العلمي ، ذلك لان رفض المنهج العلمي في هذا الميدان ، خاصة مايتصل بدراسة الاديان ، يعنى اعلان العجز التام عن مقاومة تيار العصر وهو اتباع العلمية في كل شئ ، في الجدل . وفي الحوار ، وفي الإجابة الشافية للنفس القلقة في هذا العصر

فإذا لم يجد الشاب المثقف ثقافة علمية إيجابية علمية ، على كل ما يعرض على عقله من تساؤلات ، خاصة ما يرتبط بالعقيدة ، والمذهب ، والدين ، والفكر والسلوك والأخلاق ، ذهب ، نفسه شتانا بين القلق والاضطراب والتعقد ، أو اختيار الفوضوية والسلبية والانحراف ، وهو ما قد بدأ يحدث فعلا في العالم كله تقريبا ، فلم تعد الدراسات الوصفية مجدية ولم تعد الدعوة الى ما يجب أن يكون

حتى لو كان مبادئ مقررّة ، وقواعد تؤيدها الظواهر الاجتماعية - بقادرة على مراجعة تيار العلمية في العصر الحديث .

وإذا كانت المشكلة حتى الآن هي عجز المنهج العلمي - أو ما سمي منهجاً علمياً - عن الوصول إلى قوانين حاسمة ، فإن هذا لا يعنى أبداً فشل المنهج العلمي تماماً أو عجزه الابدئى ، بل لابد من البحث عن سبب لهذا العجز خارج عن المنهج العلمى المستقيم .

فهل يكون السبب هو المنهج الذى أتبع ؟ أم يكون الوسائل ؟ أم أى شئ ؟  
حقيقة المشكلة فقدان العالم الحقيقى المحيط إحاطة كاملة بموضوع البحث . إلخ

فى كل ماجرى من دراسات قام بها المؤمنون بخضوع الظواهر الاجتماعية لقوانين ، لإمكانية التوصل إلى هذه القوانين عن طريق المنهج العلمى ، كان أساس منهجهم فى بحوثهم إبتداء من ابن خلدون إلى الوقت الحاضر يحتاج مرحلتين : تتمثل أولاً فى جمع المواد الأولية لموضوع البحث عن طريق المشاهدات والملاحظات الحسية ومن بطون التاريخ ، وتتمثل الأخرى فى عمليات عقلية يجريها على هذه المواد الأولية ، ويصل بفضلها إلى الغرض الذى قصد إليه من هذا العلم ، وهو التوصل إلى القوانين التى تحكم الظواهر الاجتماعية .

وهذا أساس المنهج الذى لا يزال يتبع إلى الوقت الحاضر .

( وقد ذهب ابن خلدون مثلاً - وهو يعرض ما انتهت بحوثه إلى طريقة تشبه فى وجوه كثيرة الطريقة التى يسير عليها المحدثون من علماء الهندسة فى عرض نظرياتهم )<sup>(١)</sup> .

---

(١) ابن خلدون : د. على عبد الواحد وافي .

كما عمد أوجست كنت في القرن التاسع عشر ، أى بعد عصر ابن خلدون بخمسة قرون ، إلى نفس المنهج ، ونهج في علاج موضوعاته نهجا علميا ، أو ادعى ذلك ، لكن الذى أخذ على العالمين ومن جاء بعدهما بوجه عام الانحراف عن هذا المنهج العلمى للأسباب التالية :

١ - خضوعهم لأفكارهم وأهوائهم الخاصة ومبالغتهم في القول بآثار أشياء دون أشياء

٢ - عجزهم عن الإحاطة أو الشمول النظري لموضوع البحث وما يتصل به من ملايين الأشياء والأدوات والعوامل التاريخية المتغيرة، وشرط صحة المنهج العلمى إحاطة العالم بموضوع البحث إحاطة شاملة كاملة خاصة في ميادين الاجتماع حتى تجيء النتيجة صادقة لا تحتمل الشك ومن هنا كانت القوانين والقواعد التى انتموا إليها لا تكاد تصدق الا على الامم التى احتكوا بها ، ولا تتفق مع مراحل تاريخ هذه الامم ذاتها وانما تتفق مع مرحلة خاصة ، ولا يمكن أن تسمى هذه قوانين علمية .

٣ - العجز عن استقراء الظواهر في كل الامم والشعوب، وإذا تم هذا جدلا فإن استقراء التاريخ يحتمل الصدق والكذب ، الا من جانب من يملك علما محيطا بهذا التاريخ من بدايته الى نهايته ، ودرامه الاديان لمعرفة أصلها وتطورها تحتاج أيضا الى هذا العالم الذى يتمكن من الإحاطة بتاريخ الإنسان وبيئاته كلها وما يتصل بها من الأشياء والأدوات .

فالمشكلة اذن فقدان العالم من البشر يحيط بأسرار التاريخ الانسانى، لا يحكمه هواه ولا يخضع لفكر غيره ، قادر على استقراء المجتمعات قديمها وحديثها ، استقراء كاملا متصلا بدراسة عن النفس الإنسانية ، وملكتها ، وقدراتها اليقن ، القوانين العلمية الحاسمة والعامة والصادقة من كل وجه كأساس لمعرفة الصحيح من الخاطئ ، والحقيقة من الادعاء فى كل ما يتصل بالظواهر الاجتماعية وإذا

كان الدين كظاهرة موضوع بحثنا ، فانه لا يصح أن تقطع صلته بكافة الظواهر الاجتماعية الأخرى . لارتباط الظواهر وتداخلها وتأثيرها وتأثرها بعضها في بعض وبيعض فأين نجد هذا العالم المحيط الخير الذي يملك هذه القدرة ؟ .

### العالم موجود والقرآن يدل عليه :

القرآن كتاب محسوس ، مشاهد من وجهة النظر المادية البحتة ، كل ماورد فيه يدل على أن صاحبه علم محيط قادر ، ولا يحتاج هذا الكتاب من العلماء إلا إلى بعض الجهود التي تبذل في النقد والتحليل ، لمعرفة صدق هذا الكتاب ودلالته على صاحبه ، وهو الكتاب الذي يمكن أن يجتمع العلماء في كل فن ومن كل مكان في العالم ، ليدرس قوانينه ويمتحنوا صدقها من خلال منهج علمي مستقيم . والمؤتمرات الدولية التي تنكون لدراسة مشكلة اجتماعية ، كالمراهقة ، أو متطلبات الطفولة العلمية ، مثلاً ، يمكن أن يتكون مثلها للنظر في الحلول التي يقدمها القرآن من خلال نظرة علمية تتمتع بالادراك العلمي وفهم المنهج العلمي المستقيم ، وعلى رأس انشكالات التي تمنع من تحقيق مثل هذه الفكرة ، البعد عن المنهج العلمي الحقيقي في دراسة هذه الموضوعات ، والدليل الأول الظاهر لكل ذي عين هو عجز العلماء عن إدراك شمولية النظرة القرآنية لكل الظواهر الاجتماعية وتقنينه لكل ظاهرة متصلة بالأخرى لإيماننا بالتأثر والتأثير اللذان لم ولن يتوقفا بين الظواهر بعضها وبعض . كظاهرة التخلف الاقتصادي تتأثر بالنظام السياسي وظواهر الاجتماع الأخرى مثل ظاهرة التعلم والتوجيه والثقافة والتربية والقضاء ، والمعاملة ... إلخ .

### حاجة القرآن إلى من مقدمة :

( العجز عن النظرة الشمولية ) مهيئة غلبت على كثير من العلماء حتى لم يعد يوجد بين علماء المسلمين انفسهم من يرجع علاجه لمشكلة من المشاكل

إلى أصلها أو قانونها العام . إلا قليل ، بل أصبح الخلط ظاهر بين أعراض الظواهر وذاتياتها ، بين القواعد والاستثناءات بين العموميات والخصوصيات .

فالذى يعالج ظاهرة الطلاق مثلاً يفصلها عن ظاهرة الفقر والحاجة وعن ظاهرة الثقافة السائدة والرائجة ، وعن ظاهرة القيادة والمثل الأعلى للناس .. إلخ فيجىء علاجه لها داء لا دواء

وقد استطاع ابن خلدون باتصاله بالقرآن ومحاولته تقنين الظواهر الاجتماعية أن يكون أول عالم في الدنيا يصنع قواعد تأسيس علم جديد هو علم الاجتماع ، ولم يستطع أحد أن يجاريه منذ القرن الرابع عشر حتى نهاية القرن التاسع عشر ، وإن أدعى الأوربيون غير ذلك . ولعل مرجع هذا النجاح استناده إلى منهج القرآن في التقعيد والتقنين ، إلا أن فشله في الوصول إلى قوانين حاسمة كنتائج المعمل يرجع إلى أنه لم يصل لا هو ولا غيره من قبله ومن بعده إلى الاحاطة الواجبة بموضوع البحث ، فالمنهج موجود والعالم المحيط من البشر مفقود ، وبالتالي كان القرآن وحده وسيدقى الكتاب الوحيد السابق لابن خلدون وغيره والباقي أبد الدهر الذى وضع القوانين والقواعد العامة والحاسمة للظواهر الاجتماعية والتحضر الانسانى . فيكون لدى المسلمين كتاب له منهجه العلمى المسلم به لأنه من لدن العالم المحيط بالخير بكل شئون الاجتماع الانسانى .

وحتى يسلم غير المسلمين بهذه القوانين والقواعد كتسليمهم لقوانين وقواعد المعمل التجريبي تبقى الحاجة الماسة للعالم الفاهم لهذه القوانين والقادر على تقديمها للانسانية بالأصلوب العلمى والمنطق العلمى منطق العصر .

فكيف نتقدم فى هذا الميدان :

إذا كان التقدم العلمى التجريبي رهن بمدى قدرة العلماء على إجراء التجارب ، وما يحصلونه من نتائج هذه التجارب فإن المحدثين من العلماء لا يستغنون عما



جربه السابقون ولا عما حصلوه من هذه التجارب بل لا بد للعالم الحديث أن يستند إلى كل ماعرفه الاقدمون متصلاً بميدان بحثه تماماً كما لا يستغنى البالغ عن ألف باء اللغة التي تعلمها في طفولته حتى لو صار أرقى علماء عصره ، وإنما يحىء الرقى على سلم التجارب ابتداء من الطفولة الانسانية حتى قمة مجدها ، وتبقى الحاجة إلى درجات السلم كلها أساساً لهذا الرقى ودليلاً عليه .

أما إذا جهل المحرب المحدث أو العالم المحدث ألف باء التجارب أو العلوم فلا أمل البتة في وصوله لشيء أرقى عما هو عليه .

ومن هنا يكون الفرق واضحاً بين الامم المتقدمة والامم الاقل تقدماً أو المتأخرة ، ويقاس هذا الفرق بمدى ملكية كل من هذه الامم للتجارب ونتائجها التي يجريها العلماء جيلاً بعد جيل ، ومدى الاستفادة من هذه النتائج وكلما كثرت ملكية الامة لهذه التجارب واستفادت منها زاد نصيبها في الترقى . وكذا قلت ملكيتها لهذه التجارب أو لم تستفد منها قل نصيبها في الترقى وزاد انحطاطها .

### التجارب الاجتماعية وكيفية الاستفادة منها :

وإذا صح اعتماد المنهج العلمى التجريبى كأساس للتقدم العلمى المادى ، فإن التجارب الاجتماعية - فى اعتقادى - تساوى تجارب العمل فى كل شيء ، ومادنيا الإنسان إلا العمل المتكامل بكل وسائله ، وعناصر التجربة هم بنو البشر فى تجمعاتهم المختلفة شكلاً ، ولونا ، وبيئة ، وفكراً وسلوكاً ، فلا تحتاج هذه الدراسة إلا إلى العالم الذى يرصد فسر هذه التجمعات وسلوكاتها على اختلاف أشكالها وألوانها وبيئاتها وأفكارها وسلوكها فى كل العصور . السابقة لينهى إلينا نتيجة هذه التجارب الاجتماعية وعائدها الثقافى فسرنا وسلوكا وعائدها الحضارى تقدماً وتراجعاً ، وعائدها النفسى على الفرد والمجتمع سعادة وشقاء ، عندئذ يكون الفرق بين مجتمع يتقدم ومجتمع يتأخر فى الميدان الاجتماعى هو الفرق بين من يستفيد من هذه التجارب

وعائدها أو نتائجها وبين من لا يستفيد . فالذى يستفيد من تجارب الأجيال والأمم التي تتبعها القرآن ، ورصد نتائجها ، وقن القوانين الاجتماعية على ضوءها . الذى يستفيد من ذلك يتقدم ويرقى ، والذى يهمل مثل ذلك يتخلف ويتراجع من وجهة نظر العلم التجريبي ، والواقع يؤكد ذلك كل يوم . وإذا كانت الإنسانية قد سلمت بحق التجربة العملية ونتائجها في صباغة وتطوير جوانب الحياة المادية ، ولم تسلم حتى الآن بحق التجربة الاجتماعية ونتائجها برغم خطورتها في صنائه وتطوير جوانب الحياة الاجتماعية . فما هو الحل لهذه المشكلة .

الحل :

لا ريب أن الحل يتمثل دائماً في قدوة ومثل يستفيد من التجارب الاجتماعية الإنسانية السابقة ويقدم بنفسه مثلاً حياً لفائدة التجارب وعائدها الحضارية فكراً وسلوكاً ، شكلاً ومعنى ، في كل جوانب الحياة . وقد ذل التاريخ والواقع على أن الأمم والأفراد كل منهم ينظر إلى الأرقى والأعظم فيأخذ عنه الحق والباطل معاً ولا ينظر إلى الأقل شأنًا ولا يأخذ عنه وإن كان المأخوذ حقاً مطلقاً فالتقليد الأعمى لا يتأق إلا من الأدنى يقلد الأرقى ، والأسفل يقلد الأعلى منه في اعتقاد المقلد ، ومن يمكن أن يقدم هذا الحل للإنسانية غير المجتمع المسلم الذى أعلن أن دينه الاسلام ودستوره القرآن ؟ ودينه ودستوره معاً: قد حملنا لرصيد التجارب الإنسانية منذ آدم حتى خاتم الأنبياء وقدمنا لنا نتائج هذه التجارب وما ترتب عليها من قوانين تفيد الفكر والسلوك . وعليه يتبين :

١ — ضرورة المنهج العلمى لدراسة الظواهر الاجتماعية وخاصة الأديان والمذاهب وما يتصل بهما .

٢ — ضرورة تحكيم نظرة الشمول أو الشمول النظري للقضايا الاجتماعية التى تطرح ، وضرورة ذلك تساوى ضرورة المنهج العلمى لارتباط صحة

المنهج العلمى فى هذا الميدان بالشمول النظرى لكل جوانب الموضوع وما يتصل به :

٣ - ضرورة وجود العالم القادر على الإحاطة بكل جوانب الاجتماع الإنسانى واختلاف أشكاله وتطوراته وبيئاته وتاريخه وعوامل ترقيه أو انحلاله للوصول إلى القرانين الحاسمة التى لا تحتمل التبديل أو التغير أو الخلل . أو التشكيك فى جدواها وصلاحياتها ، وهذا العالم هو الله وكتابه ناطق بهذه الحقيقة متضمن كل شىء بشأنها .

٤ - رصد التجارب الاجتماعية السابقة للإنسانية وعائدها الثقافية والنفسية وتقديمها للإنسانية بصدق دون تدخل الأهواء والأغراض . وهذا أمر أكدته القرآن وحرص عليه لأنه من لدن العالم المحيط الخبير بقضايا الاجتماع والنفس منذ آدم حتى قيام الساعة .

٥ - الاستفادة من هذه التجارب ومن عائدها كنتائج علمية ، وكقوانين عامة لا تتخلف ، فإذا فعلت الأمة الفلانية مثل ما فعل بنو إسرائيل مثلاً من إيمانهم ببعض الكتاب ( الوحى ) وكفرهم ببعضه ، استحققت الخزى فى الدنيا كنتيجة محتمة تماماً كما حدث لبنى إسرائيل .

٦ - أهمية وجود العلماء القادرين على فهم القرآن ونظراته الشاملة والموضوعية والقادرين أيضاً على تقديم قواعده وقوانينه من خلال المنهج العلمى والنظرة الموضوعية كدليل على وجود العالم الاكبر الذى أنتج النتائج من تجارب الاجيال وهو الله .

٧ - أهمية المثل أو القدوة للتدليل على صدق العائد العلمى لنظرية القرآن الرائدة ، وهو التقدم والفلاح فى جميع مجالات الحياة الفردية والاجتماعية ، عند التطبيق الصحيح ، فظالمنا فى المسلمين أذبالاغير

المسلمين كان هذا دليلاً على بعدهم عن تطبيق قواعد وقوانين قرآنهم .

### دور الباحثين في الأديان والمذاهب :

لقد آن الأوان كي يعيد المفكرون والفلاسفة ، والباحثون في الأديان والمذاهب والدارسون وطلاب العلم . آن الأوان ليعيد الجميع النظر في منهج دراستهم وبحوثهم . بل آن الأوان لتقنين الحوار وإعادة النظر على مستوى العالم من خلال منهج علمي ودراسة موضوعية وإعادة النظر وتقنين الحوار وإعادة النظر من خلال منهج علمي ودراسة موضوعية يتطلب إستحضار الباحثين والدارسين والمجاورين تجارب الماضين وتنازع هذه التجارب إلى ميدان البحث والدراسات الدينية ، أو الاجتماعية بوجه عام ولا يأتي هذا على نحو صحيح إلا باعتماد القرآن دليلاً لهم .

أولاً : كأساس لصحة المنهج العلمي :

ثانياً : لصحة قياس هذا الدين أو المذهب .

فكذلك يجب أن يكون شأن العالم الديني أو الباحث المذهبي ، لانه إذا جهل شيئاً من عناصر بحثه ، لا يمكنه أن يقيس مدى صحة دين أو مذهب ولا مدى خطئه .

وكذلك يجب أن يكون العالم الديني أو الباحث المذهبي أن يكون عارفاً بتجارب الآخرين وأثر هذا المذهب أو الدين على أفكار وحياة المؤمنين به مع ضرورة التفرة بين دين يطبق حرفياً ودين يطبق جزئياً . ودين يفسر على تطبيقات تتصل به أو لا تتصل ، وكذلك المذهب ... إلخ .

والا لا يمكن أن يقيس مدى الصحة أو الخطأ ، وبالتالي لا يصح أن نطمئن إلى تعليقات أحد هذا الشأن طالما كان جاهلاً بشيء من ذلك .

وبمعنى عام يجب أن يتمتع الباحث الدينى أو المذهبى بشمولية النظرية ودقة الملاحظة .

وكذلك يجب أن يتجرد تماما من الهوى أو التحيز والتغصب لاي مذهب أو دين حتى لا يغلبه هواه وتسيطر عليه عواطفه .

الإنسان كعنصر أولى من عناصر البحث :

قام الإجماع بين كل الأديان والمذاهب على أن المطلب الأساسى للعلم وللدين وللمذهب بل ولكل الأنشطة الإنسانية الاجتماعيه هو « إسماع الانسان » .

فلتكن هذه بداية اتفاق لكل بحث أو حوار : ننظر من خلالها إلى تقييم كل نشاط دينى أو مذهبى . هل سعد الإنسان فى ظلال هذا الدين أو المذهب ؟ وهل يمكن أن يسعد الإنسان فى ظلال هذا الدين أو هذا المذهب الآن وبعد الآن ، ولا ريب ، أن أهمية الاستفادة من التجارب الاجتماعية سوف تكون حجر الزاوية فى هذه الدراسة : فهى التى توصلنا إلى أكتشاف مجتمع سعيد ، سعيد فرده ، سعيدة مجتمعاته الصغيرة ، سعيدكاه ، وباكتشاف القوانين والقواعد التى أسعدت هذا الانسان ، نستطيع أن نكتشف القوانين التى تسعد انسان الحاضر والمستقبل ، خاصة إذا كان الواقع أو التجربة قدمت هذا النموذج فى ظل هذا القانون ووجد من يلاحظ تجارب الأجيال ويرصدها بدقة وخبرة وإحكام وعلم ثم يسجلها بدقة العلماء وخبرة الحكماء وليقدمها خالصة صادقة منزهة عن كل هوى أو غرض ( فهل يذنبك مثل خير ) .

الانسان فى ظل الأديان والمذاهب إذن :

الانسان فى ظل الأديان والمذاهب سيكون موضع الدراسة والبحث إذن ، ولا ريب إذا إكتملت هذه الدراسة من خلال المنهج العلمى ، ونوقشت بطريقة تحليلية موضوعية ، استطاعت أن تعطينا القوانين



والقواعد العامة لنشأة الأديان وتطورها ، ومدى صحتها أو خطئها بلا تعصب  
وبلا تزييف وهذا مبتغانا الذى نرجو تحقيقه وتقديمه لانسان عصر العلم  
عسى أن يجد فيه طمأنينة قلبه ، وراحة فؤاده . فيعبد النظر فى سلوكه  
وتصرفاته ليذهباً للانسانية التقدم الاجتماعى وبتواكب العلم والدين على  
طريق تحقيق خير الإنسان وسعادته .

والله الموفق

# القَصِيدَةُ الْأَوَّلُ

## الانسان والدين

منى نشأ الدين ، وما مصدره ، وما الدافع لوجوده فى حياة البشر  
قصة الإنسان الأول والوحى ، أصل الإنسان - حقيقة الإنسان البدائى . .

ع. متى نشأ الدين وآراء العلماء في هذا الموضوع :

الدين كقوة روحية تصل الإنسان بقوة غيبية : الدين بهذا المعنى ارتبطت نشأته بوجود الإنسان . أول إنسان على ظهر الأرض ، فذهبت الكتب الدينية المقدسة اليهودية والمسيحية والإسلامية إلى أن آدم أبا البشرية سمع الوحي من ربه الذي أمره ألا يأكل من شجرة معينة ، فأكل منها مخالفاً هذا الأمر ، فأخرج من الجنة إلى الأرض ليبدأ حياة البشرية على ظهرها وصلته بربه وخالقه لم تنقطع .

وحتى الذين وضعوا مسائل العقائد والأديان أمام الاختبارات العلمية أو تناولوها بمنطق العقل المحض واتفقوا على أن العقائد من صنع الإنسان نفسه ، ولا صلة لها بوحي أو أية قوة وراء الطبيعة ذهب فريق كبير منهم إلى أن نشأة الدين لم تتأخر كثيراً بعد وجود الانسان ، الذى أندفع كما - يقولون - إلى خلق هذه القوة كي يطمئن إليها من خوفه مما حوله من مجاهل الأشياء والطبيعة .

وقليل من العلماء من قال بتأخر نشأة الدين عن وجود الانسان على الأرض « كهنرى برجسون، الذى أرجع نشأة الدين إلى الفائدة الاجتماعية أو الغريزة الاجتماعية أو الحدس الاجتماعى على القول بان الإنسان مدنى بطبعه . وكدوركاييم، الذى ذهب إلى أن المجتمع الانسانى هو أول إله عبده بنو الإنسان وأن الطواطم تمثل أقدم ديانة إنسانية لا ارتباطها بأبسط تكوين اجتماعى - فى نظره . - فتأخرت نشأة الأديان قليلا حتى تكون مجتمع إنسانى شعر بحاجة إلى نظام ، وضرورة ارتباط هذا النظام بقوة عليا تلزم أفراد المجتمع بمصالح الجماعة فى السر والعلن ومما قاله برجسون : « قد نجد فى الماضى أو الحاضر مجتمعات بشرية لاتعرف العلم أو الفن أو الفلسفة ولكن ليس ثمة مجتمع بلا دين <sup>(١)</sup> » .

---

(١) الدين : محمد عبد الله دراز ص ٨٥ .

فالتخلاف في نشأة الدين مع الإنسان الأول - الفرد - أو المجتمع -  
ضاقت دائرته كثير أجدا في هذا العصر ، حتى كاد أن يصبح شكليا ، ولهذا  
نرجى مناقشته إلى مكان آخر

#### مصدر الدين وبواعثه :

تختلف الآراء كثيرا وتشعب في هذا الموضوع ويمكننا تحديد هذه  
الخلافاً في اتجاهين أحدهما : الذى يذهب إلى أن الدين مصدره الوحي  
الإلهي من القوة العليا الخالقة لهذا الكون ، أما باعث الإنسان على التدين  
حينئذ فدافع فطري يحرك الإحساس بالصلة بين وجود قوة عليا تستحق  
العبادة . وبينه كمخلوق محتاج إلى الخالق وإلى الارتباط به وأفراده  
بالعبودية .

وثانيهما : الاتجاه الذى يذهب إلى أن الدين مصدره فكر الإنسان .  
والباعث عليه نفس الإنسان وفكره وحاجته وظروفه الطبيعية وبيئته . إلخ  
أما الاتجاه الأول : وهو القائل بأن الدين أصله الوحي الإلهي من القوة  
العليا الخالقة لهذا الكون والمسيطرة عليه ومبعث تدين الانسان فطرة دافعة  
للإنسان إلى التطلع نحو قوة عليا وشعور الإنسان بضرورة هذه الصلة بينه  
وبين هذه القوة فيعتقد المؤمنين بالأديان السماوية الثلاثة اليهودية والمسيحية  
والاسلام بالاضافة إلى الديانة الزرادشتية التي يعتقد أصحابها أنها منزلت من  
السماء على زرادشت على شاطئ نهر ديتي في مقاطعة أذربيجان ببلاد فارس .  
وهي ديانة قديمة أوشك أتباعها في إيران على الانقراض ولم يبق من أتباعها  
إلا نفر قليل هاجر بعضهم إلى بلاد الهند ويرجع تاريخها إلى القرن السابع  
قبل الميلاد ، وكذلك الديانة البرهمية التي يرجع تاريخها إلى عصر أبعد ، يراه  
بعض المؤرخين نحو القرن الخامس قبل الميلاد ، ويعتقدونها الآن معظم سكان  
الهند وبعض سكان باكستان .

ولا دليل لأصحاب البيانات الأربع السابقة للإسلام على أنها من وحي

قوة عليا وراء المخلوقات إلا ما يجدونه في أسفارهم وما ورثوه عن الآباء والأجداد يشير إلى هذه القوة ويدعو الناس إلى عبادة صاحبها .

أما أدلة أصحاب الديانة الإسلامية . فكثير منها على سبيل المثال :

١ - القرآن ذاته المتحدى به الانس والجن أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، وبقاء هذا التحدى قديماً وحديثاً ومستقبلاً .

٢ - ما يقدمه القرآن من قوانين اجتماعية وقواعد نفسية ، وأسس حضارية لا يملك الوصول إليها إلا عالم محيط خبير بأسرار الكون وخفايا النفس وتاريخ الماضى والحاضر والمستقبل .

٣ - صدق صاحب الرسالة محمد بن عبد الله قبل البعثة فلم يجرب عليه كذب قط .

٤ - عدم انقطاع الصلة بين فترة تلقى القرآن وبين حفظه في الصدور وكتابه وتواتره من غير تحريف أو تبديل بعكس كتب الديانات الاخرى .

وأما الاتجاه الثانى : وهو الاتجاه الذى يذهب إلى أن الدين مصدره فكر الإنسان ومبعثه من نفس الإنسان وحاجته وظروفه وبيئته ، فيعتنقه كثير من الذين يؤمنون بضرورة خضوع كل شىء للمنهج العلمى مدعين أن منهجهم العلمى - فى نظرهم - لم يوصلهم إلى شىء وراء الطبيعة ، ومالم يصل العلم إلى إثباته يعد - فى نظرهم أيضا - عدما وباطلا ولذلك راحوا يتلسون علة ظهور الأديان فى كل المجتمعات الانسانية تقريبا فى شىء غير الوحي وما وراء الطبيعة ، ولم يكن أمامهم إلا الطبيعة نفسها بما فيها الانسان ، ومن هنا تفرعت الاراء وتعددت وكان البحث عن أصل الانسان مقدمة لهذه الاراء ولهذا سنضطر إلى التعرض لأصل الانسان استطرادا لنوفى ببحثنا حقه ثم نعود إلى الموضوع الأصيل مرة أخرى .



## أصل الإنسان :

من وجهة نظر القائلين ، بأن الدين مصدره الفكر الإنساني .. يعد الإنسان في نظرهم تطوراً طبيعياً لمادة أو خلية وجدت بالصدفة في مكان رطب يساعد على التعفن وتفاعل المادة أو الخلية تفاعلاً كيميائياً .. هذا المكان الرطب قد يكون الماء ذاته أو البرك والمستنقعات أو شواطئ البحار والأنهار على اختلاف الآراء .. انتهى هذا التفاعل الكيميائي إلى إيجاد الخلية الحية التي تطورت إلى خلايا عديدة ثم إلى مخلوقات تحركت في اتجاهات وأماكن وبيئات وظروف تفاعلت مع هذا المخلوق أو ذاك لتصنعه على نحو يتوافق مع البيئة والظروف التي تحيط به ، وظل التطور والتفاعل يتناولان المخلوقات بالتغير والتواءم تبعاً لمدى التفاعل وإمكاناته وطبيعة المخلوق والبيئة التي وجد فيها فكانت الأحياء المائية والبرية والجوية وخلال ذلك انتخبت الطبيعة ما يستحق البقاء وأفنت ما يستحق الفناء ، وكان الإنسان من بين المخلوقات التي تطورت من الخلية الأولى إلى مخلوقات أولية ثم إلى مخلوقات مركبة ، ثم إلى حيوانات فكان الإنسان تطوراً طبيعياً لسكانات مرت بمراحل عدة حتى كان حيواناً يمشي على أربع ، وظل بفعل هذا التطور ينتقل من صورته تلك إلى صورته القويمة الحالية بعد زمان طويل ومحاولات أطول للتكيف والتواءم .

إلى آخر ما تصوره النظريات الطبيعية وعلى رأسها نظرية التطور التي اقترنت باسم دارون ووضع أساسها العالم الفرنسي لامارك

فكان لامارك يعتقد أن البيئة هي الدافع الأساسي للتطور ولها المقام الأول وهي المسؤولة عن تشكيل الجسم والأعضاء والصفات كما كان يعتقد بوجود قوة كامنة في السكان الحي هي المسؤولة عن تطور الأعضاء وفقاً لما تقتضيه البيئة ، فالزرافة مثلاً طالت رقبتها لوجودها في بيئة تتطلب منها ممد رقبتها كثيراً

للحصول على حاجتها الغذائية . والرياضى تتواءم عضلاته مع الثمرين ،  
والكسول تلين عضلاته مع الكسل .

ويختلف دوارون مع لامارك في تفسير التطور فدارون يعتقد بالصدفة  
والانتخاب الطبيعي ، بينما يرجع لامارك كل شيء إلى البيئة ومقتضياتها .  
ورسالة داروين عن أصل الأنواع لم تتعرض لأصل الإنسان لكنها ألمحت  
إلى إمكانية الكشف عن أصل الإنسان وتاريخه من خلال نظريته التي تنتهى  
إلى أن الكائنات تنازعت البقاء وتواءمت مع حاجات هذا التنازع حتى بقى  
الاصليح وهو الذى استطاع أن يوائم نفسه للمقاومة ، مقاومة الطبيعة  
والمخلوقات الاخرى ، وفى غيره ، وهو الذى لم يستطع المقاومة وهكذا  
علل دارون نشوء الانواع الجديدة من السلالات والمخلوقات بالتطور من  
الانواع القديمة .

وهذا ما جعل هاكسلى يرجع أصل الانسان إلى سلالة القروء ، ويؤيد  
هذا الاستنتاج كتاب دارون « أصل الأنواع والانتخاب بالنسبة للجنس »  
إذ ينتهى دارون إلى أن الانسان تطور من نوع سابق له من الكائنات ،  
فاستدل هاكسلى على أن ذلك النوع هو القروء بمشابهة الهيكل العظمى  
للانسان لهياكل الحيوانات الاخرى ، وغير ذلك من أدلة على الصلة بين  
الانسان والحيوان .

وتبنى هذه النظرية وتحمس لها كثير من العلماء والفلاسفة ، وأضافوا  
إليها وطوروها ، واستخدموها فى التدليل على عدم وجود شيء وراء الطبيعة  
وأسندت عملية الخلق والتطور إلى الطبيعة ذاتها ، وكان «ماركس» أحد الذين  
استفادوا من هذا الاستنتاج ووضع فلسفته المادية الاحادية انطلاقاً من هذا  
المبدأ . ووسع مضمونها فى التطور حتى طبقه على النظام الاجتماعى الانسانى

وتاريخ الإنسان السياسى . مكنونا فلسفته الماركسية التى اشتهرت بالشيوعية أو بالاشتراكية العلمية .

ومن هنا كان الانسان فى نظرهم هو مصدر الدين ، فهو صانع الدين وخالقه ومبتدعه وهو الذى تدين بتصرفه وفكره دون أن يكون هناك قوى خارجة عن بيئة الانسان والانسانية ، أو بمعنى آخر دون أى تأثير بقوى خارج الطبيعة ، الطبيعة التى أعطيت فى نظرهم كل قدرة على الخلق والابداع والتدبير . حتى يقول قائلهم : ( ما أسرع ما تصلح الطبيعة ما يحدث الإنسان فيها من عطب . إن جذ الإنسان شجرة وخلفها جذعا دائما . سارعت الطبيعة بنجدتها بكل ما لها من فنون الكيمياء لتستر ذلك الجذع الابتر . فى رفق بثوب جديد ، وما تزال بها تضيف إليها اللقائق الخضراء حتى تعود آية تفتن عشاق الطبيعة من جديد . ويقول : ( هذه الارض التى أطؤها بأقدامى ليست كتلة من جسد موات ، إنها جسد وروح ، إنها كائن حى ، إن للطبيعة أمعاءها ، إنها أم الانسانية . أبذر فيها البذور وترعرع نباتا . إن الطبيعة تبذل جهدها لتطعم الإنسان . . إنها تطعم العقل والجسم جميعاً ، فتغذو الخيال كما تغذوا الجسد . . إنها ليست جميلة فى عين الشاعر وحده وليس الرائع من آياتها غروب الشمس ، وقوس قزح وكفى ، بل لأنها تطعم وتلبس الثياب ، وتأوى إلى ماواك ، وتصطفى دفء المدفأة ، كل ذلك آيات روائع ، وبواعث على الالهام ، منك نشأت مفاصلى وعظامى . . أنا لك أيتها الشمس أخ شقيق ، وإلى هذا التراب سيعود جسدى جذلاً فرحاً . سيعود إلى حيث بدأ . إني منك نشأت وإليك أعود<sup>(١)</sup> .

وهكذا يرفض أصحاب هذا الاتجاه ، صلة الانسان بقوة أعلى من

---

(١) قضية الالهية بين الفلسفة والدين ص ١٨٩ نقلاً عن حياة الفكر فى العالم الجديد ص ٩٣ .

الطبيعة أو البيئة الطبيعية التي تمدّه بكل الاخيلة والأفكار والمعتقدات .  
ويرون أن كل الأديان صنعها الإنسان وصاغها تبعاً لحاجته وظروفه وبيئته  
يقول هنري برجسون : « والواقع أن الطبيعة وقد وهبت الإنسان ملكة  
خاصة تغلبه الخيال من بعض الوجوه . . تلك هي الوظيفة الاسطورية  
أو الملكة الخرافية التي بمقتضاها يستطيع الإنسان أن يخرج شخصيات خيالية  
وهذه الشخصيات قد تكون « أرواحاً ، بادی الامر ، ثم تتحول إلى  
آلهة . . فيها بعد<sup>(١)</sup> » .

ومن هنا يذهب أصحاب هذا الاتجاه مذاهب شتى في تفسير الباعث على  
تدين هذا الإنسان والدفع له على اللجوء إلى دين .

ويمكننا إرجاع هذه المذاهب العديدة في تفسير وتعليل الباعث على  
تدين الإنسان ولجونه إلى دين ، إلى الاتجاهات التالية .

- ١ — اتجاه يذهب إلى تفسير الباعث بـ « خوف الإنسان وقلقه » .
- ٢ — اتجاه يذهب إلى تفسير الباعث بـ « الغريزة » ، بوجه عام .
- ٣ — اتجاه يذهب إلى تفسير الباعث بـ « العقل أو التفكير » .
- ٤ — اتجاه يذهب إلى تفسير الباعث بـ « ملكة خاصة » .
- ٥ — اتجاه يذهب إلى تفسير الباعث بـ « الحاجة الاجتماعية » .

وهذه الاتجاهات قد تتداخل وقد تجتمع بعضها مع بعض في رأى  
واحد وقد تختلط حتى تبدو وكأنها اتجاه جديد .

وسنحاول جاهدين أن نكشف ذلك كله خلال تفصيل كل اتجاه من  
هذه الاتجاهات .

---

(١) المرجع السابق .

### خوف الانسان وقلقه :

يعلل الأكثرون من ناقدى الأديان ظهور المعتقدات الدينية بخوف الانسان وقلقه ، نظراً لضعفه بين مظاهر الطبيعة وكائناتها .

فحين تنهت حواس الانسان وقواه الفكرية فى هذا الوجرد ، وكان فى ذلك الزمن البعيد كالطفل يجهل كل شىء حوله ، ولا يكاد يطمئن إلى شىء حتى يفزع من غيره ، فهو بطفولته هذه لا يرى الماء إلا هولا مفزعاً ، ولا يعرف عن الشجر إلا أنه مارد مخيف ، فكيف به إذا وجد السحاب يتحرك من فوقه ، والمطر يتساقط على رأسه ، والبرق يلعب ويختفى ، والرعد يصوت فيهز بصوته الجبال ، والشمس تختفى أمام سحابة سوداء ، وتظهر فتمد أشعتها إلى كل الأرجاء ، والقمر ينوب عنها فى أوقات دون أوقات

وناهيك بالوحوش والحيوانات المختلفة الاشكال والالوان إذا تجاوزنا الحشرات والهوام .

كل هذه المخلوقات جعلت حركة الانسان فى طفولته الانسانية الاولى - فى اعتقاد القائلين بأن الانسان مصدر الدين وصانعه - حركة الخائف القلق المضطرب الحذر . يتلصص فى كل خطوة خطراً ، وتوقع فى كل لحظة شراً .

وحين يجد هذا المخلوق نفسه وسط هذا الخضم الممتلئ بالاعطال ، ماذا يفعل ؟ وهو الضعيف البادى الضعف لا يملك من الاسلحة المادية شيئاً على الإطلاق ..

لم يكن أمام هذا المخلوق إلا أن يعود إلى نفسه يعتصر قواها ، ويستنهض ما سكتها ، عليها تنقذه من همه وفزعته - هكذا يقولون - .

ولم تزد نفسه إلا هما على همه وفزعا على فزعه . فخرج بنفسه وذهب يطلب النجاة والأمن من قوة أعظم من قوته ، وأقدر على تحقيق الظمانينة له .

ومن هنا وتحت تأثير الخوف والرغبة من مظاهر الطبيعة وكائناتها إذن ، انبعث ولاد الانسان لقوى أو كائنات غافيا أو فلنأقادر على دفع الخوف والرغبة من نفسه فحرص على التقرب لها ليتقى شرها ويضمن نفعها ، ويستدر عطفها عليه فأصبحت جميع قوى الطبيعة وكائناتها آلهة تعبد ، ماينفع عبده الانسان البدائي ليضمن نفعه ، وما يؤذى عبده ليأمن أذاه ويتقى شره وهذا ما يقرره الأكثرون من ناقدى الأديان (١) ومنهم جيفونس Jevons (٢) وكيرك جورد الذى يقول : إذا حذفتم القلق من ضمير الانسانية تستطيعون أن تغلقوا الكنائس وتجعلوها قاعات رقص (٣)

### « الغريزة »

كذلك يدل بعض المحللين والناقدين للأديان ظهور المعتقدات الدينية فى حياة الانسان منذ بداية وجوده على الأرض ، بالغريزة بوجه عام ، فيدخلون الخوف كغريزة ويعبرونه إلى انقول بغريزة أخرى هى الباعث الحقيقى على التدن وهى نفسها تسمى غريزة « التدن » باعتبارها من الغرائز الأولى المتمكنة فى كل نفس إنسانية حتى الملاحدة يدافعون عن إلحادهم كما لو كان الإلحاد ديناً متمكناً يسيطر على عقولهم وقلوبهم يتعبدون من خلاله الطبيعة ويرونها الإله المعصوم ، والخالق المبدع .

(١) العقاد فى مؤلفه « الله » ١٢ كتاب الهلال .

(٢) الطوطمية على عبد الواحد ص ١٠٠ للعارف .

(٣) الصراع فى الوجود بولس سلامة ص ١٧٢ .

وعن هذه الغريزة كان « الدين » ظاهرة عامة في المجتمعات البشرية طوال التاريخ الإنساني . يدفع الفرد إلى البحث عن القوة العليا المدبرة لهذا المكون وعبادتها مباشرة أو بالواسطة .

أى أن الفطرة تهتدى بنفسها وخلقتها الطبيعية إلى دين ، وأن الدين يتوافق مع الطوائف الانسانية ويرضيها .

ومع أن هذا الاتجاه في تفسير الباعث على الدين والتدين لا يتضح في كثير من آراء المحللين والنقاد إلا أنه يوجد ما يشير إليه كقول برجسون ( بيد أن الطبيعة هي التي أرادت العقل الذي من شأنه أن يعمل لمصلحة الفرد ، كما أرادت الغريزة التي من شأنها أن تندمج في الجماعة ) يرى برجسون أن الانسان مدنى بطبعه ( قد تكفلت من تلقاء نفسها بإعادة ذلك النظام الطبيعي الذي قد يخل به العقل بنزعته الفردية ، وسديها أى الغريزة — هو تلك الخرافات والأساطير التي يتميز بها الدين )<sup>(١)</sup> ورأى فرويد الذي يخطط الدين بالغريزة الجنسية ، ويفسر حب الإله بحالة التسامي في الحب الجنسي معتمداً في تفسيره على حالات مرضية لا تصلح للتعميم .

وهذا الاتجاه يقل أنصاره ، لأن تفسير التدين به يحتاج إلى تفسير . فاعتماد الغرائز كدوافع للسلوك الإنساني بوجه عام لا يزال محل جدل كبير ، ولا يمكن اعتمادها - أى الغرائز - دوافع للسلوك الدينى بوجه خاص وهى على هذا الحال من الغموض .

والعقل الإنساني :

وكما يعمل الباعث على الدين والتدين بالخوف أو بغريزة التدين ، أو

---

(٢) قضية الألوهية بين الفلسفة والدين عبد الكريم الخطيب ص ١٣

نقلا عن برجسون ص ٢٠٠

بالغريزة الاجتماعية - على القول بأن الإنسان مدنى بطبعه - أو بالغريزة الجنسية فهناك اتجاه يخرج من حيز الغرائز تماماً إلى حيز الميزة الأساسية التي يتميز بها الإنسان عن كافة الكائنات الأخرى وهى «العقل» .

يقول العقاد فى كتابه «الله» (ومن يسمع لهم رأى راجح فى مباحث العقيدة إمام علماء اللغات المحدثين «ماكس مولر» صاحب الرأى المعدد فى اشتقاق اللغات ومعانى الأساطير وعلاقتها بالعقائد والعبادات ، فهو يؤمن بأن «البصيرة» أى الوعى أو العقل ومواهبه هبة عريقة فى الإنسان وأننا - كما قال فى كلامه على مقارنة الأساطير - «مهما نرجع بخطوات الإنسان إلى الوراء لن يفوتنا أن تبين أن منحة العقل السليم المستفيق كانت من خصائصه منذ أوائل عهده ، وأن القول بإنسانية متسلسلة على التدرج من أعماق البهيمية ، إنما هو قول لن يقوم عليه دليل» .

ومصدقا لهذا الرأى - كما يقول العقاد - يرجح «مولر» أن الإنسان قد تدين منذ أوائل عهده لأنه أحس بروعة المجهول وجلال الأبد الذى ليس له انتهاء ، وأنه مثل لهذه الروعة بأعظم ما يراه فى الكون ، وهو الشمس التى تملأ الفضاء بالضياء ، فهى محور الأساطير والعقائد كما ثبت له من المقابلة بين اللغات واللهجات (١) .

فالعقل فى عرف هذا الاتجاه هو الذى أخذ صاحبه بعد حيرة شديدة وتخبط أشد إلى خيالات ماوراء الحس ، وأوهام ماوراء الطبيعة ، ومن هذه الأوهام والخيالات أقام عالماً من الأساطير والعقائد كانت بداية التدين وبعثاً له فى حياة البشر ، وقد اضطر العقل إلى ذلك ، فى وقت لم يكن الإنسان فيه إلا طفلاً يبحث عن شىء يعوضه عن جهله بحقائق الأشياء حوله .

---

(١) الله ١٧ ، ١٨ .



وهذا الوجود الذى كان كل شيء فيه عند الأولين محملاً بالأشباح والأرواح التى أثارت عقل الإنسان وفكره ، وجعلت هذا العقل يأوى إلى هذه الأشباح والأرواح ، هذا الوجود ظل يتجلى للعقل الإنسانى ويظهر له شيئاً فشيئاً ومع كل مرحلة من مراحل هذا التجلى والظهور كان العقل يغير ويطور عبادته ومعبوداته ، حتى لم تعد مهمة العقل أمام هذا الوجود استرضاء الكائنات وتعبدتها ، وإنما تحولت هذه المهمة إلى محاولة لفهم هذا الوجود والكشف عن القوانين التى تحكم جزئياته وكملياته والوظائف التى تؤديها الجزئيات والكمليات .

إلا أن الإله والتهدين والتهدين قد استقر ذلك كله فى التفكير الإنسانى خلال احتكاكه بالطبيعة وبحته المجرد وأصبح من العسير أن تتخلى الإنسانية عن اعتقاداتها التى اكتسبتها طوال تاريخها وتوارثتها واهتزجت بحياتها ووجدانها .

وكان طبيعياً ألا تظهر العقائد لدى الناس جميعاً على درجة واحدة لاختلاف العقول والأفكار .

وقد ذهب كثير من الفلاسفة مذاهب شتى فى تفسير الصلة بين العقل والطبيعة ، فديكارت ، مثلاً يرى أن القضايا التى توحى بها شهادة الحواس قابلة للشك وحقته فى ذلك أن ثمة أحلاماً تراها ، وأوهاماً نتصورها فنجد أثنائها أننا نعتقد اعتقاداً جازماً فى وجود بعض الأشياء مع أنها مجرد أحلام وخيالات .

وقد جاء بروكى على أثره فنزع منزعه فى الشك فى شهادة الحواس وأنكر كل الحقول التى تعمل فيها حواسنا ، وساغ له أن يقول : إن المادة لا وجود لها فى الخارج ، وإنما يخيل إلينا أنها موجودة ، ولا وجود إلا للروح والعقل .

ولا فرق بين ما نسميه شيئاً حقيقياً ، وبين آرائنا في الشيء وتصورنا له بل العقل يتصور شيئاً ، وفي الوقت نفسه يقع الشيء نفسه ، وليس هناك شيء خارج العقل .

فكل ما حولنا من مواد وأشياء وما نأكله ونشربه ونلبسه وغير ذلك في تقديره وهم وخداع وأضغاث أحلام .

وكل شيء نراه لا يعد وأن يكون من تصورات العقل وخيالاته وصناعاته وليست الآراء والأفكار خيالات باطلة ، بل هي الموجودات الحقيقية التي لا تقبل التغير أما الأشياء الخارجية عن الأفكار والخيالات أي المحسوسات فلا ثبات لها . وهكذا تتحول المادة إلى وهم وخيال ، وتتحول الأفكار والخيالات إن حقائق . في نظر ديكارت وبروكلي وغيرهما .

ولكن كارل ماركس زعيم الفلسفة المادية في العصر الحديث يقرر أن الطبيعة هي التي ولدت الفكر وصنعتة وأبرزت وجوده، وأن النتاج الفكري والمادى انعكاس للطبيعيات على الفكر ، فكان المخ الأدمى بمثابة المرآة تنعكس عليها ماديات الحياة ، وتتفاعل « أي الماديات ، مع هذا المخ فينتج من هذا التفاعل انتاج عقلي فكري كالأدب والموسيقى ومادى كالصناعات والانتراعات فليس العقل شيئاً زائداً عن المادة إنما هو قطعة من اللحم فيها خاصيات التفاعل والحركة شأنها شأن أى شيء مادى ، هذا التفاعل الذاتى هو الذى يتولد عنه كل النتاج الفكري والمادى فى الحياة الإنسانية ، والدين من بين هذا النتاج ، عائد طبعى من التفاعل بين البيئة الطبيعية المادية وقطعة اللحم المسماة ( المخ ) .

« المللكة الخاصة » :

يبدو أن تعليل وجود الدين فى حياة البشرية جميعها منذ وجود الحياة

الانسانية على الأرض حتى الآن يبدو أن تعليل ذلك بالخوف وبالغريزة وبالعقل كل هذه التعليلات لم تحمل الاجابة الشافية لسر وجود التدين والدين لأن التعليل بشيء من ذلك أو بكل ذلك لم يقنع العقل الانسانى بل لم يستند إلى دليل علمى يقنع هذا العقل ، فى الوقت الذى يدعى فيه أصحاب هذا الاتجاه أنهم يتبعون المنهج العلمى ، فكل دعوى تصطدم بحلقة مفقودة فى سلسلة تتبعها للصلة بين الدين والإنسان . تكون هذه الحلقة دافعاً إلى التخمين والافتراض ، مما لا يكتفى لإقناع العقل العلمى .

وكان طبعياً أن يبحث العقل العلمى عن إجابة أخرى ، فكان القول بوجود ملكة خاصة وهبت للإنسان وكانت وظيفتها جر الإنسان إلى التدين وهذه الملكة الخاصة فى رأى تايلور Tylor هى ملكة الاستحياء Animism أى إضفاء الحياة على الجمادات والأموات ، وهى أصل الاعتقاد بالأرباب ، فالطفل يضرب الكرسى إذا أوقعه ، كما يضرب الإنسان والحيوان ، وتايلور يعتقد أن الإنسان الأول كان كالطفل فى تخيله للأشياء وتمثله لها فى صور الأحياء .

ويسبق « هربرت سبنسر » هذا التفسير بتفسير يوافقه فى ظواهر الاستحياء ولا يوافقه فى تعليل الاستحياء .

فالإنسان الأول على رأى سبنسر كان يؤمن بحياة الأرباب - أى يضيف عليها صفة الحياة حتى لو كانت ميتة لأن عبادة الأسلاف هى أقدم العبادات . وكان يرى - أى الإنسان الاول - الأطفاف فى المنام فيحسب أنها باقية ترجى وتخشى حتى بعد موتها ، وأنها تتقاضاه فروضاً لها عليه كفروض الآباء على الأبناء وهم بقيد الحياة ، (١)

---

(١) العقاد فى مؤلفه الله ض ١١ ، ٢٢ طبعة الهلال .

بينما يذهب « برجسون » إلى أن هذه المملكة الخاصة يمتاز بها آحاد من ذوى البصيرة والعبقريّة الموهوبة ، وقد توجد لدى المجتمع كحيلة نوعية يلجأ إليها خيال النوع الإنسانى لكبح الأثرة الفردية ؛ وإقناع الإنسان بنسيان مصالحه فى سبيل المصالح الكبرى التى تتعلق بها حياة النوع فى جميع الأجيال - كما سيحيىء - .

ويسمى « برجسون » هذه الحاسة بالألهام أو الكشف الذى يصل بينه وبين قوة الخلق أو دفعة الحياة .

وقد تطورت دفعة الحياة هذه فى ذهن « برجسون » حتى أصبحت فى كتبه الأخيرة « ذاتا » إلهية تغير ولا تتغير ، ولكنها كونيّة غير منفصلة عن هذه الموجودات وهى تتجلى على أكملها وأوضحها فى بديهة النخبة المختارين من كبار العباقرة الروحانيين .

وهكذا كانت المملكة الخاصة فى نظر بعض العلماء باعثا على التدين سواء سميت بالالهام أو بالكشف أو بالمملكة الدينية أو بالحدس أو بغير ذلك .

### « الحاجة الاجتماعية » :

كما فسر « برجسون » الباعث على التدين بمملكة « الحدس » أى الالهام والكشف . تلك المملكة التى يتمتع بها أفراد قلائل يمثلون أفذاذ أقوامهم فكذلك فسر الباعث على وجود الدين فى كل مجتمع إنسانى بأن الطبيعة عندما وهبت المملكة الخاصة للأفذاذ من الناس ، قصدت إلى تحقيق حاجة إجتماعية هامة هى إقامة التوازن بين مصلحة الفرد وحاجة الجماعة ، فكان « الحدس » مولدا للنزعة الدينية لدى الفرد الذى يقود الجماعة ويؤثر فيها ، وبالتالي يصير الباعث على وجود الدين مشتركا فى نفس الفرد وحياة

الجماعة وكان الدين عندئذ من أجل الفرد والجماعة ، فالدافع إليه إذا كان قد تولد في قلب فرد أو أفراد . يكون في الحقيقة هو الحاجة الاجتماعية ، وإذا كانت الجماعة قد قبلت هذه النزعة ، فلا ريب أن حاجتها كانت من وراء هذا القبول وباعثاً قوياً على ذلك .

من هنا جعل « برجسون » ، إلى الطبيعة خلق النزعة الدينية عند الإنسان لارضاء الحاجة الاجتماعية ، من حيث تتولد في خيال الفرد الأساطير والخرافات ، التي تتطور فتصبح أرباباً وآلهة وعبادات ومعبودات تحمل الوصايا والتعاليم ، تؤدي إلى التوفيق بين نزعات الفردية وحاجة الجماعة .

فمكان الذي استحدث الفرد وبعث فيه نزعة التدين بما توحى به من صور العبادات والمعبودات كان شيئاً في نفسه هو الملكة الخاصة التي وجدت لدى أقداد الناس أو الأمم ، وإن كان الذي حرك هذه الملكة على العمل هو رغبته في قيادة الجماعة إلى خيرها وسعادتها ، فإن الذي حرك الجماعة نفسها إلى الأخذ بالتعاليم والوصايا عبادات كانت أو تفكرات ، هو حاجة الجماعة إلى هذه التعاليم والوصايا الدينية .

ويبدو أن الباعث هنا اشترك فيه الفرد بموهبته الخاصة واشتركت فيه الجماعة بحاجتها . كما يقرر « هنرى برجسون » .

( فالحاسة الدينية الاجتماعية — كما يرى برجسون — حيلة نوعية يلجأ إليها خيال النوع الإنساني ليكبح الأثرة الفردية وإقناع الإنسان بنفسيان مصالحه في سبيل المصالح الكبرى التي تتعلق بها حياة النوع في جميع الأجيال ، فإن الإنسان لو استوحى عقله وحده خدم نفسه وأطاع لذته ، ولم يحمل الأمل ولا الخسارة من أجل أبناء نوعه ، ولما كانت إرادة الحياة مستكنة في النوع كما هي مستكنة في آحاده على انفراد ، نشأت من الغريزة النوعية ملكة يسميها « برجسون » ، بملكة الخرافة الرمزية أو

ملكة الأساطير ، وتسكفت للإنسان بخلق الغرض الذى يستعير به عن منافعه ولذاته حين يهجرها لمنفعة نوعه ، فاعتقد الجزاء بعد الحياة ، وأحس أنه محاسب على الاضرار بغيره ، مثاب على الخير الذى يسديه إلى أبناء نوعه ، واقرنت فيه أثر الفرد بأثر النوع ، فاستقامت على التوازن بينهما مصلحته ومصلحة الناس أجمعين ( ١ ) ويرى دوركايم ، أن النظام الطوطمى — وهو أقدم نظام للتقديس والعبادات — قد انبعث من تلقاء نفسه من العقل الجمعى ، وأزه حقق فوائد اجتماعية ذات بال فالحياة الاجتماعية لاستقيم إلا إذا كان المجتمع ونظمه وأوامره ونواحيه موضع تقديس الأفراد وإجلالهم ، والنظام الطوطمى كان وسيلة لتقنين الافراد وترويضهم على هذا التقديس والاجلال لتقوى آصرة ارتباطهم بمجتمعهم ويسلس قيادهم للحياة الاجتماعية وما تفرضه من نظم وقواعد فكان المجتمع نفسه أول إله عبده بنو الانسان فى نظر دوركايم ،

إلى هنا نكون قد عرضنا أهم الآراء التى تفسر الباعث على تدين الانسان وعلى وجود الدين فى حياة البشرية منذ نشأتها ، بعد أن عرضنا لأهم الآراء حول نشأة الدين ، ومصدره ، وملخص هذه الآراء :

نشأ الدين مع وجود الانسان على الارض سواء بعد ما هبط من الجنة مباشرة كما ترى الكتب المقدسة للأديان الثلاثة ، اليهودية والمسيحية والإسلام .

أو بعدما اكتملت آدميته خلال مرحلة طويلة من التطور والارتقاء كما يرى أكثر ناقدى الأديان .

أو بعد ما تكون أول مجتمع إنسانى كما يرى برجسون ، و دوركايم ، أما مصدر الدين : فلا تعدو الآراء فيه أحد اتجاهين :

---

(١) العقاد فى مؤلفه « الله » ص ١٥ ، ١٦

الأول : أن مصدر الدين قوة عليا من وراء الطبيعة ، وهذا رأى العلماء المؤمنين بأديان سماوية . خاصة علماء اليهودية والمسيحية والإسلام .

الثاني : أن مصدر الدين هو الإنسان نفسه ، وهو رأى العلماء الذين ينكرون الألوهية ، ويرفضون ما وراء الطبيعة والمادة ويرون أن الإنسان نشأ على الأرض وكان تطورا وارتقاء طبيعياً للخلية الأولى التي انتهت إلى فقاريات راقية كالقروود والفسانيس ثم الإنسان .

أما الباعث على تدين الإنسان وعلى وجود الدين في حياته فكان أنساً من الأمور الآتية :

١ - خوف الإنسان وقلقه في وقت كان فيه كالطفل يحبل طبائع الأشياء من حوله ، فكان يرهبها ، لهذا امتلأ عالمه بالآلهة من كل شيء كواكب أو أشجاراً أو أنهاراً أو صخوراً أو جبالات ، أو وحوشاً أو حشرات .

٢ - غريزة الإنسان الشاملة للخوف والجنس والحب والتملك وغير ذلك .

٣ - عقل الإنسان بمواهبه وتأملاته وأفكاره .

٤ - ملكة خاصة اسمها « الحدس » ، أو الإلهام ، أو الكشف أو ملكة التدين .

٥ - الحاجة الاجتماعية التي تضطر المجتمع إلى الالتزام بنظم وقواعد تتعارض كثيراً مع أهواء الأفراد ورغباتهم ، ولا يلزم الأفراد بها إلا تصور صاحبها إلهاً ومعبوداً قادراً على إثابة المطيع ومعاقبة العاصي .

هذه آراء غير المؤمنين بأديان سماوية في تفسير الباعث على الدين ، أما المؤمنون بأديان سماوية ، فيرجعون الباعث على تدين الإنسان بالنزعة الفطرية إلى القوة العليا وشعور الإنسان الفطري بضرورة هذه الصلة بينه

وبين هذه القوة، والآن جاء دور مناقشة كل هذه الآراء والأفكار . بعد ما تجمعت وقدمت بصورة بعيدة عن الهجوم أو التأييد ، فكانت بمثابة عناصر أساسية نرى من معاليتها بالتحليل والنقد والمناقشة أو بالحوار العلمى المستقيم ، إن كانت حقائق أو أباطيل أو أن كانت قادرة على وضع أيدينا على الحقائق أو على بعضها .

### مناقشة الآراء فى نشأة الدين ومصدره والباعث عليه :

عرفنا لما سبق الآراء فى نشأة الدين :- أن الدين نشأ مع وجود الإنسان وبمجرد هبوطه من الجنة فى رأى السكتب المقدسة لليهود والمسيحيين والمسلمين ، من حيث كانت الصلة بين الإنسان (آدم) وبين القوة العليا (الإله) عن طريق الوحي .

أو أنه أى الدين - وجد بمجرد تنبه الإنسان بعد مروره بمراحل الترقى والتطور أى بعد وصوله إلى كماله الأسمى المميز فى نظر معظم القائلين بأن الإنسان مصدر الدين وأنه أى الانسان نشأ على الأرض بفعل الطبيعة ونتيجة للتطور الذاتى للخلية . فلجأ إلى تعبد بعض مظاهر الطبيعة ظناً منه أنها قوى تنفع وتضر .

وهذان الرأيان يتفقان فى أن الدين وجد مع الإنسان الأول سواء جاء من الجنة - على رأى الأول - أو جاء من الطبيعة - على رأى الثانى - فهل هذه هى الحقيقة ؟ وما هو الدليل عليها ؟

تدلل الأديان السماوية على صحة اتجاهها جملة : بأن الإله القادر المحيط العالم الخبير هو الذى أخبرنا بهذا الخبر على لسان رسل صادقين ووقعت على أيديهم معجزات خارقة للعادة والقوانين الطبيعية . كانت بمثابة تأييد لصدقم ، ومن هنا جاء العلماء المؤمنون بدين سماوى من هذه الأديان أو بكلها يحاولون



لإبطال الآراء المضادة عن طريق شد الناس إلى المعجزة التي ظهرت وانتهت أو عن طريق شد اتباعهم إلى النظر في الكون، والتأمل في صنعته، ليأخذوا الدليل على وجود الصانع الخالق، ثم ينتقلون بالناس إلى نظريات دينهم يطالبونهم بتصديقها ترتيباً على تصديقهم بالمعجزة التي لادليل عليها غير النظرية المكتوبة. أو تصديقهم بوجود الإله الخالق لهذا الكون، بينما جاء آخرون يطالبون أتباع الأديان أن يعتقدوا دون بحث أو نظر، قائلين لطالب النصيحة : ( اعتقد وأنت أعمى ) .

وينفرد الإسلام — كمدین سماوی — بدلیل حسی لم تعبت به يد المحرفين، ولا يزال دليل الأديان كلها على صدق دعوى نشأة الدين مع وجود أول إنسان على هذه الأرض وهو آدم .

فقد قدم القرآن قضية هبوط آدم من الجنة، وتلقيه الوحي، وعبادته للخالق في صورة لا تناقض العلم ولا تتنافى مع العقل، بل هي أدعى إلى الاستناد إليهما وتحكيمهما، لا للتدليل على صحة القضية، بل لتأكيد إيمان المؤمنين وتثبيتته، فطالما كان العالم المحيط بالخير هو صاحب الخبرة أنى للآخر أن يطاولوا علمه، وأنى للجاهل بنفسه أن يعلم خبر السموات والأرض، فكيف بهم يمتحنون حديثه وهم أدنى وأقل من هذا الموقف بكثير .

ومع هذا طرح القضية أمام العقول والعلوم، ولا تقول لأحد ( اعتقد وأنت أعمى ) إنما تعلم المؤمنين أن يقولوا كما قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى . قال أولم تؤمن ، قال بلى . ولكن ليطمئن قلبي . . . ، فهل يستطيع العلم البشرى أن يقول الكلمة الصادقة الحاسمة في هذا الشأن ؟ .

إلى أين وصل العلم ؟

يقول د هجو ويلز، في الفصل الحادي عشر من كتابه « موجز تاريخ العالم ،

( إن أقدم ما يعرفه العلم في زماننا هذا من العلامات والآثار لبشر لا يتطرق الشك إلى قرابتهم لذوات أنفسنا ، عثر عليه في أوروبا الغربية وخاصة فرنسا وأسبانيا ، فقد اكتشفت في كل من هذين القطرين عظام وأسلحة وخدوش على العظام والصخر وقطع من العظم المحفورة ، ورسوم على جدران الكهوف وعلى سطوح الصخور ، ترجع فيما يظن إلى ثلاثين ألف سنة أو أكثر ، وأسبانيا هي في الوقت الحاضر أغنى بقاع العالم بتلك البقايا المتخلفة عن أسلافنا من بشر حقيقيين .

ومن البديهي أن مالدينا في الوقت الحاضر من مجموعات من تلك الأشياء ليس إلا قطرة من البحر الطامى الذى ينتظر جمعه مستقبلا ، يوم يتواجد العدد الكافى من المنقبين للقيام بفحص استقصائى شامل لجميع المصادر الممكنة ويوم يتاح لعلماء الآثار ارتياد بقية أقطار العالم الأخرى التى يحال بينهم اليوم وبين دخولها ، فيفحصونها فى شىء من التفصيل ، فن المعلوم أن الشطر الأكبر من أفريقيا وآسيا لم يتيسر اختراجه البتة حتى اليوم لمشاهد مدرب يهتم بهذه الأمور . . وعلى ذلك ينبغى لنا أن نحرس الحرص كله من أن نستنتج أن الانسان الحق الاول امتازت به أوروبا أو أنه ظهر أولا بتلك المنطقة (١) .

ويقول : فى الفصل الثانى عشر : لنطلق الآن لافكارنا العنان لتجول فى عالم الخيال بضع جولات ممتعة ، فكيف كان الانسان الاول يشعر بإنسانيته فى تلك الايام الاولى للمغايرة البشرية ؟ وكيف كان الرجال يفكرون ، وفيم كانوا يفكرون فى تلك الايام السحيقة من الصيد والتجول قبل أربعمائة قرن سلفت ، وقبل ابتداء أو أن البذر والحصول ؟ تلك أيام تسبق بزمن مديد كل سجل مكتوب يدون الانطباعات والافكار الانسانية ،

لذا ليس أمامنا الآن من سبيل إلا أن نركن إلى الاستنتاج والتخمين دون غيرهما في إجابتنا عن هذه الاسئلة .

وغنى عن البيان أن المصادر التي لجأ إليها رجال العلم حين حاولوا تهور تلك العقلية البدائية ، وإعادة تركيب أجزائها معا ، متنوعة جدا ، ففي العصر الحديث يلوح لنا أن علم التحليل النفسى قد ألقى قدراً عظيماً من الضياء على تاريخ الجماعة البشرية البدائية ، بأصلوبه الذى يتفحص الطريقة التى بها تكنف الدوافع الانانية والعاطفية فى الطفل ، أو تعدل ، أو تغطى بأشياء أخرى . حتى يتيسر تسكيّفها وفق حاجات الحياة الاجتماعية ، وثمة مصدر آخر للاستنتاج دافى القطوف . هو دراسة فكريات وعادات المتوحشين الذين لا يزالون يعيشون فى هذا العالم . وهناك أيضاً ضرب من التخلف والجمود العقلى فى الفولكلور ( الادب الشعبى ) وفى الخزعبلات والتحيلات غير المعقولة العميقة الرسوخ فى النفوس ، والتي لا تزال موجودة بين الشعوب العصرية المتمدنة ، ثم إن لنا فى تلك الصور والتماثيل والرسوم المحفوظة والرموز وما أمشها ، مما يكثّر عدداً ، ويتزايد كلما اقتربنا من عصرنا الراهن لشواهد واضحة الدلالة على ما كان الإنسان يراه مشوقاً له ، وجديراً بالتسجيل والتثيل (١) .

هذا هو الطريق الذى أتبعه الدارسون والباحثون ، وهذه هى علومهم بشأن الإنسان الاول . وهذه هى نتائج العلم البشرى .

الطريق غير واضح ، ووسائل العلوم غير مضبوطة ، أو غير كافية ، والنتيجة الخيال والتخمين ، كما هو واضح فأين العلم ؟ العلم بمعنى اليقين والحقيقة !!

لا يوجد علم إذن من لدن إنسان حتى الآن ، لانه لم يوجد الإنسان الذى

---

(١) المصدر السابق ص : ٤٥ ، ٤٦

يحجوب الأرض ويمتحن آثارها ويستخرج تاريخها، ويستنطق أحداثها،  
ليقول حقيقة حاسمة عن الإنسان .

ولن يوجد العلم بمعنى اليقين والحقيقة إلا إذا توفرت للإنسان كل هذه  
الوسائل وكان الإنسان نفسه قادراً على استيعاب هذه العلوم محيطاً بها .

وحتى ذلك الحين تبقى كلمات الإنسان عن الإنسان الاول مجرد  
خيالات وتخمينات لاصلة لها بالعلم .

فأين إذن يكون العلم : لابد من لدن خبير عليم محيط توفرت له وسائل  
العلم والإحاطة والخبرة ، فهل نجده ؟ .

#### قضية الإنسان الاول مع الوحي :

القرآن وهو المرجع المعتمد في الكتب الثلاثة التي تنسب إلى السماء  
لأنه آخرها ولأنه ثبت عدم تعرضه للتجريف ولأنه دون في عصر  
الرسالة بعكس الكتب الأخرى : ولأنه يعترف بالاديان الثلاثة  
ولا ينسكروا أحداً منها ، يقول القرآن بشأن الإنسان الاول والوحي في  
حوار بين الاله وملائكته « وإذ قل ربك للملائكة إني خالق بشراً من  
صلصال من حمأ مسنون ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له  
ساجدين » (١) (وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً) (٢) .

( إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين ، فإذا سويته ونفخت  
فيه من روحي فقعوا له ساجدين ) (٢) وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل  
في الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن

---

(١) سورة الحجرات آية ٢٨ ، ٢٩

(٢) الفرقان آية ٥٤

(٣) ص : آية ٧١ ٧٢

نُسيح بحمدك ونقدس لك ، قال إني أعلم مالا تعلمون (١) (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب (٢) .

هذه الآيات تقرر أن الصلة بين الإنسان الأول وبين القوة العليا بدأت منذ اللحظة التي تقرر فيها أن يعمر الأرض كائن جديد غير الكائنات الأخرى كلها ، كائن صنع على نحو خاص . وتتمياً لهذه المهمة الأرضية ، لكنه حتى ينجح في مهمته كان لابد أن يمر بمرحلة يتعرف فيها على نفسه ، وكيونته وصلة هذه النفس وهذه الكينونة ، بما حوله وما سوف يواجهه من بيئة وظروف .

لقد خلق الإنسان من مواد أرضية بينها الخالق في قوله ( من تراب ثم ، من ماء ، ثم ، من طين ، ثم من صلصال من حُمٍ مسنون ) وهي كلمة مواد متصلة الماء والتراب والطين والصلصال ، ويكاد يكون استنتاج المنكرين للألوهية ، المؤمنين بنظرية التطور والارتقاء قد انتهى إلى شيء قريب من هذه الحقيقة عن طريق العلم التجريبي الذي حلل مكونات الإنسان ، وعلم أنها لا تعدو الماء والتراب أى الطين الذى يحف فيصبح صلصلاً فإذا جف أكثر ، أصبح غباراً ، أو صلصلاً من حُمٍ مسنون لقد قالوا أن الإنسان نشأ في مكان رطب من خلية تفاعلت مع الطين الرطب أو الماء إلى آخر هذه الآراء ، وهذا لا يعد تأكيداً لنا لنظرية التطور ولا تأكيداً للقرآن بنظرية التطور ، إنما هو بيان لإمكان العلم أن يصل إلى بعض الحقائق التي سبقه إليها القرآن لا كل الحقائق .

المهم أن الدين نشأ مع الإنسان كوسيلة تعينه على التكيف مع نفسه وكيونته المجديده ومع ما حوله من كائنات وبيئات وظروف ومادام قد خلق من مواد

---

(١) البقرة آية ٣٠

(٢) آل عمران : ٥٩

أرضية ، ونفخ فيه من روح الخالق حتى يتميز عن بقية المخلوقات الأخرى الأرضية ، كان لابد أن نفهم أن الشيء الذي كان من روح الخالق هو الشيء الذي يميزه عن بقية الكائنات - وهو القلب الذي يعقل - فكل ما احتواه الجسد الانساني أرضى ، ومن بين هذه المحتويات الغريزة ، وقد خلقه الخالق فسواه ، وأصبح بهيئته العامة الظاهرة ، جسم إنسان لكن الملائكة أسرت بأن تسجد له بعد أن ينفخ فيه من روح الله ( فإذا سويته - أى أكملت بناءه المادى - ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ) أى أعطيته ميزته التى لم تعط لكان آخر غيره ، وهى نفخة من روح الله - أى القلب أو الفؤاد الذى يعقل ، فقعوا له ساجدين ، أى أعلنوا الولاء والطاعة بالسجود له ، فالسجود لم يكن إلا لما يميز به الانسان من روح الله ، وهو القلب أو الفؤاد . الذى ملك بروح من الله قدرات عديدة وهائلة كالعقل والفهم .

وفى اعتقادى أن هذا السجود كان تكريماً بإيزة الإنسان وهى العقل وكان أيضاً إعلاناً لإمكانات هذا العقل وقدراته : فسجود الملائكة له رمز لما تهباً لهذا العقل من إمكانيات تصل به إلى حد إمكان خضوع قوى الكون كلها لهذا العقل . فإذا كانت ملائكة الله أعلنت سجودها وخضوعها ماعدا إبليس ، فإن قوى الكون كلها تصبح مطاطة الرأس أمام ملكات وقدرات الإنسان القلبية العقلية ، والطريق إلى ذلك هو العلم كاتبين الآيات التالية لآية خلق آدم وأمر الملائكة بالسجود ( وسنشرح ذلك فى مكان آخر من هذا الكتاب ) إن شاء الله .

فقد بين الخالق عطاياه للإنسان وكيف وصلت إلى تسخير كل شيء فى هذا الكون من أجله وإلى قدرته التى منحت له بنفخة من روح الله لو استخدمها هيات له الوصول إلى كل شيء حتى الملائكة الأعلى ، وقد اهتمنى الإنسان الأول بفطرته هذه التى فطر عليها ، إلى معرفة الخالق من خلال بيان

م ٩ - الانسان

القرآن وأدلته تنتهى إلى أن الدين نشأ مع وجود آدم كإنسان أعد ليعمر الأرض ويستخرها ، وكان هذا الاعداد بالعقل وبالدين وكان إعداداً كافياً ، حيث عرف نفسه وكميونه وقدراته ، وطبيعة الأشياء من حوله ، ويحسن بنا أن نوفي هذا الموضوع بياته استطراداً ، ثم نعود لموضوعنا الأصلي .

### استطراد في بيان أصل الإنعسان وكيف واجه الحياة :

خلق الإنسان من الماء والتراب أى من الطين الذى جف فأصبح نخاراً أو صلصالاً .

خلقه الله بقدرته ، وهياه لعمارة الأرض ، فلاخلاف بيننا وبين القائمين بالتطور سوى إنكارهم للخالق ، وإسنادهم عملية الخلق إلى الطبيعة التى كان عليها أن تمرر الخلية بمراحل عديدة وطويلة حتى يصبح مخلوقاً عاقلاً .

أما الإله القادر الذى أوجد الطبيعة كلها ، فكان غير محتاج لكل هذه المراحل ، ودليل القائمين بالتطور والارتقاء ، لا يعدو الوسائل الغير كافية لاستنتاج حقيقة علمية ، فيصبح قولهم استنتاجاً نظرياً من مقدمات لم تتأكد صحتها بعد ، أو تخميناً لاصلة له بالعلم .

أما دليل الدين فهو هذا الكتاب - القرآن - وما تضمنه من علامات علمية يقينية لا ريب فيها ، لأن القائل بها تهيأت له وسائل المنهج العلمى الصحيح ، وهو الخير بها ولا ينبيء أحد فى موضوع مثل الخير به .

وهو يقدم هذه العلوم ويتحدى العالم كله أن يقدموا دليلاً على بطلان شئ منها ، ولم يطل شئ منها حتى الآن ، فأى المرتبتين أقرب إلى الحقيقة .  
التخمين الذى اعتمد على بعض وسائل غير واضحة وغير كافية للوصول إلى حقائق علمية ، أم النتيجة التى اعتمدت على وسائل المنهج العلمى كاملة ،

ولا تحتاج من المنكرين إلا إلى افتراض صدقها على الأقل والبحث عما يوصلهم إلى اليقين بالدراسة الجادة ، لا ريب أن المرتبة الثانية هي الأقرب إلى الحقيقة وهذه هي الأدلة التي تقود إلى اليقين :

١ - لم يكتف القرآن ببيان أصل الإنسان وأنه نشأ من طين ، بل ذهب يبين كيف تهبأ هذا المخلوق لعبارة الأرض ، وكيف تكيف مع ما حوله وهو الضعيف العاجز ، فبين أن الخالق جهزه لهذه المهمة في تكوينه ، وخلقه وحده دون بقية الكائنات على نحو خاص ، ولم يتركه للصدفة ، ولا للطبيعة والتطور الطبيعي ، فأعطاه القلب الذي يعقل به ، ويدرك ويفهم . ويتطور ، ويطور ، عن طريق العلم والتعليم . منذ الوهلة الأولى لنشأته .

كما أمدّه بالعلم حيث لا معلم غير الخالق في ذلك الوقت ، فعلمه بالنظرية وبالتجربة ، علمه بالنظرية عن نفسه أن طبيعته تحمل الاتجاهين اتجاها الخير واتجاها الشر ، ( وهديناه النجدين ) وأن اتباع دعوة الخير توصله إلى الراحة والسعادة واتباع دعوة الشر توصله إلى الجوع والعري والخوف والشقاء ، ( فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له عيشة هنكا ) ، وعلمه بالنظرية أيضاً - الكثير عن ما حوله وبين له أن مصدر دعوة الخير هو الوحي واتباع ما يأمر به الخالق والالتقاء عما ينهى عنه ، وأن مصدر دعوة الشر هو إبليس الذي يأمر بعصيان الخالق .

وأن العلم هو وسيلة الإنسان في الدنيا كي يسرد الأرض ويسخر كائناتها وعلمه بالتجربة عن نفسه وعما حوله كل تلك الحقائق :

حين عصى فأكل من الشجرة التي نهاه المولى عن الأكل منها فبين نفسه ، وهواها ، كما تبين طبيعة أوامر الخالق ، وطبيعة أوامر الشيطان بالتجربة ، وعرف الخوف وكيف يتغلب عليه ، وعرف القلق ، وعرف العري وكيف يتغلب عليه . وعرف الجوع وكيف يرضيه ومن أى الأشجار



يرضى جوعه ( وعلم آدم الأسماء كلها ) عرف كل شيء يمكنه من معايشة الكائنات الأرضية ، وكيف يختبر كل شيء قبل أن يأكل ، إلى آخر هذه الأمور التي تساعد على معايشة الكائنات ، فإذا خاف أو قلق أو شغل لها إلى خالقه .

وبعد هذا التعليم بالنظرية وبالتجربة معا قال الخالق ( اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ) (١) .

وهكذا كان هدى الله ودينه وسيلة آدم وحواء للتكيف مع هذا الكون . وهكذا كان بيان القرآن دليلاً شافياً وإجابة على كل التساؤلات التي يمكن أن تصدر عن العقل في هذا الموضوع . فيستقر ويطمئن وينشط في مجالات الحياة المختلفة الأخرى ، فلا يضل ولا يشقى .

٢ - ومن الأدلة التي تقود إلى اليقين أيضاً أخبار القرآن عن طبيعة النفس البشرية الفردية والاجتماعية والقواعد الاجتماعية التي يقدمها القرآن ويرتب عليها الخسران والفلاح ويقسم على صدقها ويدال عليها من واقع تاريخ الأفراد والأمم والشعوب ، ولم تكذب أو تختل أبداً ( والعصر إن الإنسان لفي خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات . وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ) ، ( والتين والزيتون وطور سينين ، وهذا البلد الأمين لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه ، أسفل سافلين ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ) .

هذا ولو تتبعنا الأدلة الموصلة إلى اليقين في القرآن لاحتجنا إلى كتب ومجلدات .

---

(١) طه آية ١٢٣ .

ويهمنا الآن أن نقرر أن الدين في نشأته كان متواكباً مع وجود أول إنسان على الأرض ، وأن رأى القائل بأن نشأة الدين تأخرت قليلاً حتى تكون أول مجتمع إنساني ، رأى لا دليل له غير عدم خلو المجتمعات من الدين ، وهو دليل على شيء غير الشيء الذي يجب أن يدل عليه لأن انتفاء الدين عن الإنسان الفرد الأول أمر يحتاج إلى دليل هو الآخر .

ولا يفوتنا أن نبين خطأ متفشياً في الدراسات الإنسانية هو الخلط الواضح بين الإنسان البدائي والإنسان الأول .

#### حقيقة الإنسان البدائي :

فالإنسان البدائي الذي تصفه الكتب المتصلة بالدراسات الإنسانية — كالتاريخ والجيولوجيا والسلالات والاجتماع وعلم النفس — يبدو أنه يفتقر كثيراً جداً عن الإنسان الأول .

فالإنسان الأول كما طالعنا ( وهو آدم ) كان على اتصال بالله عن طريق الوحي وقد تعلم كيف يتعامل مع نفسه ومع الكائنات من حوله .

أما الإنسان البدائي : فلا يخرج عن كونه قرداً راقياً ، أو وحشاً قبيح المنظر كما تصوره تلك الكتب فنقول مثلاً : ( عندما حل الزمن الكاينوزي الأوسط كما يسميه البيولوجيون - كانت قد ظهرت قردة عليا متعددة ذات خواص شبه إنسانية كثيرة في الفك وعظام الساق ، ولكنهم لم يعثروا على أية آثار لمخلوقات يمكن وصفها بأنها إنسانية على وجه العموم إلا عند الاقتراب من العصر الجليدية ، إذ عثر المنقبون في أوروبا في رواسب تعود إلى تلك الفترة عمرها يتراوح بين نصف المليون أو المليون سنة ، على أشياء وأحجار بتجلى فيها بوضوح أنها نحتت تصداً بيد مخلوق ذي مهارة يدوية يريد أن يطرق أو يخدش أو بقاتل بالحد المشهود .

وقد سميت هذه الأشياء باسم الأدوات الحجرية الأولى ، وليس في أوربا أية عظام ولا أية بقايا أخرى تدل على ذلك المخلوق الذي صنع هذه الأشياء ، وإنما توجد الأشياء نفسها وحسب .

ولم يكن هذا الكائن إلا قرداً غير إنسانى تماماً وإن يكن ذكياً ( في نظر هــ ويلز ) وهو تخمين لا دليل عليه .

ولكن حدث أن أحد العلماء عثرفي « ترينل » بجزيرة جاوه ، وبين ركام تعود إلى ذلك العصر نفسه ؛ على قطعة من جمجمة وأسنان وعظام مختلفة لنوع مامن إنسان قردى ، وله وعاء مخي أكبر من وعاء أى قرد راق يعيش الآن ويلوح أنه كان يسير منتصب القامة ، ويسمى هذا المخلوق الآن باسم الإنسان القردى المنتصب القامة ، كما أن المقدار الضئيل من عظامه هو كل ما لقيه خيال متبعي هذا التاريخ حتى الآن في تصورهم لصناع الأدوات الحجرية الأولى .

ثم يعثر بعد ذلك عند رمال بقارب عمرها ربع مليون سنة ، على أدوات كثيرة يبدو أنها تحسنت تحسناً مطرداً مع تقدم سجل الحياة ، فهي لم تعد أدوات حجرية أولية قبيحة الصورة ، بل أدوات حسنة المنظر صنعت بمهارة كبيرة فضلاً عن أنها أكبر كثيراً من مثيلاتها من أدوات صنعها بعد ذلك الإنسان الحق .

ثم ظهرت بعد ذلك في حفرة رملية قرب « هيدلبرج » عظمة فك مفردة شبه إنسانية ، وهى عظمة فك قبيحة الصورة ، مجردة من الذقن تجرداً تاماً وهى أثقل كثيراً من أية عظمة فك إنسانية حقاً ، وأضيق ضيقاً يرجح معه أن لسان صاحبها لم يكن يستطيع أن يتحرك في فهمه بالنطق الواضح البين ، ويستنتج رجال العلم من قوة عظمة الفك هذه ، أن هذا المخلوق كان وحشاً ضخمأ كالإنسان تقريباً ، ربما كانت له أطراف وأيد ضخمة ، وهو

يسمى بإنسان هيدلبرج ؛ ثم عثر على جزء من جمجمة في « بلتداون » ، يمتنع بعض العلماء إلى إرجاعها إلى زمن أقدم من زمن عظمة هيدلبرج وسمى صاحب هذه الجمجمة باسم إنسان الفجر . وليس بين رجال العلم من يرى أن أياً من هذين المخلوقين هو السلف المباشر للإنسان العصري<sup>(١)</sup> .

وهكذا يتبع الجيولوجيون المكتشفات من مثل هذه الأشياء في محاولة لمعرفة عمر الحياة الانسانية على الأرض ؛ والوصول إلى الانسان الاول دون جدوى حتى ينتهى الامر الآن إلى الاعتراف بأن كل ماوصلت إليه الانسانية بشأن الانسان الاول لا يعدو جهلاً كاملاً بصفاته وتصرفاته وبالزمن الذي وجد فيه ، وبالشكل الحقيقي الذي كان عليه .

حتى الإنسان الذي كان يعيش منذ قرابة خمسين أو ستين ألف سنة مضت وهو مخلوق بلغ من قوة مثابته للإنسان أن بقاياه كانت تعد إلى بضعة سنوات مضت بشرية تماماً وتوجد الآن منه الجماجم والعظام كما توجد كميات من الآلات التي كان يصنعها ويستعملها ، فكان يستطيع أن يوقد النار ؛ وكان يلجأ إلى الكهوف انقاء للبرد ؛ وكان يستعمل يده كما يفعل الناس .

حتى هذا المخلوق يرى علماء السلالات أنه لم يكن من الانسان الحقيقي في شيء ، بل هو في نظرهم نوع آخر من المخلوقات ، ولا يدرون أين نشأ الانسان الحقيقي الاول<sup>(٢)</sup> ولا تزال البحوث قائمة والكشوف تتوالى يوماً بعد يوم ، والإنسان الأول غير واضح المعالم . من وجهة النظر العلمية .

فالانسان الاول الذي يتحدث عنه القرآن والمكتب السماوية الاخرى

---

(١) موجز تاريخ العالم ص ٣٢ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ص ٣٦ وما بعدها .

غير الإنسان البدائي تماماً ، وهذه هي الحلقة المفقودة ، التي جعلت مسأله  
النشوء والارتقاء العضوى ، مثار مجادلات أليمة وكثيرة بين الناس ، إذ انتهت  
إلى أن أصبح أشد الناس تمسكا بالعقائد الكاثوليكية ، والبروتستانتية  
واليهودية والإسلامية ، لا يخرجون من قبول هذا الرأى القائل بأن لجميع  
الكائنات أصلاً مشتركاً ، بل قامت محاولات شتى لتطوير وتأويل وتفسير  
ماورد فى الكتب السماوية ليتماشى مع الرأى الحديث الذى ينبنى أن الحياة  
نشأت على الغبراء جملة وفجأة ، ويرى أن الانسان من بين الكائنات  
مر بمرأحل طويلة من التطور والارتقاء حتى اكتسب إنسانيته وقوته  
وإدراكه .

ومع أن هذا الرأى يتنافى تماماً مع ما جاء فى الكتب السماوية ، فإنه  
أيضاً يفتقد كثيراً من الأدلة على صحته ، بل يفتقد المنهج والوسائل العلمية  
الصحيحة ، فالقرآن ينبنى تماماً أن تكون الحياة وجدت من غير  
موجد خالق علم حكيم ، كما ينبنى نفياً قاطعاً أن يكون الانسان البدائي  
المتوحش هو آدم النبى ، لأن الفرق واضح بين وصف الجيولوجيين  
للإنسان البدائي ، وبين وصف القرآن لآدم . كما ينبنى أيضاً أن  
يكون التطور بالنسبة للإنسان بالذات دون الكائنات الأخرى — قد حدث  
على الأرض الحالية ومر بهذه المراحل الطويلة التى تقول بها نظرية التطور  
والارتقاء ، وهذا النفى القاطع يؤيده الاختلاف الواضح بين آراء الجيولوجيين  
والرفض القاطع لعلماء السلالات أن تكون العظام والجماجم التى عثر  
عليها لمخلوقات منذ خمسين أو ستين ألف سنة وقبل بلوغ العصر الجليدى  
الرابع أوجه أن تكون لانسان حقيقى مع وجود التشابه بينهما .

ومن هنا تصبح الحلقة المفقودة ، فى نظرية التطور ، هى الانسان الاول  
الحقيقى ، وحتى العثور على هذه الحلقة المفقودة تبقى النظرية بلا معنى  
ولا صلة لها بالحقيقة ولا بالعلم ، خاصة بالنسبة للإنسان .

يقول ويلز : « ولكثير من رجال العلم آراء وتأملات ونظريات حول البداية الأولى للحياة ، وغالباً ما تكون نظرياتهم تلك عظيمة النفع ، ولكن أحداً منهم لم يصل إلى أية معلومات باثة محددة ، ولا فرض علمي يركن إليه عن الصورة التي بدأت بها الحياة ، على أن جميع النقات يكادون يجمعون على أنها ربما ابتدأت على التلين أو الرمل بالمياه الدافئة الضحلة القليلة الملوحة والمعرضة لنور الشمس <sup>(١)</sup> » .

والغريب أنه بالرغم من عدم الانتهاء إلى رأي ثابت في هذا الموضوع نجد من الناس من يحاول أن يهز الحقيقة العلمية الثابتة ؛ لمصلحة رأي متهن غير ثابت فبماذا يمكن أن نصف هؤلاء الناس ؟ لا أقل من أنهم متحيزون .  
والنتيجة :

وضح من خلال هذه المناقشة في نشأة أن الدين وجد مع الإنسان الأول ؛ هذا هو الرأي الصحيح الذي قامت عليه الأدلة العلمية .  
ووضح أيضاً من المناقشة أن مصدر الدين هو الإله الخالق المحيط .  
لكننا سنقف وقفة ثانية لمناقشة القول بأن مصدر الدين هو الإنسان حتى تنجلي الحقيقة أكثر .

#### مناقشة القول بأن الإنسان هو مصدر الدين « تفصيلاً »

القول بأن الإنسان هو مصدر الدين كما قول قديم ذهب إليه بعض فلاسفة اليونان القدامى .  
ويبدو أن هذا القول في العصر الحديث يستند إلى نظرية التطور والارتقاء ولمناقشة هذا الاتجاه نحتاج إلى بيان وتوضيح مايلي :  
مصدر الدين الحقيقي الذي نشأ مع الإنسان الأول ، وكان صلة بين

القوة العليا والانسان ، وهذا الأمر قد تم توضيحه وبيان حقيقته أثناء مناقشة نشأة الدين ، وتبين أن الصلة بين الإله ( القوة العليا ) وبين آدم ( الإنسان ) عن طريق الوحي قد بدأت بمجرد هبوطه إلى الأرض واستمرت بعد ذلك .

مصدر العقائد الأخرى التي أطلق عليها ( دين ) بالنظر إلى المعتقد نفسه ، ومشابهة اعتقاده وما يعتقد فيه ، وما يقوم به من ممارسات عقيدية بالدين وليس لها صلة بالدين الذي هو رابطة بين قوة عليا وبين الإنسان إلا من وجهة نظر المعتقد كعبادة البقر مثلاً .

وهذه العقائد وإن أطلق عليها الدين تجوزا يقوم الاتفاق بين العلماء والباحثين على أن مصدرها الإنسان وهذه لا تحتاج إلى مناقشة . ولا يصح الحكم بها على الدين الصحيح .

مصدر العقائد التي ترجع إلى دين أصلي صحيح ثم تحولت بالتحريف والتغيير والتدخل الإنساني إلى عقيدة مخالفة للدين في بعض الأمور وإن كان أصلها دينياً صحيحاً وهذه العقيدة هي مبعث الخلاف وتعدد الآراء ، وهي أيضاً مبعث التشكك في أصل الدين ومصدره ، نظراً لإدعاء أصحاب هذه العقائد أنها سماوية وإصرار أهلها على ذلك ، بينما تحمل هذه العقائد عناصر هدمها ونقضها متمثلة فيما زيفه الإنسان على الوحي . ولم يستطع أن يقنع به العقل السليم .

مصدر العقائد التي ترجع إلى دين أصلي ثم تحولت بالتدريج وفعل الإنسان وتدخل العقل الإنساني والعاطفة الانسانية إلى عقيدة مخالفة للدين في كل أمورها أو في أصولها ، أي أصبحت رجعية في فكرها وسلوكها .

وهذه العقيدة يتفق العلماء على أن مصدرها الانسان ، وإن ادعى أهلها غير ذلك حيث انقطعت الصلة تماماً بينها وبين أصولها الدينية ، وأصبحت

صناعة إنسانية ، كعبادة الأصنام مثلاً ، وادعاء أنها تقرب إلى الله . .  
فكان الاتفاق ينبعده على أن العقائد التي أطلق عليها « دين » تجاوزاً ،  
والعقائد التي انقطعت صلتها بأصلها الديني ، من صنع الإنسان ومن بدعه .

أما العقائد التي ترجع إلى دين حقيقي ثم أصابها بعض التحريفات  
والتغيرات فهي سر تشكك العلماء في مرجع الدين وأصله .

ولو تخلصت هذه العقائد الأخيرة كاليهودية والمسيحية عما نابها من تحريف  
وتغيير صنع الإنسان ففتح به مجال النقض والنقص ، لانهصر الشك  
وضاقت دأثرته .

وعليه فلم يبق إلا الدين الحقيقي الذي لم تصل إليه يد إنسان بتغيير أو تحريف  
هذا الدين هو الذي تقوم الأدلة على أنه من وحى القوة العليا ومن وراء  
المادة ، وهو الذي نشأ مع آدم وتبع المجتمعات الإنسانية حتى اكتمل  
رشدتها ، ونضج عقلها ، وأصبحت قادرة على تنظيم حياتها وإدارة هذه  
الحياة بنفسها من خلال دين خاتم صالح لكل زمان ومكان ، يحمل في ذاته  
الدليل على ذلك .

تضمن هذا كتاب محسوس ملموس يحمل الأدلة العلمية على هذه  
الحقائق مبنياً طبيعياً الدين ومصدره وتبعه للإنسانية بالرعاية حتى  
تحقق كمالها .

هذا الكتاب هو القرآن ، وأدلتها قائمة على أسس علمية ومنهج علمي  
من حيث كان من لدن عالم بأسرار الكون بدايته ونهايته ، وهذا شرط  
أساسي في المنهج العلمي — أن يكون الباحث عالماً بأسرار صنعته محيطاً  
بجوانبها — ومن حيث حمل هذا الكتاب في مضمونه الدلائل العلمية على  
أنه من لدن هذا العالم وأيضاً من حيث بين حقائق التطور للإنسان  
والرسالات بصورة علمية وعقلية ومنطقية يسهل كشفها ومشتاؤها إن شاء



الله في مكان آخر من هذا الكتاب بالتحليل و التفصيل . في الجزء الخاص  
بالإنسان في ظل الإسلام .

ويكفينا في الدلالة على موضوعنا ما كتبناه بشأن نشأة الدين عند  
مناقشتنا السابقة . .

مناقشة الباعث على الدين : أو الدافع إليه تفصيلا :

متى يمكن قبول تفسير الباعث على تدين الإنسان بشيء مما سبق ؟

بخوف الإنسان ، وقلقه ، أو بغرائزه الأخرى ، أو عقله ، أو ملكه  
خاصة ، أو الحاجة الاجتماعية .

قبول تفسير الباعث على تدين الإنسان بهذه الأمور أو ببعضها أو بأمر  
هذا يمكن في حالة ما إذا كان الإنسان فيها مصدر الاعتقاد ، وصانعه ، وقد  
عرفنا أمورا يكون الإنسان فيها مصدر اعتقادات تشبه الدين في بعض  
المظاهر ، ويطلق عليها « دين » تجاوزا أو بالنظر لاعتقاد المعتقد . أى يقبل  
تفسير الباعث على تدين الإنسان في مثل هذه الحالات بأمر مما سبق على  
أساس وجود نزعة التدين الفطرية والخطأ في التطبيق وعندئذ فلا مانع من  
ربط هذه النزعة بالغريزة أو بالعقل أو بملكه خاصة إلخ .

ولا يصح أن يجادل أحد في وجود دافع فطري وراء بحث الناس  
عن مدبر الكون ومحركه ، لاسترحامه أو شكره ، أو التقرب إليه  
أو طلب الحماية منه .

متى يرفض تفسير الباعث بشيء مما سبق ؟

أما رفض تفسير الباعث على تدين الإنسان بأمر من تلك الأمور  
السابقة ففي حالة ما إذا كان المقصود هو الاستدلال على أن الإنسان هو  
مصدر الدين الحقيقي ، بمعنى أن الدافع هذا قد ألجأه إلى صناعة الأديان كلها بما  
فيها الدين الصحيح وعندئذ لا بد من التفرقة بين المصدر والباعث .

ذلك لأن الخيط الرفيع بين الحالتين جعل الكثير من الدارسين يقعون في خطأ تصور الباعث على التدبّر ومصدر الدين شيئاً واحداً ، صحيح أن الانسان هو محل التدبّر وأن نفسه التي تحمل فطرة الاعتقاد بالآلوهية ، ويشارك الناس جميعاً - المتحضر والبدائي - في الاعتقاد بوجود قوة عليا - فطرة الله التي فطر الناس عليها - حتى الملاحدة صاروا عباداً لآلهة صنعها أهواؤهم كتقديس الماركسيين لماركس وتصورهم للقوة العليا في الطبيعة ، لكن هذه النفس أعجز وأضعف من أن تصل إلى الصورة الصحيحة لتنظيم العلاقة بين جزئيات كيان الإنسان نفسه من جهة وبينها وبين الآخرين من جهة ثانية ، وبينها وبين الكون وكائناته من جهة ثالثة .

فكان لا بد أن تتلاقى كيفية هذا التنظيم من قوة قادرة فكان الوحي من لدن الاله مصدر الدين الحقيقي الصحيح - الوحي الخارج عن حدود هذا الكيان المادى - الوحي الذى يتجاوز أهواء النفس وأغراض الذات وأناية الفرد إلى نظام عام صالح للفرد وللجماعة .

وهكذا يفترق الباعث على التدبّر عن المصدر الدينى ولا يصح أن يكون الباعث النابع من تكوين الانسان وقواه ومدرّكاته وحاجاته ودوافعه دليلاً على أن مصدر الدين الحقيقى هو هذا التكوين النفسى العاجز عن التكيف مع جزئياته ومع الكون من حوله .

فنفس الانسان إذا انتهت إلى الاشتراك فى التطلع نحو شىء مقدس ينظم علاقة الكيان مع نفسه ومع الكون من حوله ومع خالق الكون فإنها لا تستطيع أن تنتهى إلى ذات الدين الذى يقوم بهذه الوظيفة كاملة . وبطريقة ناجحة تماماً .

ومن هنا كانت العقائد التى صنعها الانسان أو تدخل فى صنعها ، واضحة المعالم ويمكن التعرف عليها بسهولة ، لأنها تكون غالباً عقائد ذاتية ، فيها

أنانية الانسان أو هواه ، أو عصبية ، أو ظلمه أو شعوبيته ، أو عنصريته ، أو جهله أو غباؤه ، أو غرائزه العدوانية .

أما الدين الحقيقي فلا تلمس فيه شيئاً من ذلك أبداً .

بل يذهب الدين الصحيح في تنظيمه لعلاقة الانسان بنفسه الفردية وبنفسه الاجتماعية ، وبما حوله من كائنات مذهبا عادلا حكيما يتميز بالنظرة العامة الشاملة السكاملة المدركة لطبائع الناس والأشياء ، الخيرة بمحاجات النفس الانسانية ونظم الاجتماع الانساني .

عندئذ لا يمكن تصور مصدر لمثل هذا الدين غير قوة عليا ذات صفات خاصة تملك الخبرة والعلم والاحاطة والقدرة على إدارة هذا الكون كله وما يشمله من كائنات بما فيها الانسان أى صفات الكمال جملة .

أما الباعث على التدين فقد يحده الانسان كل إنسان بين جوانحه ، لأنه خلق فيه ، وتأصل في نفسه ، حتى تمكن في حياته الفردية والاجتماعية .

وبالتالى يصبح مصدر الباعث نفسه هو القوة العليا الخالقة ، التى صنعت الانسان - لى هذا النحو صنعته دائب البحث عن الحقيقة .

« وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ، (١) .

وحين هبط الانسان إلى هذا الوجود - أول إنسان - قد كان قد حمل من المعارف الأسامية ما يمكنه من العيش في هذا الكون ، إذ تنهت فيه ملكات الحذر وامتحان كل شيء حوله ، لأنه قد تعلم بالتجربة خطورة الاقبال على أى شيء قبل إمتحانه ، حين أكل من الشجرة ، بل وقبل أن يأكل منه الخالق إلا أنه إذا أكل هبط من الجنة وشقى .

---

(١) الاعراف آية ١٧٢

وفقلنا يا آدم : إن هذا عدوك ولزوجك فلا يخرجكما من الجنة فتشقى، (١) .

فكان توقعه للشقاء والأذى يجعله مترددا حذرا في طعامه وشرابه وفي معاملته المخلوقات الأخرى ، وكانت خطواته متثددة ، ونفسه دائمة اللجوء إلى بارئها ، فكان آدم أول الأنبياء كما كان أول البشر . ثم تبعته الإنسانية وبين جوانحها ذلك الباعث الخفى ، يعمل على شد الانسان إلى القوة العليا دائماً

لكن كيف نفسر عبادة الانسان البدائى أو تقديسه لبعض مظاهر الطبيعة ؟  
وقد حمل الانسان الأول معارف الايمان على هذا النحو !  
لابد من دراسة تطور العقائد كيف ابتدأت وإلى أين انجحت .

---

(١) طه آية ١١٧



## الفصل الثاني

### الدين والإنسان والتطور

العقائد – الشرائع – العقائد البشرية ، والعقيدة الالهية ،  
الشرائع البشرية ، والشرعة الالهية

## الدين والإنسان والتطور

سنعود أن نسرّد آراء العلماء والباحثين كما هي في حيدة تامة ونفرد لمناقشتها مكاناً خاصاً حتى لا تختلط الأفكار ، وحتى يستفيد القارئ أكبر فائدة ، إذ يجد أمامه فرصة الاطلاع على مختلف الآراء ، ثم الاطلاع على مناقشة مستقلة ، فترجح لديه فكرة خاصة ، قد تكون مضمون ، ما اطلع عليه ، وقد تكون جديدة ، وفي كل خير . لكننا نعلن منذ البداية ما سبق أن وصلنا إليه وهو معرفة الانسان الأول للاله الواحد خالق الانسان والكون ، فماذا هناك بعد ذلك

### آراء العلماء :

يقول صاحب كتاب « موجز تاريخ العالم » : والراجح أن الإنسان البدائي كان يفكر بطريقة تشبه كثيراً طريقة تفكير الأطفال ، أعنى أنه كان يفكر في سلسلة من الخيالات ، فكان يستدعى إلى مخيلته الصور العقلية للأشياء ، أو كانت الصور العقلية ( الأخيلة ) تقدم نفسها لعقله ، كما أنه يتصرف حسباً تمليه عليه الانفعالات التي تثيرها تلك الأخيلة ، وذلك هو ما يفعله في هذه الأيام طفل أو شخص غير متعلم ، ومن الواضح أن التفكير المنظم إنما هو تطور متأخر نسبياً في الخبرة الانسانية ، وهو لم يلعب دوراً كبيراً في الحياة الإنسانية إلا في غضون الثلاثة آلاف سنة الأخيرة .

بل إن أولئك الذين يضبطون أفكارهم حقاً في هذه الأيام نفسها ، وينظمونها فعلاً ليسوا إلا أقلية ضئيلة من الناس ، ولا يزال معظم الناس يتأثرون بالخيال والعاطفة .

ومن المحتمل أن أقدم ما ظهر من الجماعات البشرية إبان المراحل الأولى

لقصة الإنسان الحق ، كانت تتكون من مجموعات عائلية صغيرة ، وكما أن قطعان ورعائل الثدييات الأولى نشأت عن عائلات ظالت بعضها مع بعض ثم تكاثرت ، فن المحتمل أيضاً أن القبائل الأولى قد فعلت مثل ذلك ، ولكن قبل حدوث ذلك ، كان الأمر يقتضى أن تقيد بصورة ما أفتانيات الفرد البدائية ، وكان لابد من بسط فذكرتي « الخوف من الأب واحترام الأم » ، حتى تتغلغلا في حياة الكبار ، وكان لابد من تخفيف غيرة الرجل السكمل الطبيعية ، من ذكران الجماعة الصغار عندما يكبرون ، وكانت الام من الناحية الأخرى هى الناصح الطبيعى والحامى الفطرى للصغار(١) .

وقد تولدت الحياة الاجتماعية الانسانية عن طريق التفاعل بين الغريزة الفجة التى تدفع الصغار إلى الانفصال ، وتسكرين أزواج من أنفسهم عندما يشبون ، وبين ما يتعرضون له من أخطار العزلة ومضارها

ومن الكتاب الميامين إلى إطلاق العنان لتأملاتهم من يريدون منا أن نعتقد بأن احترام الرجل العجوز والخوف منه ، والانفعال العاطفى الذى يحسه المتوحش البدائى إزاء العجائز المسنات اللواتى يتواين حمايته ، كانت مصدر شطر عظيم من بدايات الديانة البدائية ، ومن فكرة الارباب والرباب.

ومما يرتبط بهذا الاحترام للشخصيات القوية أو القادرة على المساعدة شعور بالرهبة أو التوقير لهذه الشخصيات بعد وفاتها ، يرجع إلى عودتها إلى الظهور فى الأحلام ، لذا كان من البسير الاعتقاد بأنها لم تكن ميتة

---

(١) يلاحظ أن الكاتب يعالج موضوعه من خلال الخيال والتخمين ، ولذلك عرض أفكارا لا تحدث من الإنسان إلا إذا كان قد عرف القيم والمبادئ ، واستقرت فى نفسه حتى يشعر بقيمتها - كالغيرة ، والنصح وإلا كيف يصل الانسان وهو بدائى إلى هذه القيم المدنية .

حقاً ، وأن كل ما فى الامر أنها نقلت نقلاً وهمياً إلى منتهى تستمتع فيه بقوة أعظم مما كان لها (١) .

وخلاصة هذا رأى أن الإنسان البدأى يشبه الطفل فى تفكيره وسلوكه وأن هذا التفكير المتناسب مع الطفولة الانسانية ، كان مصدر فكرة الارباب والربات التى بدأت بوجدانات طفولية نحو الكبار من الاجداد والجدات ، الذين إذا ماتوا لم يكن من السهل انتزاع الوجدانات نحوهم ، خاصة وأن الاحلام والاوهام والخيال كل ذلك ساعد على الاعتقاد ببقائهم ولورمزيها ، فبدأ الاعتقاد بالارباب والربات على هذا النحو ليتطور بعد ذلك .

ويرر الكاتب نفسه هذه الافكار بقوله : ( ومن المعلوم أن أحلام الطفل وتخيلائه ومخاوفه أكثر إشراقاً وواقعية من أحلام الراشد العصرى ، وما كان الرجل البدأى دائماً إلا طفلاً فى تفكيره أو يكاد ، كما أنه كان أيضاً أدنى إلى الحيوانات ، وكان يتصور أن لها دوافع واستجابات مثل التى له ، وكان يستطيع أن يتخيل هناك حيوانات معاونة ، وأخرى معادية ، وحيوانات آلهة ، ولا يحتاج الإنسان منا إلا أن يكون فى صغره طفلاً واسع الخيال ليدرك من جديد ، كم كانت الصخور الغريبة الشكل أو الكتل الخشبية أو الاشجار الشاذة الصورة وما أشبهها ، تبدو لاعين رجال العصر الحجري القديم مهمة وذات مغزى خطر أو منذرة بالشور أو مظرة للبودة ، وكيف كانت الاحلام والاوهام تخلق من الحكايات والاساطير عن مثل تلك الاشياء ما كان يصبح مقبولا ومصداقاً عندما يروى (٢) .

وهكذا تصور الكتاب كما تصور غيره أن عبادة الآباء والحيوانات كانت بداية الاعتقاد بالآلهة .

(١) ج ويلز ص ٤٦ ، ٤٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٧ .



### سر هذا التصور :

نشأ هذا التصور عن الاعتقاد بأن الإنسان نشأ على هذه الأرض كما نشأ  
أى حيوان آخر ، فلم تكن به أية قوة علوية ، ولم تراعه أية عناية إلهية ، بل  
ألقى فى الحياة وأصبح هملاً يكيف حياته بنفسه ويصنع معبوداته بحواسه  
وعواطفه وعقله أحياناً

فكان عسيراً عليه جداً أن يصل بتطوره إلى أكثر من هذا ، فلم يكن  
تقارداً فى ربطه السبب بالنتيجة ، لكن سهل عليه ربط النتيجة بشئ بعيد عن  
سببها — فى اعتقاد أصحاب هذا الانحياز — كأن يقول : « أنت تفعل كذا  
وكذا فيحدث كيت وكيت » ، فأنت تعطى ثمرة لأحد الاطفال فيموت ،  
وأنت تأكل قلب عدو مغوار فتصبح قوياً . هذان مثالان للربط بين السبب  
والنتيجة وأحدهما قد يكون حقيقة والآخر باطل ، وتسمى طريقة ربط  
الغلة بالمعلول على هذا النحو فى عقل المتوحشين باسم « الفتيشة » — أى  
أعتقاد المتوحش أن كل شئ هادى تسكنه روح تقوم لمالك الشئ بالخدمات  
— ولكن الفتيشة إنما هى فقط علم المتوحشين ، وهى تختلف عن العلم  
العصرى فى كونها لا تقوم على أى أساس من التنظيم أو التخصيص ، فهى لذلك  
خاطئة فى الاعم الاغلب

وكان التطور الطبيعى كفيلاً بتصحيح أفكار خاطئة بالتجربة والخبرة  
ولا شك أنه طالما جرب آلافاً من التعاويذ والرقى والذنور وآمن بها ليحصل  
على نتائج مرغوبة وأشياء تهمه كوفرة الصيد وسهولة الحصول عليه . والنجاة  
من الموت والمرضى الذين يهددونه .

فكانت الاحلام أو الخيالات الوهمية تجعله يلوم هذا الرجل أو  
الحيوان أو الشئ أو يلتمس منهم المعونة ، بحكم قابليته للخوف  
والذعر كالطفل .

ولابد — كما يقول الكاتب هـ جـ ويلز أيضاً — أنه حدث في زمن مبكر جداً من تاريخ القبيلة الإنسانية الصغيرة ، أن العقول الأكبر سنّاً والأثبت جناناً والتي كانت تسهم في المخاوف وتسهم في الخيالات ، ولكنها أقوى قليلاً من العقول الأخرى ، قد تصدرت للنصح ووصف الوصفات وإصدار الأوامر ، فراحوا يصرحون أن هذا أمر مشؤوم وذلك شيء محتوم ، وأن هذا بشير خير ، وذلك نذير شر . وكان الخبير باعتقاد البدائي ويعنون به الطبيب الساحر — هو الكاهن الأول ، وهو الذي يقدم النصائح ويفسر الأحلام ، ويحذر ويقوم بالتعاظم الجوفاء التي تجلب الحظ وتجنب النكبات ، ولم ترق الديانة البدائية إلى ما نسميه الآن باسم الديانة من حيث هي طقوس وشعائر ، كما أن الكاهن الأول كان يملئ على الناس ما هو في الحقيقة علم عملي تحكّمي (١) من وجهة نظره .

وكان العقائد في نظر هذا الاتجاه كانت تتطور تبعاً لسنة التقدم والارتقاء فبدأت بمدد من الأحلام والخيالات وتمثلت في الأساطير والسحر حتى صعدت إلى قمة مجدها بمدد من الأخلاق والفكر . وتمثلت في توحيد الإله وتنزيهه .

وكان السحرة والكهان أصحاب الأمر والنهي والسلطان ، ثم نازعهم العلم والعلماء وكان صراع طويل خيل لكثير من الناس أن الدائرة مستدور على العقائد كلها حتى تسقط راية الدين ، وتذهب هيئته من النفوس ، وينطلق العالم بلاخوف ولا قيود من أي نوع ، إلا بالعلم ومن أجل العلم . . هكذا يقولون . وقد اتضح هذا الاتجاه تماماً في الفكر الماركسي وأعلن بلامواربة أن الدين صنعه الإنسان على ذلك النحو المتطور وقد آن له أن ينبيه بالعلم

ويقول العقاد في كتابه « الله » : يعرف علماء المقابلة بين الاديان ( أى علماء مقارنة الاديان ) ثلاثة أطوار عامة مرت بها الأمم البدائية فى اعتقادها بالآلهة والارباب وهى :

١ — دور التعدد Po ytheism

٢ — دور التميز والترجيح Henotheism

٣ — دور الوجدانية Monotheism

فى دور التعدد كانت القبائل الاولى تتخذ لها أرباباً تعد بالعشرات وقد تتجاوز العشرات إلى المئات ، ويوشك فى هذا الدور أن يكون لكل أسرة كبيرة رب تعبده ، أو تمويذة تنوب عن الرب فى الحضور وتقبل الصلوات والقرابين .

وفى الدور الثانى وهو دور التميز والترجيح تبقى الارباب على كثرتها ويأخذ رب منها البروز والرجحان على سائرها . إما لأنه رب القبيلة الكبرى التى تدعى لها القبائل الاخرى بالزعامة ، وتعتمد عليها فى شئون الدفاع والمعاش ، وإما لأنه يحقق لعباده جميعاً مطلباً أعظم وألزم من سائر المطالب التى حققها الارباب المختلفة .

وفى الدور الثالث تتوحد الأمة فتجتمع إلى عبادة واحدة تؤلف بينها مع تعدد الارباب فى كل إقليم من الاقاليم المتفرقة ؛ ويحدث فى هذا الدور أن تفرض الأمة عبادتها على غيرها ؛ كما تفرض عليها سيادة تاجها وصاحب عرشها :

والرأى الارجح عند علماء المقابلة بين الاديان أن الاعتقاد بالثنائية يأتى أحياناً كثيرة بعد اعتقاد الوجدانية على الصورة التى أجعلناها وهى الوجدانية الناقصة التى تأذن بوجود الارباب معها أو بتنازع الوجدانية بين إله دولة وإله دولة أخرى ،

وهم يعللون ظهور الثنائية بعد الوحدة بأن الانسان يترقى في هذا الطور فيحاول تفسير الشر في الوجود بنسبته إلى إله غير إله الخير ، ولا يكون هذا من قبيل النكسة في عقيدته ، لأنه لا يزال يسبغ تعدد الأرباب ويسبغ التمايز والترجيح بينها ، والتفاوت بين درجاتها وطبائعها .

وأثبت من هذا عندهم كما يقول العقاد — أى عند علماء المقابلة بين الأديان — أن وحدة الوجود تأتي بعد جميع هذه الأطوار توفيقاً بين النقااض والضرورات ، وإثباتاً لوجود الله من طريق الثبوت الذى لا شك فيه : وهو ثبوت الكون بالحس والعقل والايان .

ولم تكن أرباب الأمم الماضية في جميع أطوارها نوعاً واحداً أو مثلاً لفكرية واحدة ، ولكنها أنواع شتى يجمعها العقاد في الأنواع التالية .

١ — أرباب الطبيعة أو الأرباب التى تتمثل فيها مشاهد الطبيعة وقواها كالرعد والبرق والمطر والفجر والظلام والنيايح والبحار والشمس والقمر والسماء والريبع

٢ — أرباب الانسانية وهى الأرباب التى تقترن بأسماء الأبطال والقادة المحبوبين والمرهوبين ، ويحسبهم عبادهم من القادرين على الحوارق والمعجزات .

٣ — أرباب الأسرة وهم الأسلاف الغابرون ، يعبدهم أبناءهم واحفادهم ويحبون ذكرهم بالحفلات والمواسم المشهودة كما يحبى الناس ذكرى الموتى في هذا الزمان ويزورونهم بالاقوات والالطاف ، ولكن مع هذا الفارق البين وهو أن الرجل الهمجى لا يمنع ما منع أن يجعل الذكرى عبادة وأن يجعل هدايا القبر في حكم الضحايا والقرايين .

٤ — أرباب المعانى كرب العشق ، ورب الحرب ، ورب الصيد ورب العدل ، ورب الاحسان ، ورب السلام .

٥ — أرباب البيت كرب الموقد ورب البئر ، ورب الجرن ، ورب الطعام .

٦ — أرباب النسل والنصب وهى على الاغلب الاعم فى صورة الاثاث ، ويسمونها بالامهات الخالدات ، وقد ترفت مع الزمن إلى واهبات الخلود بعد هبة الحياة .

٧ — آلهة الخلق التى ينسب إليها خلق السماء والارض والانسان والحيوان .

٨ — الآلهة العليا وهى آلهة الخلق التى تدين عبادها بشرائع الخير ، وتحاسبهم عليها ، وتجمع المثل العليا للمحاسن والاخلاق ، وتضمن السعادة الابدية للأرواح فى عالم البقاء .

وهذه الطبقة من طبقات العبادة هى أرقى ما بلغتة الانسانية فى أطوارها المتوالية ، واستعدت بعده للإيمان بإله واحد لجميع الاكوان والمخلوقات بغير استثناء أمة من الناس (١)

ويبدو أن الاستاذ عبد الكريم الخطيب فى مؤلفه « قضية اللاهوية بين الفلسفة والدين ، قد شارك أصحاب هذا الانجاء فى الايمان بنظرية تطور الدين وارتقائه تبعاً لسنة التقدم والرقى للحياة المادية والفكرية والانسانية فرأى ما رآه غيره فى هذا الشأن « كول ديورانت » فى قصة الحضارة الجزء الاول ص ١٠٢

يقول الاستاذ عبد الكريم الخطيب : « لانفسكر أن حاجة الانسان المادية هى التى استحثت فى الانسان الاول (٢) نزعة التدين ، وهى التى أوحى

---

(١) العقاد ص ٢٠ — ٣٢ ، الله ، .

(٢) واضح أن للمؤلف وهو مسلم اختلط عليه الامر فلم يصر بين الانسان الاول والإنسان البدائى .

إليه بكثير من صور الآلهة التي عبدها ، ولجأ إلى حماها ، وطالب السلامة من شرها ، والتمس الخير من خيرها ! . .

غير أن الدين الذي يرتكز على هذه الركائز المادية ليس ديناً بالمعنى المفهوم لكلمة « دين » ، وإنما هو شعور منبعث عن خوف وقلق يحمل الانسان على أن يمد يده إلى كل ما يظن أن إليه مفزعاً وعنده ملجأ . . فالغريق الذي يعلق بكل شيء ، ويلتمس النجاة من أى شيء ، لا ينبغي أن تحسب تخبطاته شيئاً يدخل في حساب المنطق والعقل .

فلا نسخر إذن من أجدادنا الأولين ، إذا رأينا من معبوداتهم تلك الأشياء التي نمر بها ، ولا نأبه لها ، كالقطط والبقر ، والسكباش ، وأنواع مختلفة من الطيور ومظاهر الطبيعة من برق ورعد ومطر وسحب ورياح وأصناف متعددة من النبات

لانسخر من هؤلاء الأجداد ، إذ كانت هذه الأشياء عندهم محوطة بالغموض تبدى لهم في صور متشعبة بالأسرار والألغاز .

وإذا صح القول بأن من جهل شيئاً عاداه ، فإن من الصحيح أيضاً أن يقال : من جهل شيئاً رهبه ، ومن رهب شيئاً استكان له ، ومن استكان لشيء فقد عبده .

لهذا كان عالم آباءنا الأولين مليئاً بالآلهة . ويستدل الخطيب على كلامه بكلام لول ديورانت يواصل به حديثه وهو : فمن كل كوكب ، ومن كل صخرة ينبثق وجود يشيره ينبوع من الاحساس الذي تدرك به كثرة ما هنالك من قوى شبيهة بقوى الآلهة . . منها الضعيف ومنها القوى ، ومنها الجليل ، ومنها الضئيل ، تتحرك كلها بين السماء والارض ، فتحقق غاياتها التي كتمتها في أجوافها سرا . .

ثم يواصل الخطيب حديثه الدال على إيمانه بنظرية تطور الأديان والعقائد تبعاً لتطور الحياة الانسانية المادية والفكرية فيقول :

فاذا رشد العقل شيئاً ، وتكشف له بعض حقائق الاشياء فرآها على الوجه الذى زارها نحن الآن به . أنس إلى تلك الاشياء ، ونظر إليها نظر تأمل وتفكر ، ثم لا يلبث أن يستوحى من تفكيره وتأمله مثلاً رفيعة من الجمال والجلال المتدفق من مكنونات هذه الموجودات .

وراح سيادة الأستاذ المسلم يربط بين نظريته هذه فى العقائد وبين تطور الفنون الأخرى ونموها فى رحاب الدين وبوحى من معبوداته وآلهته (١) ، ويبدو أن هذه المسألة أصبحت كمسألة النشوء والارتقاء العضوى أى أصبحت شائعة ، ولا يتحرج من قبولها أشد الناس تمسكاً بالعقائد السماوية المعروفة اليهودية والمسيحية الإسلامية .

بل ذهب كثير منهم إلى محاولات جاهدة لاختضاع تعاليم اليهودية والمسيحية والإسلام لهذا الرأى وذلك الاتجاه .

كادعاء أن أبا البشرية وأول الانبياء مسبوق بأوادم أخرى تصدق عليهم نظرية التطور العضوى ، والتطور الدنى . ظناً منهم أن هذا التفسير ومثله يخدم الدين من جهة ، ويوأم بين العلم والدين من جهة أخرى .

وكان يجب أن يتيقن هؤلاء وغيرهم إن كانت هذه الانجماهاات علمية فى الحقيقة أم غير علمية .

ولاشك أن اليقين وليد البحث والنظر والعلم ، فهاهى الوسائل التى أعتمد عليها هؤلاء وغيرهم للوصول إلى هذه الدعوى — دعوى علمية هذا الانجما . . . فى مقابل دعوى الكتب السماوية — وخاصة القرآن — إن الدين بدأ بدعوى الوحدانية لله وانتهى بها فلم تتطور العقيدة الدينية الحقيقية من لدن الاله الحق والوحى الصحيح ، إنما الذى نابها من

تبديل وتحريف كان يمثل رجعة فكرية تدل على عجز العقل الانساني إنما الذى تطور حقيقة ، ومن جهة الوحي الصحيح فالشرع لا العقيدة .

ولكى ينال هذا الموضوع حقه من الدراسة والبحث فسوف نقسمه إلى فقرتين .

الفقرة الاولى مع نظرية التطور الدينى وأدلتها .

الفقرة الثانية : مناقشة هذه الادلة للنظر فى صحة علميتها .

نظرية تطور العقائد والاديان وأدلتها :

لا يفرق أصحاب هذا الاتجاه بين صحيح العقائد من فاسدها ، كما لا يفرقون بين السماوية منها والارضية ، ولا يفرقون بين العقيدة والشريعة انطلاقاً من نظرتهم الاساسية المتجهة إلى تقرير التطور العضوى - أى تطور الاحياء من الخلية إلى كائنات مختلفة ، حتى وجد الانسان الحقيقى بعد هذه المراحل فكان من مخلوق أشبه بالحيوانات - فالتطور الدينى والعقائدى للإنسان يشبه تطوره العضوى من حيث التدرج والارتقاء ، وإن اختلف نسبياً - أى التطور الدينى - من مجتمع إلى مجتمع .

ويستند أصحاب هذا الاتجاه إلى نظرية التطور والارتقاء ، كما يستندون إلى مشاهدات واستقراءات أجريت على مجتمعات بدائية ومتوحشة ومجتمعات تجاوزت البدائية والتوحش إلى طور أرقى ثم إلى أطوار أكثر رقىا ، فهذه المشاهدات والاستقراءات إلى نتيجة يجمع عليها علماء هذا الاتجاه ( وهى : أن الايمان بالارواح شائع فى جميع الامم البدائية ، وأن الامم التى تجاوزت هذا الطور إلى أطوار الحضارة وإقامة الدول ، لا تخلو من مظاهر العبادة الطبيعية أو عبادة الكواكب على الخصوص ، وفى طليعتها الشمس والقمر والسيارات المعروفة ، وأن عبادة الاسلاف



تتخلل هذه الاطوار المتتابة على أنماط تناسب كل طور منها حسب نصيبه من العلم والمدنية .

أما التوحيد فهو نهاية تلك الاطوار كافة في جميع الحضارات الكبرى . فكل حضارة منها قد آمنت بإله يعلو على الآلهة قدرا وقدرة ، وينفرد بالجلالة بين أرباب تتضامل وتخفت حتى تزول أو تحتفظ ببقائها في زمرة الملائكة التي تحف بعرش الاله الاعلى .

لكن الاديان الكتابية — بعد كل هذا — هي التي بلغت بالتوحيد مرتقاه ، وعلمت الناس شيئا فشيئا عبادة الاله « الأحد » الذي خلق الوجود من العدم ، ووسعت قدراته كل موجود في السموات والأرضين ، ولم يكن له شريك في الخلق ولا في القضاء .

وذاك التوحيد الإلهي الذي نشأ من توحيد الدولة لم يعرض لخلق الكون كله ، ولم يذهب بفكرة التكوين إلى أبعد من خلق الانسان من مادة موجودة لا حاجة بها إلى موجد .

ولما بحثوا في خلق الأرض والسماء كانت فكرة الخلق عندهم بمثابة فكرة التنظيم والتجميل ، لأنهم نظروا إلى مادة الأرضين والسموات كأنها حقيقة راهنة ماثلة للحس والنور في غنى عن المبدع ، ولا حاجة بها إلى شيء غير التركيب والتنسيق ، وفرضوا لتركيبها أسلوبا من الصناعة كأسلوب الانسان في تركيب مصنوعاته من موادها الحاضرة بين يديه .

وظل العقل البشري محصورا في هذا الأفق إلى عهد الديانة الاغريقية قبل الدعوة المسيحية بل بعد الدعوة المسيحية في بعض الجهات بزمان غير قليل . فلم يكن « زوس » كبير الآلهة خالقها ولا خالق الكون بما رحب من أرض وسماء ولكنه كان بينها كرب الأسرة بين الأبناء والأحفاد ، أو كالسيد المطاع بين الأعوان والأتباع .

وبلغ من سريان هذه الحالة العقلية ، في الازدهان أن الفلاسفة أنفسهم لم يجهدوا عقولهم في البحث عن أصل للمادة أو الهوى . كأن وجودها حقيقة مفروغ منها لا تتوقف على مشيئة خارجة عنها ، فلما ترقى الانسان في فهم الوحدة الالهية ، أصغر من الكون بمقدار ما أكبر من الله ، فجاء تفكيره في خلق الكون من طريق تعظيمه لقدرة الله وأفراده بالوجود الصريح والقدرة السرمدية على الإيجاد فاقتحم بالإيمان بابا لم يقتحمه بالتأمل والتفكير .

فالإيمان بالأرواح كان أشيع إيمان وألزمه لبديهة الانسان في مبدأ الدين والاعتقاد

ولا مانع من تعليل اهتدائه إلى « الروح » بالعلة التي شرحها سبنسر وتيلور وهي الأحلام واستحياء الجماد ، إذ لم يكن في طاقته أن يفهم الروح فهما أصح من هذا الفهم في ظلمات الجاهلية ، وعشرات النظر بين غياهب تلك للظلمات :

فكان ينام ويرى أنه يعدو ويرقص ويأكل ويشرب ويقاقل في منامه ، ثم يستيقظ فإذا هو مكانه لم ينتقل منه قيد خطوة إلى مكان غيره ، فيقع في حده أنه فعل ذلك بالروح الذي يسكن جسده ويتركه أو يعود إليه حين يريد .

وكان يرى الموتى في منامه فيحسبهم أحياء يتحركون مثله كما تحرك بروحه وهو نائم بجسده ، وراقب الموتى فرأى أنهم يفقدون النفس حين يموتون ، فوقع في حده من ذلك أن النفس هي الروح المفارق للأجساد في حالة الموت ، فهي شيء في لطف الهواء الخفي يحتجب عن الانظار فلا تراه .

ولاشك على الاطلاق في ارتباط الروح بالهواء في بديهة المؤمنين

الأولين بالأرواح ، فإن الكلمات التي تطلق عليها في العربية تدل كلها على ذلك ، وهى الروح والنفس والنسمة ، وكلمة بسيدشى Psyche اليونانية معناها النفس كمعنى سبريت Spirit في اللغات الاوربية الحديثة . . وفى ذلك دلالة لاشك فيها على أصلها الاول من بداهة الانسان (١) .

وهكذا يظل هذا الاتجاه يتلس الادلة والبراهين على تطور الدين والعقائد تبعا لتطور الفكر الانسانى والحضارة الانسانية ، يرقى برقى الانسان وينحط بانحطاطه .

ويذهبون فى تعليل هذا الاتجاه بالمقارنات بين الافهام والمدارك فى مجتمع متحضر . وفى مجتمع غير متحضر . ولم يكن للوحى فى نظرهم وجود أو حتى افتراض وجود ومن هنا كان استنتاجهم من مشاهداتهم للهمجى والبدائى ينسحب على الانسان الأول بدون تردد .

فلما كان الهمجى والبدائى لا يفهم معنى للظل والصورة مثلا كما نفهم نحن الآن بل يحسبها نسخا حية منه يصاب من جهتها بالسحر والطلاسم ، ويصونها من كيد أعدائه كما يصون أعضاء جثمانه ، ويحار فى هذا الازدواج فيلحقه بازدواج الاشباح والاجساد على نحو من الانحاء .

ولم يكن جهله بالأشياء أقل من جهله بالظلال والاشباح ، فإن الإنسان الأول ومن تلاه من أناسى يصبح فى نظر هذا الاتجاه كالطفل ، فلا يستغرب منه أن يعطاف على ماحوله من الأشياء أو يقابلها بالرهبة والحذر والأحجام . حتى اهتدى إلى فكرة الروح ، من الناحية التى تلائمه : وتنبأ لعقله النفوذ إلى ما وراء المادة ، ودخل فى روعه إمكانية الوجود لما لم يلبس باليد وينظر بالعين ، فتبدلت قيم الحياة ، فاستطاع أن يفرق بين الروح والجسد ، وبين

العقل والمادة وبين الحركة والجود ، وبين الخير والشر ، وبين النور والظلام ، وبين المعاني المجردة والاجسام المحسوسة ، واختلط الاعتقاد بالروح بجميع العقائد الدينية بعد أطوار العقيدة البدائية وفي أثنائها ، فعبادة الاسلاف لا تخطر على بال مالم تخطر معها فكرة بقاء الارواح ، وإنما تترقى الأنماط على حسب الترقى في المعارف والمعتقدات .

( فالهيمجي الذي جعل أسرار التنازل قد يتخذ له جداً معبوداً يتمثله في شبح الأسد أو السكلب أو الصقر أو العقاب ، ولا ينكر أن يكون أبوه من سلالة الحيوان جسداً وروحاً بنير مجاز ) كما هو واضح في الطوطمية ومما تناو لها بتفصيل فيما بعد ) لأنه لا يفقه المانع الذي يمنع الروح أن تسكن جسم حيوان كما تسكن جسم إنسان ، والحضري الذي تهذب واستطلع أسرار الخليقة بعض الاستطلاع يجعل أباه روحاً تتجلى في الشمس ، ويفرق بين أبوة الأجساد وأبوة الأرواح ، وعلى هذا المثال ولا ريب زعم الكهنة أن هذا الفرعون أو ذاك من الفراعين ابن الشمس أو ابن أوزوريس ، ولم يفهموا ولا فهم احد من ذلك انهم ينكرون ابوته الجسدية المسجلة بالميراث ، وبحقها يجلس على عرش ابيه .

ولا يرى علماء المقابلة ( بين الأديان ) ان عبادة الشمس كانت معدومة اطوار الديانات القديمة ، ولكنهم يقررون ان ديانة الشمس لم تنتشر في تلك الأطوار لأنها تستلزم درجة من الثقافة العلمية والأدبية ، لا تيسر للهمج وأشباه الهمج في اقدم عصور التاريخ ، فلا بد قبل ذلك من نظرة فلسفية عالمية تحيط ببعض الشيء بنظام الأفلاك ، وعلاقة الشمس بالفصول وهو اعيد السنين

وتستدعي ديانة الشمس غير هذا أن يرتفع العقل البشري بفكرة للخلق ، من أفق الأرض القريب إلى الآفاق العليا في السموات ، فتتمتع دنياه  
م ٦ - الإنسان

وتعاطف فيها دواعي الحركة والسكون والحياة والموت ، ويقترب من الأوج الذى يستوعب فيه الكون بنظرة شاملة ، ويلتمس له سببا واحدا (١) يفيد علة خلقه ووجوده

وهكذا تنحرك نظرة الاتجاه إلى القول بتطور الأديان حتى تصل إلى التوحيد من طريق واحد : هو الفكر الإنسانى الذى يعبر عن عبادة الشمس إلى عبادة الخالق موجد السموات والأرض . . . . .

بل ذهب القائلون بتطور الأديان والعقائد تبعا للعلوم والمعارف إلى حد للتجرؤ على الأديان السماوية ، واتهام الرسل بالذكاء إذ أخذوا يطورون الدين الذى يجيشون به تبعا لظروف وأحوال الدعوة .

« فاجتناس جولد تسهر » يدعى أن الإسلام مر بمراحل عديدة من التطور العقائدى والتشريعى ، بفعل الرسول والصحابة من بعده وذلك فى مؤلفه المعروف العقيدة والشريعة - فى الإسلام -

ويذهب هذا المذهب كثير من علماء الإسلام والمسيحية واليهودية ، محاولين إخضاع الدين لهذا الاتجاه باعادات تتنافى تماما مع ما جاء بالكتب الدينية لهذه الأديان

يقول عبد الكريم الخطيب فى كتابه « قضية الأولوية بين الفلسفة والدين » : ويكاد الناس يتفقون جميعا فى تصوراتهم الأولى للآلة . . ولا عجب فى هذا ، إذ كان الإنسان هو الإنسان البدائى فى كل مكان ، حيث كانت ظروف الحياة هى فى كل مكان ، لم يدخل عليها ما يغير من أوضاعها ، فالتناس جميعاً فى طور الطفولة ، ولهذا نجد التشابه الكبير فى

نشأة الديانات، وفي صور الآلهة وألوان العبادات عند الأمم القديمة كلها ،  
في مصر ، واليونان ، وبابل ، وآشور ، والهند ، وفارس ، والصين ، ولنا  
أن نتخذ من هذا التشابه شاهد صدق على رواية التاريخ عن هذه الأمم ، لأن  
هذا التشابه أمر لازم تحتمه وحدة الشعور بين الناس في حياتهم الأولى ،  
ووحدة الحياة التي كانوا يحيونها .. ويقول : ويبدأ الناس مرحلة جديدة مع  
آلهم حين يعيدون النظر إليها ، فيجدون كثيرا منها لا شيء فيه يستحق  
أن يتخاضع له الإنسان ، ويقيد نفسه أمام محرابه ...

ويظهر في الناس راشدون يسفهن هذه الآلهة ، ويسفهن عابديها ،  
وينكرون على تلك المعبودات مكانها الذي وضعها الناس فيه ... وتدور  
رموس الناس بالآفكار ، وتضطرب الآراء ، ويكثر بينهم الجدل ويقع  
الصراع العقلي والمادى حول مالهذه الآلهة وما عليها .

وأبرز ما يظهر خلال هذا الصراع وفي المراحل الأولى منه اختصار  
هذه الآلهة ، وعزل الكثير منها .. فتصبح أعدادا قليلة ، تقسم الوجود  
فيها بينها ، كما تقسم مشاعر الإنسان في الولاء لها ) .

ويقرر أوجست كوزت : أن العقل الإنساني مر بمراحل ثلاث : حالة  
لاهوتية ، وحالة ميتافيزيقية ، وحالة واقعية .

وأن هذه الحالات تختلف في الموضوع وفي المنهج ، وفي التفسير ،  
وأن لكل حالة نتائج نظرية ونتائج عملية ، فأما الحالة اللاهوتية والحالة  
الميتافيزيقية فموضوعهما واحد وهو حقيقة الأشياء أو صميمها وكذلك  
أصلها ومصيرها هذا عن الموضوع وقد تطور كلاهما في مراحل ثلاث  
فمرت حالة اللاهوتية بـ :

١ - الميتافيزيقية : إضافة حياة روحية للكائنات الطبيعية على غرار الإنسانية

٢ - تعدد الآلهة : يسلب فيها الإنسان الحياة التي أسبغها من قبل على

الأشياء ويضيف أفعالها إلى موجودات علوية غير مرئية وكانت هذه الموجودات في نظره تؤلف عالماً علوياً .

٣ — التوحيد : حيث جمع الإنسان الالهة المتعددة في إله واحد مفارق وفي هذه المرحلة تنسج الهوة بين الأشياء وبين العلل التي تفسر بها تلك الأشياء ومرت الميتافيزيقا بمراحل ثلاث أيضاً تقابل المراحل التي مرت بها حالة الألوهية :

١ — فتقابل الفيتشية إعتقاد الميتافيزيقا أن هناك عللاً ذاتية في باطن الأشياء كما أن الفيتشية تعتقد بحياة في الكائنات الطبيعية .

٢ — وفي حالة تعدد الإله يقابله في الميتافيزيقا تقسيم الظواهر إلى طوائف وتخصيص كل طائفة بقوة فهناك القوة الكيميائية والقوة الحيوية

٣ — وحالة التوحيد في الألوهية يقابلها في الميتافيزيقا .

القول بقوة واحدة وإرجاع كل القوى إليها وهي قوة الطبيعة ، وتبلغ أوجها في القول بوحدة الوجود ، فالميتافيزيقا والألوهية يبحثان في المطلق مثل حقيقة الأشياء وأصلها ومصيرها — هذا من ناحية الموضوع وأما من ناحية المنهج فالميتافيزيقا فالألوهية يختلفان ، فالألوهية منهجها الخيال ، والميتافيزيقا منهجها الاستدلال

وأما من ناحية التفسير فالألوهية قد بلغت أوجها في الكثرة التي تؤلف تأليفاً عجيباً التفسيرات الفائقة للطبيعة ، في فكرة إله واحد مدبر للكل بإرادته المتقلبة وهذا التفسير يضاف من سلطان القوى المفارقة ، وإذا ما إنتقلنا من الوجهة النظرية إلى الوجهة العملية : نجد أن الألوهية تختلف عن الميتافيزيقا ، فالألوهية من الناحية العملية تتخذ من المعاني اللاهوتية أساساً متيناً مشتركاً للحياة الخلقية والاجتماعية وكانت هذه المرحلة الأولى مرحلة السلطة : سلطة الكهنة وسلطة الملوك .

وأما الناحية العملية في الميتافيزيقا فتترتب على التفسير أيضاً فإذا كانت الميتافيزيقا تضع معاني أو قوى متعددة مكان الارادات المتتالية فإنه يضعف من سلطان القوى المفارقة وعلى هذا الأساس يبدو الانحلال في انتشار الشك والانانية فيفصم الفرد الرباط الذي يربطه بالمجتمع . وينتقف العقل على حساب العاطفة . ويتصور الاجتماع ناشئاً عن تعاقد الافراد وتقام الدولة على مبدأ سلطة الشعب ويحكمها القانونيون والحالة الميتافيزيقية وإن كانت متفقة مع الالوهية في الموضوع إنفاقاً كبيراً فكلهما يبحث في أصول الاشياء وحقائقها ومصيرها إلا أنهما عند التفسير يختلفان وكذلك النتائج العملية التي تترتب على التفسير ، فالحالة الميتافيزيقية يحل المجرد فيها مكان الشخص في حالة الالوهية فهما وإن اتفقتا بهذا الشكل إلا أنهما يختلفان اختلافاً كبيراً كما قلنا حتى أن الميتافيزيقا عندما أحلت المجرد مكان الشخص زلزلت كيان اللاهوت فالميتافيزيقا مرحلة متوسطة بين اللاهوت والواقعية .

وخلاصة القول أن الميتافيزيقا واللاهوت يتفقان في أن كليهما يتخذ من المطلق موضوعاً وأن إختلفاً في المنهج والتفسير . وكلهما أيضاً يعتبر الملاحظة ثانوية .

والآن ننتقل إلى الحالة الثالثة وهي الواقعية لنرى الفرق بينهما وبين الميتافيزيقا والالوهية في الموضوع والمنهج والتفسير والنتائج العملية فأما من ناحية الموضوع فالعقل يقصر بحثه على الظواهر واستكشاف قوانينها وترتيب هذه القوانين من الخاص إلى العام ، لأن العقل حينئذ يتبين له أنه لا يمكن الحصول على معارف فوق الظواهر ويقصر همه على الظواهر وقوانينها وترتيب تلك القوانين في الوقت الذي يعتبر فيه المطلق هو موضوع الميتافيزيقا والالوهية ، وأما من ناحية المنهج فبينما نجد أن منهج الالوهية خيالي ومنهج الميتافيزيقا استدلالى .



والملاحظة ثانوية في كليهما نجد أن الواقعية تعتبر الملاحظة هي المنهج الذى يؤدى إلى معارف حقيقية .

وأما من ناحية التفسير : فبينما نعتقد الألوهية والميتافيزيقا أن هناك عللا للكون على اختلاف فى تحديد هذه العلل تستعير الواقعية عن تلاءم العلل بالقوانين التى هى العلاقات بين الظواهر . وهكذا اختلفت الحالة الواقعية عن الحالتين الأخرين فى الموضوع وفى المنهج وفى التفسير وهذه الطريقة « وأعنى بها طريقة الواقعيين » هى التى نجحت فى تكوين العلم ويجب على هذا الأساس أن يحل العلم الذى نشأ على هذه الطريقة محل الفلسفة فكما أمكن حل المشكلة عن طريق الملاحظة يجب أن تنتقل من مجال الفلسفة إلى مجال العلم .

والذى لا يمكن حله بتلك الطريقة ، يجب أن يكون بعيدا عن هذا المجال ، والحلول التى ينتجها العلم يجب أن تعتبر نهائية والمشاكل التى لا يستطيع العلم حلها يجب أن نعتقد أنها ليس لها حل وتاريخها ينطق بذلك . فمذ وضعت لم تخط خطوة واحدة فى طريق الحل ونجاح العلم الواقعى بهذه الطريقة يحمل على الاعتقاد بأنه ممكن . وهو على هذا : المجال الحقيقى للعقل (١) إلى آخر هذه الأفكار التى تؤيد اتجاه التطور بكل ما يعنيه من نتائج .

---

(١) رسالة ماجستير د . محمود عثمان عن يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٣١٧ وما بعدها .

## نقد نظرية التطور

تمهيد :

قبل مناقشة هذا الاتجاه يجب أن نعلم الآتي :

١ - أن هناك فرقاً كبيراً بين الدين الحقيقي وبين العقائد التي صنعها الإنسان أو تدخل في صنعها وسميت « ديناً » تجاوزاً أو بالنظر لمعتقداتها .

وقد سبق مناقشة مصدر الدين الحقيقي وبيان ما بينه وما بين العقائد الإنسانية المصطنعة من فروق تتلخص في :

وضوح ذاتية الإنسان وأنايته ، ضعفه وجهله نزعاته الغريزية وعدوانيته ، شموليته وعنصريته ، إلى غير ذلك مما يظهر في العقائد التي يصنعها أو يتدخل في صنعها ، أما الدين الصحيح الصادر عن طريق الوحي الصحيح فتظهر فيه :

حكمة الخالق وعلمه وإحاطته ، وقدرته ، وخبرته بشئون النفس الإنسانية ونظم الاجتماع وشمول النظرة ، إلى غير ذلك مما يدل على الدين الحقيقي .

٢ - أن هناك فرقاً واضحاً بين العقيدة والشريعة يكشف عن إمكانيات التطور في كل منهما .

أما الفرق بين العقيدة والشريعة فهو : أن العقيدة إيمان بأشياء يراها المعتقد حقائق فيسلم بها وإن لم يملك الدليل على حقيقتها .

أما الشريعة فنظام - - تخضع له حياة الفرد والجماعة - بنظم العلاقة بين الإنسان الفرد وبين غيره من الأفراد والكائنات الأخرى ، وبين الجماعة وغيرها من الأفراد والجماعات والكائنات الأخرى .

ولأن العقيدة إيمان فشأنها الثبات والاستقرار لا ينوبها التغير والتبدل ولا يصيبها الخلل والتحريف إلا إذا ظهر المعتقد نقصاً أو بطلانها ؛ ولا يظهر المعتقد نقصاً أو بطلانها إلا إذا كان مصدرها البشر أنفسهم ، أو إذا تدخلت فيها أهوائهم وحتى إذا كان مصدرها البشر فإن التغير والتبدل والخلل والتحريف في العقيدة يكون بطيئاً جداً ، لأن التطور في هذه الشؤون يحتاج إلى العقل الجمعي أو الاستعداد النفسى والعقل العام .

فكأن العقيدة التى تصدر عن دين صحيح مصدره الوحي الإلهى ، لا يصيبها التطور من قريب أو من بعيد ، كما أصل إيمانى ، يتفرع عليها شرع على يرتبط بهذه الأصول التى تستقر وتثبت وتتوطد فى نفس المؤمن ولا تهتز أو تنزعزع ، يتناقلها الأجيال ، ويتوارثها الأقباب ، وتعرض على العقول والعلوم الصحيحة ، فلا تجد معها إلا الإقتناع والتسليم ، إلا إذا تدخلت الأهواء وعشت بها يد البشر .

وينتهى بنا المقال إلى أن العقيدة الصحيحة الواصلة إلينا عن طريق الوحي والرسالة لا تخضع للتطور ، فإذا أخضعت له كمان ذلك تدخل من البشر ، وحمل للعقيدة على الأهواء ، والأغراض التى تسرع بالعقيدة إلى الخلل ، وهو الخلل الذى تفضحه العقول السليمة والعلوم الصحيحة وتحاول أن تنفذ من خلاله دعاوى الماديين والملاحدة للتدليل على بطلان الصلة بين الخالق والإنسان عن طريق الوحي والرسالات .

أما الشريعة فلا يوجد اثنان يختلفان على تطورها تبعاً لتطور الحياة الإنسانية ، ومن هنا كان تتبع الإنسانية بالشرائع يكمل بعضها بعضاً ، ويجبر حديثها ، ما ينقص قديمها . حتى تجد الحياة منها مبتغاه ، ويكتمل نضج الإنسانية فتبلغ مراتب القدرة على إدارة حياتها وتوجيهها من خلال الشريعة الملائمة .

وكانت شريعة الإسلام آخر مراحل تنبع الإنسانية بالشرائع السماوية ،  
وبها أكتمل النضج الإنساني وتوفر للإنسانية من التجارب والخبرات  
الاجتماعية ما يمكنها من إدارة حياتها على أساس من نتائجها ، وقد رصد  
القرآن هذه الخبرات والتجارب ودون نتائجها لتكون في خدمة الإنسانية  
كلها . وصاغ من عائدها القواعد والأصول العامة للفكر والسلوك  
الراشدين فمن استفاد من النتائج واعتمد القواعد لفكره وسلوكه ترقى وتقدم  
وسعد ، فردا كان أو مجتمعا

ومن لم يستفد من نتائج تحارب الأجيال فلم يعتمد قواعد القرآن  
لفكره وسلوكه لقي من الشقاء والتعاسة والتخلف والرجعية ما تسجله  
وقائع التاريخ وصفحات الزمان ، وهذا منطق العلم لمن يعلم ، وعائد العقل  
لمن يعقل .

وكيف لا ؟ والتجربة أصدق دليل على الحدث ؟ كما يقول العلم ، وكما  
يسلم العقل .

لقد قدم القرآن - وهو كتاب محسوس ملموس - القواعد والأصول  
التي تسمح بالترقى فكرا وساوكا ، والتي يمكن من خلالها التواءم مع  
كل حال وزمان . فدل بذلك على ضرورة تطور الشرائع مع ما يجد على  
الحياة من علوم ومعارف ، لكنه أحاط هذا التطور بسياج من الضمانات  
والاحتياطات ممثلة في القواعد والأصول العامة حتى لا تنحرف بالشريعة  
أهواء وأغراض وذاتيات الأنفس البشرية . فهل في هذا ريب ؟ .

لكن لماذا تتطور الشريعة ولا تتطور العقيدة ؟

العقيدة كجزء من الدين مكانه القلب ، وكصلة روحية بين القوة العليا  
المخالقة لهذا الكون المدبرة له على هذا النحو الرائع وبين الإنسان المخلوق

العاقل وصلت ما بين الإنسان في طفولة إنسانيته ، وما بين الخالق في ملكوته ، وما أيسر أن يدرك الطفل ( لو سلمنا أن الإنسان الأول كان في مستوى الأطفال ) أن هذا الرجل أبوه أو عمه أو خاله ، وأن الرجل الآخر ليس له هذه الصفات فيظمن إليه ويلقاه حين يلقاه بقلب سعيد ، وروح مرحة .

فإذا كان الإنسان في طفولته الإنسانية قد عرف الخالق الذي علمه عن نفسه وطبيعتها ؛ وعن الكون حوله الشيء الكثير ؛ فقد عرف أن الله واحد لا شريك له ، وأنه سيحاسب الإنسان على ما قدمت يداه في اليوم الآخر ، وأن له ملائكة يسبحون بحمده ويقدمونه وأن له من البشر رسلا إلى خلقه ، وكان آدم أحدهم إلى بنيهِ وذريته ، (إن الله اصطفى آدم ونوحا ... (١) .

فالإيمان بالله الواحد الأحد الذي ليس كمثل شيء وهو السميع البصير ، والإيمان بملائكة الله يمثلون قدرته وعظمته وحكمته في إدارة الكون وتقنين حركته يسبحون بحمده ؛ ويمثلون لأمره ، والإيمان برسل الله إلى خلقه من خلقه يتلقون وحيه أو يكلمونه من وراء حجاب ، والإيمان باليوم الآخر والبعث والثواب والعقاب الإيمان بهذه الأمور على هذه الصفة ، أصبح عقيدة كاملة الأركان واضحة المعالم منذ وجد أول إنسان على وجه الأرض : بلغت إلى الإنسان كحقائق موجودة لم يصبها ، تغيير أو تطوير من قبل الخالق ، وإن أصابها شيء من ذلك فمن قبل المخلوق . عرف الإنسان الأول هذه العقيدة بأيسر طريق ، وعرفها لأولاده ؛ دون تحريف .

وذلك لأن حدوث التطوير في مثل هذه العقيدة يعنى وجود نقص فيها

---

(١) آل عمران ٣٣ .

في وقت، من الأوقات أو في حال من الأحوال ، وثبتت نقص فيها يثبت بعدها عن الحقيقة ، لان الحقيقة إذا وجدت وبلغت لا يقع عليها التغير وجودا وعدما أو نغيا وإثباتا ، أو نقصا وزيادة إلا من جانب الجاهل بها أو بوجودها أو بكالها . فالحقيقة لا تتبدل ولا تتغير لانها الحق والحق له وجه واحد

ويستحيل أن يكون الخالق قد جهل شيئاً من هذه الاشياء ثم علمها فيما بعد ويستحيل أيضا أن يكون قد أوجدها ناقصة ثم أكملها أو أوجدها ثم نفاها ثم أوجدها ، فهذه الاحداث لا تصدر إلا من البشر وفي حالة اختلاف رؤيتهم للشيء وإخضاع الشيء لعلمهم ومعارفهم التي تزيد وتنقص تبعا للتطور ومن هنا كان دين الله واحدا من حيث الاعتقاد فقال آدم وقالت حواء مخاطبان الاله الواحد الاحد : دربتنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ، (١) إيماننا منهما بربوبيته ، وبحسابه ثوابه وعقابه .

وقال تعالى : وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والارض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ، (٢) .

وفي نبا ابني آدم هذه الحقيقة « وائل عليهم نبا ابني آدم بالحق إذ قربا

---

(١) الاعراف ٢٣ .

(٢) البقرة ٣١ - ٢٣ .

قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ، قال لاقتلك قال إنما يتقبل الله من المتقين ، أنت بسطت يديك لتقتلني ما أنا بياسطيدي إليك لاقتلك إلى أخاف الله رب العالمين ، إلى أريد أن تبوء بأثمي وإثمك ، فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين ، (١) .

وهكذا بقي الاعتقاد الصحيح وسيدقى يتناقله الأجيال منذ آدم إلى قيام الساعة ، لم تنله يد التطوير والتغيير إلا من جانب البشر الذين انحرف بهم فكرهم أو هواهم أو عجزهم أو قصور عقولهم عن فهم الحقيقة فراحوا يتراجعون بهذا الإيمان شيئاً فشيئاً في محاولات لتقريب الحقيقة التي عجزوا عن إدراكها حتى أدى بهم هذا التراجع وتلك المحاولات إلى عبادة مظاهر الطبيعة ، فكان الإنسان إذن هو الذي انحرف بالاعتقاد لا الذي ارتقى به وطوره .

وصدق الله العظيم ( شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ، الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب ) (٢) .

( إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ) (٣) .

( إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ) (٤) .

---

(١) المائدة ٢٧ - ٢٩ .

(٢) الشورى ١٣

(٣) البقرة ٦٢

(٤) المائدة ٦٩

والمتتبع لسيرة الأنبياء والمرسلين جميعا يجد هذه الحقيقة ماثلة في كل ما يدعون الناس إليه من إيمان بالله الخالق وإيمان بالرسول ، وإيمان باليوم الآخر وإيمان بالملائكة هذا الإيمان الذي يتفرع عنه الامتثال للشرائع .

أما الشريعة فلأنها حركة تنابع لنمو الإنسانية والتطور أيضا حركة من نفس النوع تتطوع تبعا للحال والزمان ، فالشريعة إذن تتطور تبعا للظروف والأحوال ، ولهذا كان التطور الديني في هذا الجانب ضرورة لموافقة الظروف والأحوال .

نوعية التطور والفرق بين التطور الذي جاء به الوحي والتطور الذي

يصنعه البشر :

التطور الذي مرت به الأديان السماوية الحقيقية يفتقر كثيرا جدا عن التطور الذي مرت به المعتقدات التي صنعها الإنسان بنفسه أو تدخل في صنعها .

وللتطور الذي مرت به الأديان الحقيقية نوعان :

نوع كان من لدن الإله الخالق صاحب الدين الموحى به .

ونوع كان من جانب البشر الذين ارتأوا هذا التغيير وذلك التطوير .

أما تطوير الشريعة من لدن الخالق فقد تم بحكمة العالم المحيط بالخير بأسرار النفس الإنسانية ونظام الاجتماع ، ودراسة هذا التطوير وتتبينه من خلال منهج علمي يدل على أن صانع هذا التطوير إله قادر عليم محيط بخير .

فإذا كانت الإنسانية قد بدأت بآدم وحواء فإن محارم الزوجية لا تحرم إلا الأم ولا تمنع زواج الأخ بأخته عند ذاك ، حتى إذا ساعد التكاثر على تحريم هذا الزواج فإنه لم يساعد ابتداء على تحريم زواج العمات والخالات.



فإذا ساعد التسكاثر مرة أخرى على تحريم زواج العمات والخالات ، فإنه لا يساعد فجأة على تحريم زواج بنات الأخ وبنات الأخت . . . وهكذا ندرج التشريع الإلهي بلوغاً بالإنسانية مراحل التقدم والنضج الفكري تبعاً للحاجة الإنسانية وظروفها وقدراتها المادية والعقلية ، حتى وصل بالإنسان إلى أرقى مراحل النضج من خلال أعظم أسلوب للتربية والتعليم والتوجيه .

فكان الدين الخاتم ، نتاج تجارب الأجيال ، والخطوة النهائية لبناء الإنسان الكامل فلأن الإنسان الكامل هو الحقيقة ذات الوجه الواحد في كل عصر . ومصر كانت قواعد بناء قواعد أساسية يتضمنها دين السكالم بعد اكتمال عقل الإنسان وخبراته .

### أسلوب التشريع الإلهي :

يتضح من تتبع التشريع الإلهي أنه قام على أسلوب علمي لا ينكر هو أسلوب التربية والتعليم والتوجيه بالنظرية وبالتجربة .

أما النظرية فكانت برسالة الرسل والأنبياء وعظمتهم وتبليغهم وحي الإله الخالق ، بالحكمة والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالتي هي أحسن .

وأما التجربة فكانت باحتكاك الرسالة بالعقول والبيئات والظروف الخاصة ، وتفاعل هذا الاحتكاك بالعقول والبيئات والظروف وما ينتج من العائد الاجتماعي والثقافي والنفسي والتاريخي المادي والمعنوي فتتقل هذه للتجربة ونتائجها إلى جيل آخر ومعها رسالة أخرى تحتك بمجتمع جديد يفترض أنه استفاد من تجربة السابقين ، وتجرى عملية التربية والتعليم والتوجيه بهذا الأسلوب العلمي جيلاً بعد جيل ، حتى يجيء الجيل الذي تتحصل له كل التجارب ويمكنه أن يستفيد منها فيما يمكن أن يجد له من أحداث ويمكنه أيضاً أن ينقل هذه التجارب ونتائجها إلى الجيل

الذى بعده دون حاجة إلى رسالة جديدة فكانت الرسالة الخاتمة .  
ولهذا نلاحظ الأمور العلمية التالية :

١ - الرسائل التي سبقت الرسالة الخاتمة كانت خاصة ، لأن التفاعل الناتج عن الاحتكاك قد يؤدي إلى عملية تدهين وإبادة أو شيهما ، فاكثى العالم الأكبر - رحمة منه بخلقه - بعينات من الشعوب أو الأمم ، تكنى التجربة معها بالحصول على القانون العلمى المطلوب لتعليم وتربية من يلى هذه العينة أو تلك . أو يعاصرها ، كإكتفاء العقلاء بالنظر إلى من صعدته التيار الكهر بأتى للتعليم والعلم بخطر التيار والبعد عن ممارسة نفس العمل الذى أدى إلى هلاك من وقع تحت التجربة

٢ - كان كل رسول يكلف بالتبليغ يذكر قومه بالتجارب السابقة مع النظرية ( الرسالة ) التى جاء بها حتى حمل محمد صلى الله عليه وسلم تجارب الأنبياء والرسال أجمعين<sup>(١)</sup>

٣ - جرت مع الرسالة الخاتمة تجارب رصدها القرآن عبرة للأجيال كلها بالإضافة إلى تجارب السابقين .

٤ - اعتمدت الرسائل السابقة لرسالة الاسلام على المعجزات المادية الحسية لأنها الطريق الوحيد لإثبات أنها وحي إلهى ، حيث لم يبلغ العقل

---

(١) راجع سورة الأعراف من أول قوله تعالى : و إلى عاد أعاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ، قال الملائكة الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين إلى آخر السورة وسورة إبراهيم من أول قوله تعالى : ألم ياتكم نبو الذين من قبلكم قوم نوح . الآيات .

الانسانى الاجتماعى مرتبة الكمال ، وشأن العقل الذى لم يبلغ هذه المرتبة ، ألا يقتنع بغير ما يعجزه ، ولهذا كانت المعجزات من جنس ما يبرع الانسان فيه مبالغة فى تحقيق الاعجاز .

٥ - لم تعتمد رسالة الاسلام على الاعجاز المادى لعمومها وخلودها ، والعمرم والخلود يقتضيان تبليغها إلى البلاد والأجيال على يد أناس عاديين لا يملكون تقديم معجزات ، ولهذا كان القرآن دليل المبلغين النظرى ، وهو كاف علمياً وعقلياً مع التجربة الاسلامية المدونة فى القرآن والسنة وفى التاريخ هى وعائدها الثقافى والاجتماعى والنفسى والحضارى المادى والمعنوى والقرآن معجز عقلى يتحدى الانس والجن أن يأتوا بشئ من مثله .

٦ - القوانين العلمية المترتبة على التجارب الاجتماعية للتاريخ الإنسانى تدل على أن صاحبها محيط بتاريخ الإنسان منذ وجوده عليم بأسرار النفس ونظم الاجتماع ، قادر على تحديد مستقبل الإنسانية من خلال عمل كل شعب وكل أمة وكل دولة ( وسنفصل كثيراً من هذه الأمور عند حديثنا عن كل دين ) . إن شاء الله .

• • •

يتضح من ذلك أن بإمكان الإنسان أن ينتهى إلى معرفة التشريع الإلهى من التشريعات التى صنعها ويصنعها الإنسان وأن بإمكانه أيضاً معرفة مواطن التطور وعلة هذا النوع من التطوير . خاصة إذا عرضنا لأسلوب التشريع الإنسانى .

### أسلوب التشريع الإنسانى :

إذا تدخل الإنسان فى تعديل قواعد التشريع الإلهى تحت أى دعوى أو شعار أبان الإنسان عن هواه وظلمه لنفسه ولغيره ( وما اختلف الذين

أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ) (١) .

( رلوكان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ) (٢) .

لاختلاف الأهواء والأغراض ، وتعارض الحاجات الذاتية الفردية مع الحاجات الاجتماعية .

ومن حسن حظ الإنسانية أن المنهج العلمى فى هذا العصر أصبح قادراً على كشف وفصح ما يحرفه الإنسان ويدخله على الشرائع الإلهية أما الشرائع الإنسانية التى يصنعها البشر من عندهم ويديرون بها حياتهم سرعان ما يدب فيها الفشل والفوضى . أو ينوبها الخلل ، أو ينعكس أثرها على الإنسان قلقاً وشقاءً وتعاسة .

فالنظام الذى يعيشه الإنسان وهو يعلم أن صانعه إنسان مثله ، لا يكسب الاحترام والتقدير والامتثال مثلاً يكسب النظام الإلهى .

وهذا مثل حى عاشته الأمة الأمريكية يصور قدرة السلطة الإلهية وضعف السلطة الدنيوية .

( أكبر تجربة جربها الإنسان لاصلاح الأخلاق والسلوك الاجتماعى بقوة القانون وسلطة الحكم - وتشريعات الإنسان - لا يوجد لها نظير فى التاريخ وهى تجربة تحريم أمريكا للخمر .

قبل التحريم أقيمت فى البلاد دعاية واسعة النطاق ضد الخمر ، وبقيت الرابطة المحاربة لوجود الخانات ، تسمى وتجتهد فى ترغيب الأمريكين عن الخمر ، وتبذير مضاها فى قلوبهم ، بإلقاء الخطب ، وتأليف الرسائل

---

(١) آل عمران ١٩ (٢) النساء ٨٢ .

والكتب وعرض المسرحيات ، وأفلام السينما ، وأفنت في سبيل هذا التبليغ عشرات السنين ، وبذلت الأموال حتى أن نشرات النشر والإذاعة بلغت تكاليفها من لدن بدء الحركة إلى سنة ١٩٢٥ مبلغ خمسة وستين مليون دولار ، وأنه بلغ عدد الصفحات التي تسود بياضها لبيان مساوىء الخمر ، والزجر عنها تسعة آلاف مليون صفحة ، ذلك قبل التجربة . وأما ما تحملته الأمة الأمريكية في الأربعة عشر عاما الماضية من النفقات الباهظة لأجل تنفيذ قانون التحريم فقد قدر مجموعها بأربعة ملايين ونصف مليون جنيه .

وتدل الإحصاءات التي أذاعها ديوان القضاء الأميركي للفترة بين يناير ١٩٢٠ وأكتوبر ١٩٣٣ أنه قتل في سبيل تنفيذ هذا القانون مائتا نسمة وسجن نصف مليون ، وغرم الجناة ما يزيد على مليون ونصف مليون جنيه ، وصودر من الأملاك ما يساوى أربعمائة مليون جنيه .

كل هذا لغرض واحد هو تلقين الأمة الأمريكية المتحضرة مفاسد الخمر الجمة وتنبئها إلى مضارها الروحية والصحية والأخلاقية والاقتصادية ، ولكن دون جدوى :

... وحاصل القول أن النتائج التي ظهرت في أميركا عقب تحريم الخمر تتلخص في أنه :

— زالت عن القلوب حرمة القانون ، ونشأت نزعة للبغى والتمرد عليه في كل طبقة من طبقات المجتمع .

— لم تتحقق الغاية المقصودة من تحريم الخمر ، بل زاد استعمالها بعد التحريم عن ما كان عليه قبله .

— تجشمت الحكومة خسائر لا تحصى ، في تنفيذ قانون التحريم ، ومثلها أصاب الشعب الأميركي لاشرائه الخمر خفية ، فتأثرت بذلك اقتصاديات البلاد .

— كثرّت الأمراض ، واختلت الصحة وازدادت نسبة الوفيات ،  
فسدت الأخلاق ، وشاعت الرذائل . وتفاحشت الجرائم في جميع طبقات  
المجتمع وعلى الأخص في النساء .

ظهرت هذه النتائج كلها في دولة تعد من أرق دول الأرض حضارة ،  
في زمان آلت أزمنة التاريخ بضياء العلم .

\* \* \*

ثم يقارن المودودي بين حالة أمريكا هذه ، وبين حالة العرب في أعظم  
عصور التاريخ ، وكيف استطاع الإيمان أن يحقق ما لم تقدر عليه المدنية  
والقانون إلى أن يقول : « وإن تدبرت أسباب هذا الفرق العظيم بين  
التجربتين تبينت أموراً هي كالأصول السكّية الثابتة لافي الحز وحنها ، بل  
في جميع مسائل القانون والأخلاق .

أولها : أنه فرق أساسي عظيم بين الإسلام والقوانين الوضعية في تنظيم  
السلوك الإنساني ، فالقوانين الوضعية تعتمد تماماً على الرأي الإنساني وهي  
مضطرة بطبيعة الحال إلى مراجعة رأي الخاصة والعامة في كليتها ، وأصولها  
بل في كل فرع منها ، وشأن الرأي الإنساني - سواء كان للخاصة أو العامة .  
إنه لا يزال يتأثر في كل آن بالعواطف والنزعات الإنسانية ، والأسباب  
والعوامل الخارجية ، وأحكام العلم والعقل القابلة للتغير - مما يلزم أن يكون  
صواباً في كل حال - وهذا التأثير يؤدي إلى التغير في الأفكار والآراء ،  
وبهذا التغير تبدل بالضرورة مقاييس الخير والشر والصحيح والخطأ والجائز  
والمحظور والحرام والحلال واضطراب هذه المقاييس يكره القانون على أن  
يميل معها حيث مالت ، وبذلك لا يتحقق للأخلاق والمدنية مقياس ثابت  
مستحكم غير قابل للتغير ، بل يتحكم تلون الطبع الإنساني في القانون وتلون  
القانون في الحياة الإنسانية ، . . .

وبخلاف ذلك إن جميع الأصول السكّية ومعظم الفروع الجزئية للقانون والأخلاق في الإسلام هي من وضع الله والرسول ، وليس للرأى الإنسانى إلى التدخل فيها من سبيل ، وإن كان له بعض الدخّل فى الجزئيات فهو لا يعدو أن يستنبط الإنسان فروعا جديدة من تلك الأصول السكّية والشواهد الجزئية مراعاة لأوضاع حياته المتبدّلة ، تنطبق على أصول الشرع حتما ، ومن بركات هذا التشريع الربانى أنه يضع بأيدينا مقياسا ثابتا للمدينة والأخلاق لا يترنزل فلا يكرن فى قوانيننا الخلقية والمدينة أثر للتلون ، ولا يمكن أن يصبح حرام الأمس حلالا اليوم ثم يعود حراما غدا .

والأمر الثانى الخطير أن السلطات الدنيوية إذا أرادت وضع القواعد الإنسانية ومحاولة الإصلاح فى التمدن والأخلاق والاجتماع ، فهى تحتاج فى كل مسألة فرعية استرضاء عامتها للإصلاح المنشود فيها قبل أن تتولاه وتأخذ فى العمل له .

ولذلك يتوقف نفاذ كل مادة من مواد قانونها على إرضاء الجماهير ، وكل ما ينفذ فى البلاد من قانون إصلاحى أو تنظيمى بخلاف رضاهم ، فإنه لا محالة ينسخ ويلغى آخر الأمر بعد كثير من الفساد ، واضطراب الأحوال .

وليس هذا ما جرّبه أمريكا وحدها ، وإنما تشهد به تجارب الدنيا بأجمعها وهذا دليل على أن القوانين المدنية عقيمة زكدة لا تنقى شيئا فى إصلاح الأخلاق والاجتماع ، لأن المفسدين الذين ترمى هذه القوانين إلى إصلاحهم هم الذين يتوقف على رضاهم تقرير تلك القوانين أو رفضها وتنفيذها أو إلغائها وقد حل الإسلام هذه العقدة بطريق آخر ، إن تأملته علمت أنه لا حل لهذه المشكلة سواه ، وهو أنه قبل أن يمرض لمسائل التمدن

والاجتماع والأخلاق وقبل أن يطلب الانسان بإطاعة قوانين الشرع يدعوهُ أن يؤمن بالله وبكتابه ورسوله .

أما قبول الانسان دعوته أو رفضه إياها فلا شك موقف على رضاه ، وهو مختار في أن يؤمن أو لا يؤمن : ولا كنهه متى آمن بالله والكتاب والرسول بطل كل سؤال بعد ذلك عن رضاه أو عدم رضاه ، وأصبح كل ما يأمره به الرسول عن الله تعالى ، وكل ما يقوده كتاب الله أمراً واجب الاذعان له . . . وبذلك تحقّق في دنيا الاسلام باعلان واحد عالم يتحقّق في أمريكنا على الرغم مما أهلك في سبيله من جهد ومال .

العبارة الثالثة : أن جماعة إنسانية مهما توفر نصيبها من نور العلوم والفنون ، ومهما علا مقامها في سماء الارتقاء العقلي لا يمكنها التخلص من براثن الهوى مالم تكن مطبوعة للقانون الرباني ، ومتمتعة بقوة الايمان <sup>(١)</sup> .

وهكذا يظهر لنا الفرق بين العقيدة والشرعية كما يتبين الفرق بين العقائد والتشريعات الانسانية وبين العقائد والتشريعات الالهية فيتضح بالتالي ، مواطن التطور وعلته .

وعلى هذا يكون القول بتعميم نظرية التطور ومسحها على جميع العقائد والأديان قولاً لا يستند إلى أساس .

فساد نظرية النشوء والارتقاء

أما استناد أصحاب دعوى تطور الأديان والمعتقدات تبعاً لتطور الفكر

---

(١) ص ٦٥ - ٦٩ نحن والحضارة الغربية ، المودودي .



البشرى إلى نظرية النشوء والارتقاء العضوى فيقوض هذا الاستناد من أسامه ، فساد نظرية النشوء والارتقاء ذاتها .

حيث ثبت اعتماد النظرية على التخمين والخيال - كما سبق - فلا تعد بذلك علمية ، ولا صلة لها بالعلم .

فلم يثبت أن واحداً من نماذج الانسان القردى المكتشفة له حوض الانسان ولم يثبت أن هذا الانسان القردى مرحلة بدائية لتطور الانسان الحقيقى ، وأغلب الظن أن كل ما يستند إليه أنصار نظرية النشوء والارتقاء نوع من الوحوش المنقرضة قريبة الشبه فى تكوينها بالتكوين الانسانى أو القردى أو كليهما ، وإلا فكيف تمكن العلماء من العثور على حفريات للمكانات الحية الأخرى التى سبق وجودها وجرد الانسان بأزمته سحيقة ، وفى نفس الوقت يفشلون فى العثور على الحلقة الوسطى الحقيقية بين القرد والانسان ، وإذا كان بعضهم قد أطلق على ما اكتشفه من نماذج اسم الانسان أو اسم الانسان القرد فهذه طريقة غير دقيقة وغير علمية ، كذلك لم تجز حيلة أرنست هيكل على العلماء حينما حاول البرهنة على نظرية التطور بعرض صورة مزورة لجنين القرد وجنين الانسان لكى يثبت تطابقهما ولم تلبث حيلته أن افتضحت وكان عمله هذا رمزاً على الخداع وعدم الاخلاص فى الميدان العلمى . . . . . وعلى الرغم من محاولات كوهلر وغيره - فى هذا الشأن فإن القردة العليا تعجز عن الربط العقلى أو استخدام العقل للخروج من المآزق الجديدة ، بينما يستطيع الانسان أن يجد حلولاً لما يعرض له من مشكلات جديدة لم يسبق أن واجهها من قبل ، وهذا هو مر تقدمه .

ولنفرض جدلاً أن الانسان الأول قد تطور عن القردة العليا ، فلماذا تبقى القردة فى بيئته واحدة جنباً إلى جنب مع الانسان الأول ، ولا تتطور

فتصبح من بني الانسان مع أن التطوريين يؤكدون أن التطور يخضع لعاملي البيئة والوظيفة (١) أو على الأقل لماذا لم يهذب القرد الأعلى من مستوى حياته فيعمل على مستر جسمه ، أو يتمرد على نظام حياته الرتيبة ، فكل ما انتهت إليه البحوث في محاولاتها للربط بين القرد والانسان مجرد خيالات وأوهام .

---

(١) أنظر هامش صفحات ١٩٣ - ١٩٧ الفلسفة ومبادئها د محمد علي أبوريان .

## الفصل الثالث

نقد التطور في ضوء

الأديان والمعتقدات البدائية والقديمة

معتقدات الانسان البدائي .

الأساطير – الطوطمية

## معتقدات الانسان البدائي

١ - الأساطير : أصلها وتفسير هذا الأصل :

يرى كثير من الباحثين أن الأساطير هي أصل الدين بين البدائيين والهمج ، ويستندون في رأيهم هذا إلى : أن المعتقدات البدائية والهمجية تختلط بالأساطير في جميع القبائل البدائية ، وإلى ما أثبتته الدراسة العلمية - في اعتقادهم - للجماعات البدائية من أن الأسطورة عند الانسان القديم الموغل في القدم أو البدائي تعني قصة واقعية ، بل إنها قصة لها مكائنها الرفيعة في حياته لأنها مقدسة .

يقول برونسلا ومالينوفسكى : . . . الأسطورة تقوم في الثقافة البدائية بوظيفة لاغناء عنها ، فهي تعبر عن العقيدة وتذكيتها ، وتقننها وتصون الاخلاق وتدعمها ، وتبرهن على كفاءة الطقوس وتضم قواعد عملية لهداية الإنسان ، (١) .

والأسطورة نتاج فكري وثقافي ، تصور فكر وثقافة الانسان البدائي فتروى تاريخاً مقدساً في نظر هذا الانسان ، أو تسرد حدثاً وقع في عصور ممعة في القدم ، أو تحكى على أنها من وحى كائنات خارقة ، فتصور كيف برزت هذه الكائنات إلى الوجود وكيف أصبحت حقيقة واقعة في نظر أصحاب الأسطورة ، وقد تكون هذه الكائنات الخارقة آلهة أو أشباه آلهة فتفسر الأسطورة أعماله وقدراته مع ظواهر الطبيعة والكون والإنسان .

ولأن الرجل البدائي لا يبدو أن يكون طفلاً في تفكيره وسلوكه أو

(١) الحكاية الشعبية د عبد الحميد يونس ص ١٨ ، ١٩ .

يكاد ، فكانت الصخور الغريبة الشكل أو الكتل الخشبية أو الأشجار الشاذة الصورة وما أشبهها ، تبدو لعينة مهمة وذات مغزى خطر ، أو منذرة بالثبور أو مظهرة المودة ، فكانت أحلام هذا الرجل وأوهامه وخيالاته تخلق من الحكايات والأساطير عن مثل تلك الأشياء ، ما كان يصبح مقبولا ومصداقا عندما يروى ، ثم يصبح فيما بعد محترما ومقدسا ، وإن كانت تنزع في تفسيرها إلى التشخيص والتجسيم وتمثل أشياء غريبة فهذا شأن واسمى الخيال من الأطفال الذين يخترعون إلى يومنا هذا قصصا طويلة بطلها دمية محبوبة أو حيوان مستأنس ؛ أو كائن خيالى ، ولهذا نجد الأسطورة تنأى عن التحليل والتعليل والسببية .

وهن ثم أصبحت الأسطورة عند الإنسان البدائى عقيدة لها طقوسها وقديستها .

### أصل الأسطورة وصلتها بالعقيدة ومحاولات تفسيرها :

كانت الأحلام والخيالات والأوهام تجعل الرجل البدائى يلوم حيوانا أو نباتا أو شيئا آخر أو يلتمس منهم المعونة ، فكانت النصائح التى تصدر من رجل بدائى لآخر تقترن بصورة مبشرة أو منفرة بدأت بها حكايات عن هذا الحيوان أو النبات أو الشيء الآخر تفسيراً للنصائح والتحذيرات التى تقدم ، حتى أخذت بعض العقول الأكبر سنا والاثبت جنانا والأقوى قليلا من العقول الأخرى تأخذ وضع الكهان ، وتتصدر للنصح ووصف الصفات وإصدار الأوامر ، وتفسير الأحلام ، وعمل التعاويذ التى تجلب الحظ وتجنب النكبات - فى نظرهم - فكانت الحكايات الأسطورية طريقهم لاقتناع الآخرين حتى صاروا يملون على الناس طريقة العمل والتفكير فكانت الأسطورة أو الحكاية الأسطورية منبعاً للعقائد ، لكن الامر يبدو أشد تعقيدا فى نظر الباحثين .

يقول الدكتور عبد الحميد يونس في كتابه الحكاية الشعبية :

لقد أصبحت الاساطير مادة خصبة من مواد الدراسة الإنسانية ، ولها علم قائم برأسه هو علم « الميثولوجيا » ، أو علم الاساطير ..

ولقد جرت عادة الكتابين إلى عهد قريب ، أن يتوسعوا في فهم مصطلح الاسطورة ، وهناك آحاد لا يزالون يستعملونها بتلك الدلالة غير المحكمة الاسطورة عند أولئك وهؤلاء عبارة عن « ما لا علاقة له بالواقع ، أو بعبارة أخرى ، ما لا وجود له في الواقع ، ويبدو أن هذا الاستعمال امتداد لما كان عليه المصطلح في القرن التاسع عشر بأوروبا ، فقد كان يعنى وقتذاك ما يناقض الواقع .

ثم يقول : « وأغلب الظن أن هذا الفهم للاسطورة جد قديم ، فقد نقد بعض الفلاسفة اليونان الشاعر « هوميروس » ، صاحب الإلياذة والوديسا وعدوا الاساطير التي أوردها مجرد تهاويل خيال ، ورفض « أكرتوفون » ، أن يتصور الآلهة تتحرك من مكان إلى مكان - كما روى هوميروس - ولم يقتنع بخلود الآلهة الذي قال به هوميروس وهيزيود ، ونقد هذا الفيلسوف تشبه الآلهة بال مخلوقات ، ذلك لأن الخيل والانعام والوحوش كانت تصور الآلهة على مثالها ، أو أنها أعطيت يد الإنسان وقدرته على الرسم ، ونحن نجد في هذا النقد محاولة لتنقية مفهوم الآلهة مما علق به من شوائب التشبيه الذي يضطر الشاعر إليه .

وعلى الرغم مما وجه من نقد إلى هوميروس وهيزيود وغيرهما ، فقد ظلت الاساطير تثير اهتمام الصفوة من المثقفين في أرجاء العالم الذي تأثر بالفكر الهليني ، بيد أن الاساطير لم تعالج حرقياً ، وإنما أخذ المهتمون بها يبحثون عن مآزيرها الخفية ، ورأى بعضهم أن أسماء الآلهة التي أوردها هوميروس إنما تمثل الملكات الإنسانية ، أو العناصر الطبيعية ، ورأى

البعض الآخر أن هذه الاساطير عبارة عن رموز ومجازات لقوى ومثل وممان ، ولم تعد الآلهة عند هؤلاء خير مبادئ أخلاقية ونواميس طبيعية ، فعندما تقول الاسطورة مثلاً أن « زيوس ، شدوناق « هيرا ، فهذا معناه أن الاثير هو حد العالم ونهايته ثم ظهر اتجاه آخر يفسر الاساطير ويتخذ بدوره منهجاً عقلاً فذهب إلى أن الآلهة كانت في الاصل طائفة من الملوك القدامى بلغوا من المكانة والسلطان وبعد الصيت حدا جعل الناس يؤلهونهم فيما بعد .

وهكذا برز اتجاه يرى أن للاساطير واقعا تاريخيا ، أو لعل الاصح أن تقول : لقد أصبح للاساطير واقع فيما قبل التاريخ ، وأخذت الاساطير تمثل الذاكرة الإنسانية المشوشة أو التصوير الخيالى للملوك في عصور سحيقة غلبت عليها البداءة .

وذاعت المباحث حول الاساطير في النصف الثاني من القرن التاسع عشر على يد « ماكس مولر » الذى يذهب إلى أن الاسطورة نشأت من عيب فى اللغة يجعل للشيء الواحد أسماء متعددة ، كما أن الاسم الواحد قد يطلق على أشياء مختلفة .

ونتج عن هذا الغيب خلط بين الاسماء جعل الناس يعتقدون أن الآلهة المتعددة ليست إلا صوراً من إله واحد ، كما جعلتهم يتصورون الاله الواحد فى صورة آلهة متعددة ، بل إن استعمال المقاطع الاخيرة للدلالة على الجنس تذكيراً وتأنثاً ، قد أدى إلى تشخيص الالهة .

وفى رأى مولر : أن الآريين أنشأوا هيكل آلهتهم حول الشمس والفجر والسماء ، وهذا المنهج الاسطورى الذى يتركز حول الشمس كان موضع انتقاد علماء آخرين على رأسهم أندرو لانج الذى أكد أن الاساطير

ليست نتيجة عيب في اللغة ، ولكنها نشأت من تشخيص العناصر الكونية وهي مرحلة من مراحل الفكر تنسم بالتجسيم وإسباغ الحياة على المحسوسات والكائنات والظواهر .

وجاءت المدرسة الأنثربولوجية الانجليزية التي حاولت أن تفسر أساطير الشرق الأدنى وبلاد اليونان بمصطلحات الطقوس والممارسات السحرية ، ويذهب فريزر إلى أن دورة النماء والذبول هي التي أبدعت صورة الاله المتحضر وأسطوره

ويرى بعض علماء الأساطير أن الطقوس قد سبقت نشأة الأسطورة التي تعد عندهم تفسيراً تمثيلاً للطقوس . . . ومهما يكن من شيء فإن العلماء الآن يكادون يجمعون على الرابطة الوثيقة التي لاتنفصم بين الأساطير والطقوس (١) .

فكان الأساطير في نظر كثير من العلماء أصل المعتقدات الدينية ، لأن العقائد قد تلبست بالأساطير في جميع القبائل الفطرية كما يقول العقاد (٢) .

ومن معرض الأساطير لدى كل أمة عند دراستنا لمعتقدات دول الحضارات القديمة ونناقشها . إن شاء الله وبكفينا هنا أن نقرر بعد هذا الاتجاه عن الحقيقة تماماً حيث يعتمد هؤلاء على نظرية النشوء والارتقاء التي سبق بيان فسادها .

أما الآن فنعرض للطوطمية أشهر المعتقدات البدائية .

## ٢ - الطوطمية :

عرفنا مناسبق أن كلمة طوطم تطلق على كل أصل حيواني أو نباتي تتخذه

(٢) الله ص ١١

(١) الحكاية الشعبية ص ١٥ - ١٨



عشيرة مارمرزاً لها ولقباً لجميع أفرادها ، وتعتقد أنها تؤلف معه وحدة إجتماعية ، وتنزله وتنزل الأمور التي ترمز إليه منزلة التقديس .

كما عرفنا أن معظم الطواطم تتألف من فصائل حيوانية ونباتية ، كفصائل الذنب والثعلب والنمر والكنغر والحمام والطاووس ، وكفصائل شجر البلوط والموز والمطاط .. والطواطم الحيوانية أكثر عدداً وأوسع انتشاراً من الطواطم النباتية ، وقليل من الطواطم ما يمثل في جماد أو نجم أو مظهر من مظاهر الطبيعة

فن بين الطواطم الخمسة التي كشف عنها هويت Howit عند العشائر الجذرية من سكان اسراليا يرجع أربعائة وستون منها إلى طواطم حيوانية ونباتية ، وأربعون فقط إلى طواطم غير حية يتمثل معظمها في مظاهر الجو والسما والطبيعة ، كالشمس والقمر ، والكواكب والصيف والشتاء والخريف والسحاب والمطر والبرد والرياح والنار والدخان والماء والبحار .

ويقصد من الطواطم الحيوانية أو النباتية ، الفصيلة العامة التي ينتمي إليها الحيوان أو النبات لأفراد معينين أو أفراد معينون من أفرادها . فحينما يكون توتّم العشيرة الثعلب مثلاً يكون المقصود فصيلة الثعلب على العموم لا ثعلباً معيناً أو ثعلاب معينة من هذه الفصيلة ، فالعشيرة في هذه الحالة تعتقد أنها هي وفصيلة الثعلب من طبيعة واحدة ، أي أنه يتألف منها ومن هذه الفصيلة الحيوانية وحدة إجتماعية أو ما يشبه الأسرة الواحدة ، ويتخذ الثعلب رمزاً لها ولقباً لجميع أفرادها وتنزله منزلة التقديس .

وبجانب الطواطم الخاص بالعشيرة يوجد الطواطم العام للاتحاد الذي تنتمي إليه العشيرة ، والاتحاد عبارة عن مجموعة من العشائر يعتقد أنها ترجع في القديم إلى أصل واحد .

فلكل عشيرة إذن طوطمان : طوطمها الخاص بها ، والطوطم الاتحادي

لعام الذى تشترك فيه مع عشائر اتحادها، وكانت قدس العشيرة طوطمها الخاص بها تقديس كذلك طوطمها الاتحادى العام (١) .

### مظاهر التقديس :

من أهم مظاهر تقديس الطواطم : انه يحرم على جميع أفراد القبيلة أو العشيرة أن يمسوها — أى الطواطم — بأذى أو إساءة ، كما يحرم عليهم أن يدخلوا إلى بطونهم شيئاً من عناصرها ، فإذا خالف أحدهم هذه القواعد يعد فى نظر قبيلته مجرماً ، ويسود الاعتقاد بأن هذه المخالفة تؤدى فى صورة تلقائية إلى موت المجرم عاجلاً أو يبطئ أو إلى وقوعه تحت طائلة العذاب والأذى الذى يصيبه فى جسمه ، أو فى نفسه .

ومن مظاهر تقديس الطواطم أيضاً ما يرى من بعض العشائر تجاه الطواطم من إلزام أفراد العشيرة بطقوس خاصة كطقوس الحداد عند موت فرد من أفراد فصيلة الطواطم الذى تنتمى إليه ، أو عند العثور على جثته ، ومن قيام بدفنه فى حفل خاص يحاط بالرهبة وطقوس دينية خاصة ،

ومن مظاهر التقديس الطوطمية كذلك أن أفراد القبيلة أو العشيرة يستمدون من طوطمهم العون فى مختلف المناسبات ، وخاصة فى الحروب ، ويعلق به فى هذه الشئون كثير من المعتقدات كالتعاؤل والتشاؤم والفرح والاكتئاب عند هذه القبائل أو العشائر .

ومن ذلك ما يعتقد السموائيين Samoans ( سكان أرجنيل ساموا بجوار زيلندة الجديدة ) من أنه إذا حدث بالصدفة أن انفقت حركة الجيش مع تحريك الطائر الطوطمى فرئى وهو يطير أمام كتائب الجيش ، كان ذلك

---

(١) الطوطمية ، د . على عبد الواحد وفى ص ١٣ وما بعدها

دليلا على أنه سيكتسب له النصر في المعركة التي سيخوضها أو المعركة المقبلة وإن رنى وهو يطير في اتجاه مضاد لاتجاه الجيش كان ذلك آية على أنه ستكتسب عليه الهزيمة والانسكاس إن أصر على الذهاب إلى ميدان القتال والأصح بالنسبة لمثل هذا الموقف هو التراجع (١) .

ولعل هذه المظاهر التي تقترن بالطواطم هي التي أدت إلى وصف هذه الأعمال بأنها ديانات أو أصول الديانات .

ومن هنا ذهب طائفة من العلماء الذين يهتمون بدراسة الانسان والأديان إلى إيجاد صلة وثيقة بين الطواطم والدين ، فيذهبون إلى أن الطواطم تمثل أصلا للأديان بين البدائيين والهمج مستندين إلى ما تحقق من أن شعائر الطواطم منتشرة بين مئات القبائل الهمجية في استراليا وأفريقيا والأمريكتين وبعض القارة الآسيوية وجزأرها .

فلا تزال في هذه القارات قبائل كبيرة وصغيرة تتخذ لها على الأكثر حيواناً تجعله طوطماً وتزعمه أبائها ، أو تزعم أن أبائها الأعلى قد حل فيه ، وقد يكون الطوطم في بعض الحالات نباتاً أو حجراً يقدسونه كـتقديس الأنصاب .

وإذا اتخذت القبيلة أو العشيرة « طوطماً » لها حرمت قتل أحد من أفرادها وحرمت أكله أو شربه أو ما تراه يؤذى هذا الطوطم ، وحرمت أيضا الزواج بين الذكور والإناث الذين ينتمون إلى ذلك الطوطم ولو من بعيد ، وقد يكون للقبيلة الكبرى بطون متفرقة تتعدد طواطمها ويمجوز الزواج بين النتمين إليها ! ولكنهم يحرمونه في الطوطم الكبير ومخالفة هذه القواعد يعد في نظر هذه القبائل أو العشائر من أكبر الجرائم .

ومن هذه العلاقة يرجح الدارسون أصحاب القول بأن الطوطم أصل

---

(١) الطوطمية ، د . علي عبد الواحد وافي ص ١٤ - ١٨ .

الاديان قولهم ، ويستندون إلى مظاهر التقديس العديدة التي ذكرنا بعضها بالإضافة إلى شيوع الشعائر الطوطمية بين المذات من القبائل الهمجية .

### بعض قواعد استثنائية :

ويستثنى من هذه القواعد بعض حالات حددتها التقاليد ، فمن ذلك أنه يباح لأفراد العشيرة في بعض المناسبات الدينية أن يطعموا من طوطمهم الخاص ، أو طوطم اتحادهم العام على أنه طعام رباني مقدس ، كما يباح ذلك أيضاً للواحد منهم عند الضرورة القصوى بحيث لا يجد أمامه إلا طوطم عشيرته أو طوطم اتحاده ، كما يباح ذلك على الإطلاق إذا كان الطوطم لا تمكن الحياة بدونه كالماء وما إليه ، ويباح قتل الطوطم في حالة الدفاع المشروع عن النفس ، واتقاء الأذى ، وخاصة إذا كان الطوطم مفترساً أو مؤذياً بطبعه كالنمر والثعبان وما إليهما .

ولكن جميع الحالات التي يباح فيها الاعتداء على الطوطم أو تناول شيء من عناصره مقيدة في طرق تنفيذها بقيود وطقوس كثيرة تدل أوضح دلالة على أنها حالات استثنائية ، وعلى أن الأصل في ذلك هو التحريم ، ففي حالة الضرورة مثلاً ، لا يباح للفرد أن يتناول من الطوطم أكثر من القدر الذي يسد رمقه وينقذه من الهلاك ، ولا يجوز له في هذه الحالة عند كثير من العشائر ذبح الحيوان أو قلع النبات الطوطمي بنفسه ، بل يجب أن يتولى ذلك عنه فرد من اتحاد آخر غير الاتحاد الذي تنتمي إليه عشيرته إلا إذا تعذر وجود هذا الوسيط في موطن قفر ، ولم يكن ثمة سبيل لإتخاذ حياته إلا أن يتولى ذلك بنفسه .

وتطبق هذه القاعدة حتى على الطواطم التي تتوقف الحياة عليها .

ففي العشائر التي تتخذ الماء طوطمها لها أو لإتحادها لا يصبح للفرد من

أفرداها أن يخرج الماء بنفسه من البئر أو النهر ، بل يجب أن يتولى ذلك عنه فرد من اتحاد آخر غير الاتحاد الذى تنتمى إليه عشيرته .

وفى حالة الدفاع المشروع عن النفس واتقاء الأذى لايجوز قتل الطوطم إلا إذا تقطعت بالفرد الأسباب ولم يجد سبيلا آخر غير ذلك .

فالعشائر التى تتخذ طواطمها من الحشرات المؤذية مثلا ؛ لا يباح للفرد أكثر من طردها عنه ؛ مادام طردها يقيه شرها ويدفع عنه أذاها ، وفى كثير من العشائر يتحتم على الفرد فى مثل هذه الضرورات أن يستغفر من ذنبه ويندم على ما فعل ، وألا يدخر وسعاً فى تخفيف العذاب عن الطوطم فى حالة قتله أو طرده .

غير أن بعض العشائر ذيرت من هذه النظم الأصلية ما ييسر عليها حياتها فأباح بعضها أكل الطوطم بمقادير خاصة فى غير حالات الضرورة ؛ وأباح بعضها ذلك على الإطلاق للشيوخ الذين بلغوا منزلة خاصة فى سلم الوظائف الدينية ، ولطبقة السحرة والكهان ؛ وأجاز بعضها أكل أجزاء خاصة من الطوطم يعتقد أنها أقل قدسية من غيرها .

وجعل بعضها التحريم مقصوراً على الطوطم بعد بلوغه سنّاً معينة ؛ وذلك لاعتقادها أن قدسيته تظل ناقصة مادام لم يصل بعد إلى هذه السن . ولا يطبق هذا الحظر ولا هذا التقييد إلا حيال الطوطم الخاص بالعشيرة التى ينتمى إليها الفرد والطوطم العام للاتحاد الذى تنتمى إليه عشيرته .  
- كما سبق - .

أما الطواطم الخاصة بالعشائر التى تنضوى مع عشيرته تحت اتحاد واحد فيحل له أن يطعم منها ؛ على أن يتولى الحصول عليها وإعدادها وتقديمها وسيط من اتحاد آخر غير اتحاد عشيرته ؛ وأما الطواطم الخاصة

بالعشائر الخارجة عن اتحاده والطواطم العامة لإتحادات أخرى غير اتحاد  
عشيرته ؛ فيباح له أن يطعم منها ، ويساك حياها أى مساك يطيب له بدون  
قيد ولا شرط (١) .

### رأى مخالف :

مما سبق من اللوازم الطوطمية التى استدل بها أصحاب القول بأن  
الطوطمية أصل المعتقدات الدينية ؛ يستدل المخالفون لهذه الفكرة من  
الباحثين بنفس الأدلة — من مظاهر التقديس والاستثناءات، والمحرمات  
والمباحات — على أن الطوطمية لم تكن أصل العقيدة الدينية .

لأن الأمور التى اقترنت بالطواطم تنشأ بعد اتساع القبائل واعترافها  
بأنظمة الزواج ، وآداب المعاملات ، وليست هذه المرحلة أولى المراحل  
فى تطور الاعتقاد ، كما جاء فى كتاب « الله ، للعقاد الذى عنق على  
ذلك بقوله :

« ولا شك أن الناس قد عرفوا شيئاً يسمى الروح يحل فى جسد  
الحيوان أو يتلبس به قبل أن يعرفوا الطوطمية ؛ وعرفوا كذلك تقديس  
الأسلاف قبل أن يعرفوها ، وقد وجدت قبائل شتى تتخذ الطواطم وتعبد  
أرباباً غيرها ، ووجدت قبائل لا تخلع على الطواطم صفة الأرباب على  
الإطلاق ، (٢)

ويمحسن بنا أن ننقل هذا البحث فى تفسير النظام الطوطمى كما أورده  
الدكتور على عبد الواحد فى كتابه : ( الطوطمية أشهر الديانات البدائية )  
من سلسلة اقرأ ص ٩٥ وما بعدها .

---

(١) المرجع السابق ص ١٥ — ١٧ .

(٢) ص ١٥

تفصيل النظام الطوطمي ورجعه إلى أصوله من كتاب « الطوطمية » .

اختلف الباحثون اختلافاً كبيراً في تفسير النظام الطوطمي ، وفي شرح ما يتضمنه من عناصر ، وبيان ماعسى أن يرجع إليه من أصول ، وترجع أهم النظريات التي قيلت في هذا الصدد إلى ثلاث نظريات يعرضها ويناقشها الدكتور على عبد الواحد وافي ، وننقلها كما هي بنصها ثم نعقب عليها :

#### ١ - نظرية تايلور وويلكن

يرى تايلور وويلكن أن الطوطمية قد انشعبت عن عبادة الأرواح ، وأن هذا الإنشعاب قد نشأ عن طريق ما يعتقد كـثير من الشعوب البدائية وغيرها من إمكان « تناسخ الأرواح » ، وحلولها في غير أجسامها الأولى فأرواح السلف كانت موضع تقديس الخلف وعبادتهم ، وكانت في مبدأ أمرها قائمة بذاتها منفصلة عن الأجسام ، ثم أخذ الاعتقاد بتناسخ الأرواح يتدخل شيئاً فشيئاً في هذا الموضوع حتى انتهى الأمر ببعض الشعوب البدائية إلى الظن بأن هذه الأرواح قد حلت في أجسام بعض الحيوانات أو بعض النباتات ، فأصبحت هذه الحيوانات وهذه النباتات مقر الأرواح السلف من الآباء والأجداد ، واتجه إليها التقديس ، ولكنّه كان يتجه إليها بالتبعية ، ويتجه بالأصالة لما تنقسمه من أرواح ومع تقدم العهد تنوى هذا الأصل ، وأصبحت هذه الحيوانات وهذه النباتات مقدسة لذاتها فنشأ من ذلك ما نسميه بالنظام الطوطمي .

وقد أورد تايلور وويلكن لتأييد نظريتهما هذه عدة شواهد اقتبسها من ملاحظة بعض الظواهر الدينية في جزر جاوة وسومطرة وميلانيزيا .

فن ذلك مثلاً أنه في بعض هذه الجزر ويقدس الناس التماسيح ويقدمون

لها القرايين ، وبعالون مسلّكم هذا بانهم إنما يقدسون أرواح السلف  
التي حلت في هذه الحيوانات

غير أنه يلاحظ أن جميع الشواهد التي قدمها بين يدي نظريتهما مفتبسة  
من شعوب قد تطورت فيها الطوطمية تطوراً كبيراً حتى خرجت عن أصلها  
وأخذت تستحيل إلى نظام ديني آخر

فن الخطأ النظر إلى شعائر شعوب هذا شأنها على أنها ممثلة لهذا النظام  
في مبدأ نشأته كما يزعم أصحاب هذه النظرية .

وإن المبادئ الأولية لمناهج البحث العلمي لتقصيها حينما نريد الوقوف  
على الأصول الأولى لنظامنا ، أن نبحت عنها في أبسط أشكال هذا النظام  
وأقدمها وأشدّها سداجة وأبعدها عن التطور .

وأبسط أشكال النظام الطوطمي وأقدمها وأشدّها سداجة ، وأبعدها  
عن التطور هي الأشكال التي كان معمولاً بها عند السكان الأصليين لآستراليا  
في فاتحة كشفها .

وبالبحث عن هذه الأشكال لا نرى فيها أي أثر للاعتقاد بحلول أرواح  
الموتى في الطواطم من الحيوان والنبات ، صحيح أنه كان يوجد لدى الأستراليين  
الاعتقاد بحلول بعض أرواح الموتى في أجسام حية . ولكنهم كانوا يعتقدون  
أن هذا الحلول لا يمكن أن يكون إلا في أجسام الأحياء من الآدميين ،  
لا في أجسام الحيوانات أو النباتات .

هذا إلى أن الاعتقاد بإمكان حلول روح الإنسان في الحيوان أو  
النبات يتوقّف على الاعتقاد بأنه من الممكن أن تتحد طبيعة الأناسي مع  
طبيعة بعض الحيوانات أو النباتات ، إذ لا يستساغ أن تحل روح كائن في  
كائن آخر يختلف عنه في طبيعته ، والاعتقاد بأنه من الممكن أن تتحد



طبيعة بعض الأناسى مع طبيعة بعض الفصائل من الحيوان أو النبات هو قوام الديانة الطوطمية نفسها وأهم دعامة تقوم عليها عناصرها وشعائرها .

وذلك أن الأصل الذى تقوم عليه هذه الديانة ، تتمثل فى الاعتقاد بأن أفراد العشيرة من الأناسى وأفراد طوطمها من الحيوان أو النبات يؤلفون وحدة اجتماعية ؛ أو ما يشبه الأسرة الواحدة ، ويرجعون جميعاً إلى طبيعة واحدة وعنصر واحد - كما سبق - فالعقيدة التى يرى تايلور وويلكن أن الديانة الطوطمية قد انشعبت عنها ، وهى تناسخ الأرواح وحلولها فى غير أجسامها الأولى ، تتوقف هى نفسها على وجود الديانة الطوطمية من قبل ، فالأدنى إلى المعقول إذن أن يقال : إن هذه العقيدة قد انشعبت عن الطوطمية لا أن الطوطمية قد انشعبت عنها .

وفضلاً عن هذا كله فإن نظرية تايلور وويلكن تقوم على فهم خاطئ . للديانة الطوطمية ، فهى ترى أن الطوطمية مظهر من مظاهر عبادة الحيوان والنبات ، مع أنه قد ظهر لنا أن الطوطمية تختلف اختلافاً جوهرياً عن عبادة الحيوان والنبات ، فأفراد العشيرة الطوطمية لا يقفون حيال طوطمهم كما يقف عابد الحيوان أو النبات حيال معبوده ، فهذا يعد نفسه من طبيعة بشرية تختلف كل الاختلاف عن طبيعة معبوده ، ويعتبر نفسه شيئاً حقيراً إذا قيس بإلهه ، على حين أن النظام الطوطمى يجعل الإنسان نفسه من طبيعة طوطمية ، فالعلاقة بين أفراد العشيرة وفصيلة طوطمها ليست علاقة عباد بآلهة ، بل علاقة أقرباء تربطهم بعضهم ببعض وشيجة الدم ولحم النسب الوثيق ، والتقديس الذى يوجه فى الديانة الطوطمية إلى الحيوان أو النبات فى هذا التقديس جميع ما يرمز إلى الطوطم أو يمثل مظهره من مظاهره بل إن أفراد العشيرة أنفسهم يشاركون الطوطم هذه القدسية لإشتراكهم معه فى طبيعته كما تقدم بيان ذلك ، ولو كانت الطوطمية منشعبة عن عبادة أرواح الموتى للاعتقاد بحلولها فى أجسام بعض الحيوانات أو النباتات كما

يذهب تايلور وويلكن لما ظهرت في الصورة التي وصفناها . بل اظهرت في الصورة التي تبادرت إلى ذهنيهما وهي عبادة الكائنات نفسها التي حلت فيها هذه الارواح .

## ٢ - نظرية جيفونس .

ويذهب جيفونس إلى أن الطوطمية قد انشعبت عن عبادة مظاهر الطبيعة . وذلك أن الإنسان البدائي تحت تأثير الخوف والرهبة من مظاهر الطبيعة من حيوان ونبات وجماد ، حرص على التقرب إلى بعضها ليتقى شرها ويضمن نفعها ؛ ويستدر عطفها عليه ، ولم يكن ثمة وسيلة للتحالف وعقد الذمة غير وسيلة القرابة ، فالقرابة وحدها هي التي كانت في الشعوب البدائية تحقق التضامن والتكافل والامن والسلام ، فقد كان أفراد العشيرة الواحدة أولياء بعضهم لبعض لصلة القرابة التي كانت تجمع بينهم ، على حين أنهم كانوا ينظرون لغير أقربائهم نظرتهم إلى خصوم وأعداء ، ولذلك اصطنع العقل البدائي صلة قرابة بينه وبين بعض مظاهر الطبيعة ، ولم يقم هذه الصلة بين أفراد وأفراد ، وإنما أقامها بين الشئان الإنسانية من جهة والفصائل الحيوانية والنباتية والطبيعية من جهة أخرى .

وذلك لأن العشيرة هي التي كان لها وجود دائم قوى في العقلية البدائية ، أما الافراد فلم يكن لهم وجود يعتد به ، فنظر البدائي إلى عالم الحيوان والنبات والجماد نظرتة إلى عالم الإنسان ، فلم يعتد بأفراد هذا العالم ، وإنما اعتد بفصائله وأنواعه ، وعمد إلى هذه الفصائل ولانواع فربطها بعشائرها بوشيجة القرابة ولحمة النسب .

ولا تقل هذه النظرية فساداً عن النظرية السابقة ، فهي تصور الطوطمية على أنها ناشئة عن عمل ارادى قصد إليه الافراد لتحقيق غاية نفعية أو وقائية ، وهذا لا يتفق في شيء مع ما نعرفه عن نشأة النظم الاجتماعية .

فبعدنا بهذه النظم أنها لا تنشأ عن عمل ارادى مقصود ، وإنما تنبعث في صورة تلقائية وتخلقها طبيعة الاجتماع وظروف الحياة .

هذا إلى أنه لو كان الغرض من الطوطمية أن يتقرب الانسان إلى بعض مظاهر الطبيعة ليتقى شرها ، ويضمن نفعها ، ويستدر عطفها عليه ، لعقد هذه الصلة بينه وبين أكبر هذه المظاهر قوة وأشدّها بطشاً وإثارة للرعب والخوف في نفس الانسان ، مع أن الواقع أن معظم الطواطم تتألف من نباتات وحيوانات ضعيفة لا ترهب ولا تخيف ولا سيطرة لها على حياة الإنسان .

ولو كان الهدف الذى تقصد إليه العشائر من الطوطمية أن تكون وسيلة للإفادة من مظاهر الطبيعة ولا نقاء شرها . لعملت كل عشيرة جهدها على أن تعقد هذه الرابطة مع أكبر عدد ممكن من هذه المظاهر ، حتى تضمن أكبر قدر ممكن من النفع ، ويزداد مبلغ اطمئنانها في حياتها ، وتكثر ومائل وقايتها من الأخطار ، مع أن الواقع أن الطوطمية كما سبق تقوم على أساس أن كل عشيرة لا يكون لها إلا طوطم واحد فحسب .

• • •

### ٣ - نظرية دور كايم :

لاحظ دور كايم أن الكائنات التى يتجه إليها التقديس في الديانة الطوطمية سواء في ذلك الطوطم نفسه والرسوم التى تدل عليه ، تجمع بينهما صفة مشتركة ، وهى أنها مظاهر للعشيرة نفسها ورموز تشير إليها ، فالطوطم هو لقب العشيرة ، وطبيعته من طبيعتها ، والرسوم الخاصة به ترمز إليها .

فالتقديس لا يتجه إذن إلى هذه الأشياء إلا لأنها رمز للعشيرة ، وبعبارة أخرى : إن تقديس هذه الأشياء هو في حقيقة الأمر تقديس للعشيرة نفسها فالطواطم ورسومها هى بمنزلة الأعلام التى تتخذها أمتنا الحديثة رمزاً لها .

فكما أن تقديسنا وتعظيمنا لعلم بلادنا هو في حقيقة الأمر تقديس وتعظيم لما يرمز إليه هذا العلم ، أى تقديس لأممتنا ومجتمعتنا ، كذلك كان شأن البدائين حيال طواطمهم

فالاله الذى يتجه إليه التقديس فى الديانة الطوطمية هو العشيرة نفسها أو المجتمع نفسه مردوزاً إليه ببعض رسوم وبعض حيوانات أو نباتات . ويرى دور كايم أن هذا النظام قد أبعث من تلقاء نفسه من العقل الجمعى وأنه حقق فوائد اجتماعية ذات بال .

فالحياة الاجتماعية لا تستقيم إلا إذا كان المجتمع ونظمه وأوامره ونواهيها موضع تقديس الأفراد وإجلالهم ، والنظام الطوطمى كان وسيلة لتقنين الأفراد وترويضهم على هذا التقديس والاجلال ، لتقوى آصرة ارتباطهم بمجتمعهم ، ويسلس قيادهم للحياة الاجتماعية ، وما تفرضه من نظم ، وتضعه من قواعد تتعارض فى كثير من مظاهرها مع أهواء الأفراد ورغباتهم .

ولما كان دور كايم يرى أن الطوطمية ديانة بالمعنى الدقيق لكلمة ديانة لأنها تقوم بين عالمين : عالم قدسى ( الطواطم وما يتصل بها وكل ما هو من من طبيعتها ) وعالم عادى ، وهذا هو قوام كل ديانة إنسانية فى نظره ، ويرى أنها تمثل أقدم ديانة إنسانية لإرباطها بأبسط تكوين اجتماعى ، وهو تكوين العشيرة ، فقد ذهب إلى أن المجتمع نفسه كان أول إله عبده بنو الإنسان .

\*\*\*

وهذه النظرية — على ما فيها من دقة وطرافة وعمق البحث لا يمكن التسليم بجميع ما اشتملت عليه ، فالآثار والنتائج الاجتماعية التى يرتبها دور كايم على الديانة الطوطمية بحسب نظريته لا يمكن التسليم بها إلا إذا اثبت أن البدائين كان لديهم الشعور بأن ما يقومون به حيال الطواطم

ورموزه هو تقديس للمجتمع الذي يهتمون إليه ، مع أن الذي يظهر من بحوث علماء الأنثوجرافيا أن البدائيين لم يكن لديهم شعور بمثل هذه الحقائق السامية ، وأن العقلية البدائية ما كانت لتستطيع أن تسمو إلى مثل هذه الآفاق في التفكير .

ولا يمكن كذلك التسليم بما ذهب إليه دوركايم من أن الطوطمية تمثل أقدم ديانة إنسانية ، فالطوطمية كانت نظاماً دينياً لبعض شعوب بدائية اكتشفت في صدر العصور الحديثة .

صحیح أن هذه الشعوب ظلت أمداً طويلاً بمنزل عن التيارات الحضارية الكبرى التي توالى ظهورها بين سكان القارات القديمة .

ولكن لا يترتب على ذلك أنها سلمت من التطور ، وأفلتت من قانونه ، وظلت محافظة على أقدم نظام نشأت عليه ، فالتطور هو سنة الاجتماع وناموس السكائنات الحية على الإطلاق .

ولا يمكن أن يفلت منه شعب مهما كان منعزلاً عن الشعوب الأخرى وحتى مع التسليم جدلاً بأن الطوطمية تمثل أقدم ديانة سارت عليها هذه الشعوب البدائية منذ نشأتها . فإنه لا يوجد دليل يحمل على اليقين ، ولا على الظن بأنها كانت الديانة السائدة ، في فاتحة الإنسانية وجميع شعوبها على الإطلاق .

• • •

وإلى هنا تنتهى النظريات الثلاث وتعليق الدكتور الباحث ذو القدم الراسخ في البحوث الاجتماعية والدراسات الإنسانية عليها الذي يختم بحثه قائلاً : وما تقدم يبين أن كثيراً من المفكرين والباحثين قد وقعوا في خطأ جسيم ، حينما ظنوا أن الشعوب البدائية حرة طليقة لاتخضع لنظام ولا

يقيدها قانون ، أو أن نظمها وقوانينها ساذجة بسيطة تسيرها الغرائز وتحكمها النزعات الطبيعية في الإنسان ، فقد تبين لنا من دراستنا السابقة .

أن النظام الطوطمي الذي يمثل نظاماً من أقدم النظم الإنسانية إن لم يكن أقدمها جميعاً ، وتسير عليه شعوب تعد من أكثر شعوب العالم بدائية وبعداً عن أسباب الحضارة ، يضع لجميع فروع الحياة نظماً وقواعد لا تقل في دقتها وتعقيدها عن نظمنا الحاضرة إن لم تزد عن كثير منها في معظم الشئون .

فالإنسان حينما يكون ، وفي مختلف مراحل التاريخ ، مدني بطبعه ، أى لا يستطيع أن يحيا إلا في مجتمع ولا تستقيم الحياة في مجتمع ما إلا إذا خضعت أوضاعه جميعاً وخضع أفراداه في مختلف شئون حياتهم لما يختاره عقله الجمعي من نظم وقواعد وقوانين .

\* \* \*

هذا ويمكننا أن نصنيف إلى وجهة نظر الباحث الدكتور على عبد الواحد الحقائق التالية :

١ — كما اتخذت اللوازم والمظاهر الطوطمية دليلاً على أن الطوطمية أشهر الديانات البدائية أو أصل من أصولها ، اتخذت نفس اللوازم والمظاهر دليلاً على عكس هذه الفكرة ، أى على أن الطوطمية لم تكن أصل العقيدة الدينية لأنها نشأت بعد وقت طويل جداً لم يخل من دين ، وذلك قبل اتساع القبائل ومعرفتها الأنظمة الاجتماعية والقواعد الطوطمية العامة .

هذا ويمكن في نفس الوقت الاستدلال بهذه اللوازم والمظاهر على وجود رجعية فكرية ماثلة في الطوطمية سبقها وحى سماوى مسخه عقل الانسان وعواطفه .

فتحذير الوحي لأول إنسان وهو آدم من الشقاء في الدنيا جعله يعامل

الكائنات بحذر شديد ( فلا يخرجنكم من الجنة فتشقى ) وقد ظل الأدميون الذين تلوه يتوارثون هذا الحذر من الأشياء حتى أطمأنوا إليها شيئاً ، فشيئاً .

ولاريب أن الحذر المتوارث يولد مثل هذه الأوازم والمظاهر التي ظن أنها تقديس أو تدين ، وتدل القواعد الاستثنائية للوازم الطوطمية على هذا

٢ — يستوى القول بأن الطوطمية انشعبت عن عبادة أرواح الموتى كـ نظرية تايلور ووبلكن أو انشعبت عن عبادة مظاهر الطبيعة تحت تأثير الخوف والرغبة من هذه المظاهر كما يذهب جيفونس .

أو انشعبت عنها ( أى عن الطوطمية ) جميع الديانات الإنسانية وانبعثت ، هى من تلقاء نفسها من العقل الجمعى كما يرى دور كايم .

أو كانت نتاج الطبع المدنى للإنسان الذى لا يستغنى عن الخضوع لقواعد وقوانين يختارها العقل الجمعى كما ينتهى الباحث الاجتماعى الكبير الدكتور على عبد الواحد : فإن هذه الآراء كلها لا تستند إلى ما يقتضى تعميم نتائجها وإن استند إلى بحث لواقع فى بعض الأمم والشعوب والقبائل البدائية ، للتدليل على وجودها أو تفسير الوجود ، فوجود شيء فى ظروف تشبه ظروفاً لم يرها أحد ولم يتأكد منها لا يسمح بتعميم هذا التفسير من وجهة النظر العلمية ، وبالتالي تبقى قضية الإنسان الأول .

والدين الأول ملصكاً للعالم الخبير المحيط الذى يعلم منى وجد الإنسان وكيف وجد ، ومتى تدين وكيف تدين ، ويبقى وحيد دليل العالم الوحيد على الحقيقة الكبرى .

٣ — على الاستنتاج والتخمين أذن قامت دعوى الأساطير أصل للأديان

ودعوى أن الطوطمية أصل للأديان ، فلم يكن المنهج العلمى هو الموصل إلى هذه الدعوى ولا كان طريقاً إليها ، ويكفى دليلاً على ذلك أن أصحاب هذه الدعوى لا يملكون وسائل المنهج العلمى الصحيح من خبرة وإحاطة بالتاريخ الإنسانى والفكر الإنسانى .

٤ — إذا صح شيء من ذلك بالنسبة للمعتقدات التى صنعها البشر لأنفسهم بوحى من الفطرة الدينية التى فطر عليها البشر ، فإنه لا يصح بالنسبة للدين الصحيح الذى كان طريقه الوحي الإلهى ، أو الرسائل .

فالدين الصحيح عرف طريقه إلى البشر منذ آدم حتى قيام الساعة مثلاً فى : عقيدة مستقيمة قوامها الإيمان بالله خالق مدبر لا شريك له ، أرسل الرسل واتخذ الملائكة وأعد الجنة والنار لاثابة الطائعين وتعذيب العصاة ، وشريعة متطورة تبتدأ للطفولة الإنسانية حتى كما لها ، ثم استقرت فى قواعد كلية يمكن فى ظلها تطوير أساليب الحركة والنشاط الإنسانى ، بالطريقة التى تبقى على الصلة بين الخالق والمخلوق وتسمح بالترقى والتقدم الحقيقى للمجتمع وبالسعادة الأفراد .

أما المعتقدات التى صنعها البشر أو تدخلوا فى صنعها فلا مانع من البحث فى أصلها وعائدها وتطوراتها ، والقول بشأنها مثل ما يقال بشأن أية صناعة أو عمل بشرى ، إنما الممنوع هو تعميم ما يستنتج من بحث هذه الصناعات والأعمال ، على ما ليس من صنع البشر أو عملهم ، وهو الوحي أو الدين الصحيح أو الرسائل الإلهية .

أليس هذا هو منطق المنهج العلمى . .

فساد تعميم نتائج بحوث تجرى على صناعات وأعمال بشرية على عمل غير بشرى .  
إذاً قيل : ومن أين نعلم أن الرسائل الحقيقية ليست من صنع البشر ؟

قلنا : تعالوا إلى القرآن ، وأجمعوا لدراسة علماء الأرض لتروا إن كان



من صنع بشر ، أو من وحى إله . مادهم قد اصطاحتم على اتخاذ المنهج العلمى طريقاً إلى النتائج والحقائق .

إنه لا يعوق الفكر الإنسانى عن الوصول إلى هذه الحقيقة غير الانحراف عن المنهج العلمى سواء بمحشر الأهواء والأغراض ، أو بالتعصب ، أو بالجهل .

وسنتناول فى دراستنا للإسلام كدين بياناً واضحاً لحقيقة الوحى الإلهى فى آخر أجزاء هذا الكتاب إن شاء الله . .

• • •

## نقد نظرية التطور

### في ضوء

### معتقدات دول الحضارات القديمة

تمهيد :

كما يستند القائلون بتطور الدين تبعاً للتطور الفكري والحضارى إلى عينات من الشعوب والقبائل البدائية يدللون بمعتقداتها على بدائية عقائد البدائيين وهمجية عقائد الهمج ، يستندون أيضاً إلى معتقدات دول الحضارات القديمة للتدليل على تحضر المعتقدات لدى المتحضرين من الأمم والشعوب، فينتهون إلى أن العقيدة الدينية تمر بأطوار تتوافق مع أطوار التحضر الإنساني، ويصير بالتالى أسر العقيدة أو الشريعة بوجه عام راجعاً إلى فكر الانسان وصناعاته .

فديانة الشمس مثلاً : ( لم تنتشر في الأطوار الاولى للعقائد لانها تستلزم درجة من الثقافة العلمية والادبية لا تيسر للهمج وأشباه الهمج في أقدم عصور التاريخ ، فلا بد قبل ذلك من نظرة فلكية عالية تحيط ببعض الأشياء بنظام الافلاك وعلاقة الشمس بالفصول ومواعيد السنين .

وتستدعى ديانة الشمس غير هذا أن يرتفع العقل البشرى بفكر الخلق من أفق الارض القريب إلى الآفاق العليا في السموات ، فتتسع دنياه وتعاظم فيها دواعى الحركة والسكون والحياة والموت ، ويقترّب من الاوج الذى يستوعب فيه الكون بنظرة شاملة ، ويلا تمس لها سدياً واحداً للحصول ، كما حصل بعد أن أصبح الكون كله فى حاجة إلى التعليل ، فإنه كان قبل ذلك يعمل حياته بهذه القوة أو تلك من العلل الكونية فإذا بالكون كله لا يستغنى عن تعليل مريح .

م ٩ - الإنسان

فديانة الشمس كانت الخطوة السابقة لخطوة التوحيد الصحيح ، لأنها أكبر ماتقع عليه العين . وتعلل به الخليقة والحياة ، فإذا دخلت هي أيضا في عداد المعلولات فقد أصبح الكون كله في حاجة إلى خالق موجد للأرض والسماء والكواكب والأفلاك ، وينطبق هذا التركيب تمام الانطباق على لغوى قصة إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم : فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي . فلما أفل قال ائن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم ائني برىء مما تشركون ، ائني وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض خفيها وما أنا من المشركين ، وحاجه قومه قال أتحاجونى فى الله وقد هدىنا ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئاً أو سمع ربى كل شئ . علما أفلاتنذكرون (١) ، ويعلق العقاد على ذلك فيقول : ولا تزال بداعة التوحيد من طريق تأليه الشمس مسألة تخمين لامسألة يقين فلحضارات القديمة فى الدول قد عمت الاقطار الشرقية بين مصر وبابل وفارس والهند منذ ثمانية آلاف سنة أو تزيد ، وكلها قد عبدت الشمس وميزتها بالعبادة فى دور من الادوار ، فأياها هى الامة السابقة إلى التوحيد . إلى أن يقول : وجملة القول أن أطوار العقيدة الإلهية تشعبت بين الناس فلم تطرد على مراحل متشابهة فى جميع الأمم ولا فى جميع الأزمان ، ولكننا إذا أحطنا بوجهتها العظمى وجدنا أن عقيدة الارواح لم تفارق أطوارها الاولى وأن عبادة الاسلاف اهتزجت بعقيدة الارواح ، ثم اتسعت نظرة الإنسان إلى دنياه حتى انفس لها علة فى السماء ، فكانت الشمس هى أكبر ما رآه وتوجه إليه بالعبادة ، ثم أصبحت الشمس رمزاً للخالق حين تجاوزها الإنسان بنظره إلى ما هو أعظم منها وأعلى ، فهى القنطرة الاخيرة بين العدوتين : عدوة النعديد وعدوة

التوحيد<sup>(١)</sup> .

\* \* \*

ويبدو أن القرآن في حديثه على لسان إبراهيم عليه السلام قد أوضح الفرق بين فكر الإنسان ووحى السماء ، بين امكانيات العقل البشرى مع الدافع الفطرى الباحث عن الإله المعبود أو الذى يجب أن يعبد ، وبين امكانيات الوحى التى يعتمد عليها فى الهدى إلى الصراط المستقيم .

فإمكانيات الفكر أو العقل الإنسانى لا تعدو المظاهر والمربيات إذا استقل بالعمل وحده اعتمد على وسائله المعروفة وهى السمع والبصر والحس كى توصله إلى الحقيقة الإلهية ، وهى وسائل عاجزة لا يمكنها أن تصل إلا إلى امكانياتهما من المظاهر والمحسوسات ، فكان كل تحصيلها فى ميدان العقيدة والالوهية ، فى حالة الاستقلال عن الوحى ، لا يعدو ذلك التحصيل الطبيعى المتطور ، تبعا لتطور الحالة الفكرية ، ولذلك خاطبهم إبراهيم عليه السلام وكأنه يقول لهم : لقد عجز فكركم عن الوصول إلى الحقيقة التى تطلبونها مدفوعين نحوها بالدافع الفطرى فقال لكم هذا الفكر إن النجم هو هذه الحقيقة — هو الإله — فلما تبين خطأه من أقول النجم وتغيره . والذى يأفل ويتغير عاجز عن البقاء عاجز عن أن يحافظ على حاله ، فلا بد له من مؤثر فيه ، كان القمر ، فكان حاله كذلك ، ثم كانت الشمس ، نهاية ما وصل إليه العقل الإنسانى حتى ذلك الحين ، وكلها تخضع للتغيير فمن يغيرها ؟

أما الوحى فانه ينبيه مدارك أخرى للقلب الإنسانى يمكنها أن تطمئن إلى حقائق تبعد عن الحس والمظاهر ، ويمكنها لا تبعد عن الإدراك القلبى ،

ذلك الإدراك الذى يتخذ وسائل أخرى بالاضافة إلى السمع والبصر والحس ، إنه ينبه حاسة الايمان . وحاسة الايمان فطرية موجودة ضمن مدركات القلب الانسانى أو العقل ولذلك قال لهم إبراهيم « لأن لم يهدنى ربى لا كون من القوم الضالين ، ووسيلة تنبيهها الوحى الذى يخاطب العقل حسب قدراته فالايان بغير تحكيم العقل لا يعدوا انسياقا وراء العادة أو التقليد أو الهوى .

فشل العقل فى محاولاته للوصول إلى حقيقة الالهية مدفوعاً بفطرته التى فطره الله عليها ، كمثل سفينة مجهزة بأحدث وسائل العمل والحركة المناسبة للوقت والمكان ولا تحتاج إلا إلى ربان يحدد لها الاتجاه الصحيح وشرط الربان عندئذ أن يكون على علم كامل وخبرة وإحاطة شاملين بكل ماتحتويه السفينة من عناصر وأجهزة وماتحتوى عليه من حمولة وأشياء وماتواجهه من أحوال وأماكن فضلا عن قدرة لا ريب فيها من ناحية الادارة والتوجيه . سواء كان على ظهر السفينة . أو كان يوجهها من خارجها بالوسائل العلمية .

فربان العقل المحيط الخبير القادر هو صانعه ومجهزه . وخالقه . والعليم بأسراره . فإذا وجهه كان ذلك التوجيه هو أصح التوجيهات بلا جدال من الناحية العلمية .

أما إذا تدخل فى توجيهه جاهل بأى جزئية من جزئيات العقل وقدراته ، وطاقاته بان أثر جهله فورا فى انحراف العقل عن الطريق المستقيم وإذا عجز العقل وحده عن الوصول إلى بر الايمان الصحيح ، لم يكن هذا دليلا على انعدام البر . ولا دليلا على انعدام الربان . إنما يكون دليلا على عجز سفينة العقل عن العمل مستقلة عن توجيه الربان الخبير العليم القادر .

وإذا كان الكيان المادى للإنسان أعجز من أن يتعرف على ما بداخله من أسرار . فكيف يستطيع أن ينصب نفسه ربانا لهذا الجهاز الدقيق .

لقد أراد إبراهيم عليه السلام أن يقول كل هذا من خلال عبارات القرآن المعجزة التي حكمت هذا على لسانه ، وانتهت إلى إسناد الحق لصاحبه فقالت ( وسع ربى كل شيء علما أفلا تتذكرون ) ،

فلما كان شأن العقل كذلك عاجز عن الوصول إلى بر الإيمان الصحيح من غير ربانه الخبير بأسراره العليم بتكوينه وقدراته وطاقاته . كان توجيه الربان الحكيم بين الحين والحين يتمثل في وحيه وإرساله الرسل . وكان تنبيهه لمدارك هذا العقل - ذلك الجهاز الدقيق - بما يتوافق مع قدراته وظروفه وأحواله فيتنوع ويختلف . إلا أنه يتفق في كشف قدرات هذا العقل ، ويبين أن هناك قدرة أقوى منه وأقدر على إعجازه . هي قدرة ربانه الخالق له . الذى سواه فأحسن تسويته . فهل يستطيع العلم أن يقول إن السفينة بحرية أو برية أو جوية يمكنها أن تعمل المطلوب منها بلا توجيه العالم الخبير المكلف بها . بلا ريب لا . .

وهذا شأن الوحي مع العقل . أو شأن العقل مع ربانه . إن استغنى السفين عن الربان ضل واختل . وإن أشرك معه غيره خسر وفشل . وإن أعطى قياده لغير العليم الخبير المحيط به . فسد واعوج .

❖ ❖ ❖

في ضوء هذا الادراك نضع معتقدات دول الحضارات القديمة موضع الدراسة . ذا كرين آراء الآخرين كمعادتنا مناقشين لها .

## الفصل الرابع

نقد نظرية تطور العقائد في ضوء  
معتقدات قدماء المصريين

- كيف نفسير وصول المصريين إلى التوحيد
- كيف نفسير عقيدة البعث والحساب لدى المصريين

## معتقدات قدماء المصريين

لا تعد مصر من أقدم أقطار الأرض حضارة ومدنية ، ويعد الإنسان المصري من أول أبناء الإنسانية الذين وصلوا إلى الاعتقاد بالإله الواحد ، والحساب في اليوم الآخر ويفسر هذا في ظل القول بتطور الاعتقاد تبعا لتطور الفكر الإنسانى والحضارة الإنسانية ، على أنه توافق طبيعى .

خاصة وأن تتبع التاريخ المصرى القديم يفيد أن أطوار الاعتقاد قد مرت بجميع المراحل من أسفلها إلى أعلاها ، كما يرى العقاد ، ويؤيد هذا الرأى بقوله :

( فشاعت فيها الطواطم في كلا الوجهين قبل اتحاد المملكة المصرية على يدهما ) وبعد هذا الاتحاد ، ويظن الكثيرون من علماء الأديان أن تقديس الصقر والنسر وابن آوى والقط والنسناس والجعل والتمساح وغير ذلك من فصائل الحيوان هى بقايا د طوطمية ، تحولت مع الزمان إلى رموز ، ثم فقدت معنى الرموز واندجعت في العبادات المترقية على شكل من الأشكال .

وشاعت فيها عقيدة الأرواح ، فكان المصريون من أعرق الأمم التى آمنّت بالبعث ، والثواب والعقاب بعد الموت ، ورمزوا للروح دكا ، تارة بزهرة ، وتارة بصورة طائر ذى وجه آدمى ، وتارة بتمساح أو ثعبان ؛ وقالوا إن الروح تشكل بجميع الأشكال ؛ ولكنهم لم يقولوا بتناسخ الأرواح ، ولعل اختلاف الرموز من بقايا اختلاف الطواطم في زمان سابق لزمان الاعتقاد بالبعث والثواب والعقاب .

أما اثبت العبادات وأعمها وأقواها وأبقاها إلى آخر العصور ، فهى



عبادة الموتى والأسلاف دون مراة ؛ فان عناية المصرى بتشبيد القبور وتحنيط الجثث وإحياء الذكريات لاتفوقها عناية شعب من الشعوب ، وقد بقيت آثار هذه العبادة إلى مابعد بزوغ الديانة الشمسية ، وتمثيل أوزيريس بالشمس الغاربة ، ثم تغلبه على عالم الخلود وموازنين الجزاء X

فقصة أوزيريس هى قصة آدمية تشير إلى واقعة قديمة مما كان يحدث فى الأسر المالكة فى تلك العصور المحيقة ، وهى قصة ملك أحبه شعبه ثم نازعه أخوه «ست» عرشه فقتله ، وجاءت زوجته «إيزيس» بعد ذلك بآبن سمته «حوريس» أخفته فى مكان قصى حتى بلغ الرشد ، فرشحته لليلك فساعده أنصار أبيه على بلوغ حقه فى العرش ؛ وعاد «ست» ينازعه هذا الحق أمام الآلهة ويدعى عليه أنه ابن غير شرعى من أب غير أوزيريس ، فلم تقبل الآلهة دعواه ، وحكمت لحوريس بالميراث .

وتقول الأسطورة . . إن إيزيس جمعت أعضاء أوزيريس التى فرقتها ست بين البقاع وتعهدتها بالصلوات والأسجار حتى دبت فيها الروح من جديد وحملت منه بحوريس الذى قدح عمه فى نسبه ؛ وقد حاول أوزيريس أن يعود إلى الملك فأخفق وقنع بالسيادة على عالم المغرب حيث تغيب الشمس وتندحر إلى عالم الأموات (١) .

ويبدو أن المصريين قد بذلوا الكثير من الجهد والمسال والوقت والفكر فى سبيل عقيدة عبادة الموتى والأسلاف ؛ والإيمان بالحياة بعد الموت وبالثواب والعقاب حيث كلفتهم تلك العقيدة أو هذا الإيمان أو كلاهما ، وضع الأدوات التى كانوا يستعملونها أثناء الحياة مع موتاهم عند دفنهم ، فاعتادوا على ذلك قبل أن يكون لهم ملوك أو ملكة بآلاف السنين ، ولذلك اضطرتهم هذه العادة أن يعتنوا بتشبيد القبور وتأنيثها على نحو خاص ، وأن

يحتاطوا في دفن موتاهم والأدوات التي يستعملونها في أماكن لا تنالها عوادي الزمن وفي ظروف لا تسمح للصوم بسرقة شيء من هذه الأدوات ، فتطور الاحتياط حسب التقدم الحضارى المصريين . منذ كانوا يسكنون وادى النيل ويعيشون كصيادين بدائيين ، ويدفنون موتاهم ومعهم أسلحتهم وأواني مأكلهم ومشربهم ، فلما تقدم الزمن وصار لهم ملوك وحضارة زاد ما كانوا يدفنونهم مع موتاهم ؛ فزادت عنايتهم واحتياطاتهم ، فبنوا المقابر الضخمة ووضعوا فيها الأثاث الجنائزى الكثير .

#### وضوح التدخل البشرى في هذه العقيدة :

على الرغم مما وصل إليه المصريون من إيمان بالبعث والحساب والثواب والعقاب . فإن العقل البشرى العاجز وحده عن الوصول إلى الحقيقة في هذه الشؤون قد ظهر تدخله وعجزه ، حينما استطاع المصرى أن يعتقد أن الموتي سيجيئون حياة أخرى في مكان بعيد عن القبر ، وبعيد عن الجسد الموسد فيه ، ولم يستطع أن يتصور عودة الجسد وإمكانية محاسبة الإنسان بعيداً عن جسده الأصيل الذى يدفن في القبر ، كما لم يستطع أن يتصور الخلود للوتى أو لأرواحهم دون أن يكون لجسدهم الأصيل وجود .

ولعل هذا يفسر سر حرص المصريين على سلامة أجسام موتاهم ودفن حاجاتهم معهم ، فكان تفننهم في المحافظة على الجسد الأصيل حتى وصل بهم الأمر إلى المشيدات الضخمة المبنية بالاحجار وعلى رأسها الأهرامات ، كما وصل بهم إلى تخييط الجثث وحفظها وإحاطتها بالأسرار السحرية التى لازالت تثير قلق علماء الآثار الغربيين ويسمونهم لعنة الفراعنة .

وللعلماء في تحليل هذه العقائد وآثارها آراء تتفق في كثير من الاصول وتختلف في قليل من التفاصيل إلا أنها تلتقى في توضيح التدخل البشرى في صنعها ويحسن أن نعرض بعض هذه الآراء على سبيل المثال .

١ - ما يقوله « جيمس هنرى برستد » ، في كتابه انتصار الحضارة  
ترجمة الدكتور أحمد نخري :

( لكي نفهم تلك العقيدة الخاصة بالحياة بعد الموت يجدر بنا أن نعود  
بذاكرتنا إلى الوقت الذي كان يعيش فيه الصيادون في العصر الحجري ،  
ونذكر كيف غيروا طريقة حياتهم ، وأصبحوا يزرعون الأرض ،  
ويحصلون منها على القوت ، فلا شك أن الزرع الأخضر الذي نبت من  
الأرض السوداء قد لفت نظرهم إلى التفكير في أصل الحياة - في اعتقاد  
المؤلف - وكان لهذا التغيير في حياتهم من صيادين إلى زارعين في الأرض  
أثره في عقيدتهم الدينية . ولم يكن هذا قاصراً على المصريين فحسب بل كان  
عاماً في شعوب بلاد الشرق الأدنى الذين اعتمدوا على الزراعة في حياتهم .  
وبدأوا منذ وقت مبكر يعتمدون في حياتهم على ثمرات الأرض ، وكان  
كفاحهم لأجل البقاء يدور حول تلك الزراعة وما تدمهم به من حاصلات ،  
وبث فيهم هذا الإحساس روح الاحترام والاعتراف بالجميل ، وأدخل على  
ديانتهم لوناً جديداً .

وهذه الروح الجديدة هي الأساس الذي تقوم عليه عقائد هندو أمريكا  
الشمالية . بل أنها في الواقع ما زالت ذات أثر كبير في ديانتنا حتى اليوم ،  
وقد ورثناها كإحدى النتائج الهامة لما طرأ على أفكار الناس من تغيير عندما  
تركوا حياة الصيد إلى الحياة الزراعية (١) ويواصل الكاتب تفصيل رأيه فيقول :  
رأى الزراع أن تلك الحبة التي بذرها نبتت واخضرت وأنت ثمارها ،

---

(١) يلاحظ أن الكاتب لم يحاول أن يبحث عن أصل آخر للأديان غير  
الفكر الإنساني وقد عمم اعتقاده على جميع الأديان بما فيها الأديان السماوية  
ومنفرد مكاناً لمناقشته وأمثاله بعد قليل إن شاء الله .

ثم زرع من تلك الثمار حبة أخرى فتكررت معجزة الحياة ، وفكر في تلك الحياة المتجددة التي لا يمكن أن تموت موتاً نهائياً ، وكان من الطبيعي أن يدخل في روعه الاعتقاد بأن هذا الشيء الحى الذى لا يموت يجب أن يكون إلهاً .

وسمى المصريون هذا الإله بأسم « أوزوريس » ، واعتقدوا أنه روح هذه الحياة الخضراء النابتة من الأرض . وكانوا يرون هذه النباتات المخضرة تذوى كل عام ، ويترامى لناظرها كأنها ماتت وفارقت الحياة ، ولكنها كانت تعود مرة أخرى إلى حياتها ونضرتها ، وانتشرت مثل هذه العقيدة على طوال الجانب الشرقى من البحر الأبيض المتوسط ، وامتدت إلى الخليج الفارسى ، وكان هذا الإله يسمى في غرب آسيا أحياناً بأسم تموز ، وأحياناً بأسم « أدونيس » ، كما كانت له أسماء أخرى تختلف من بلد إلى آخر ، لذلك نرى في قصة « أوزوريس » ، أحب الآلهة إلى قلوب المصريين القدماء أنه عاش ثم يموت بعد الموت ، وهذا هو ما حدث لجميع الآلهة المحلية في غرب آسيا وبخاصة في سوريا وفلسطين وآشور وبابل .

ولم ينس المصريون هذه الصلة القديمة التي تجمع بينهم وبين آسيا في العقيدة فنقرأ في أسطورة « أوزوريس » ، أنه مات ثم سبج جسده حتى استقر أخيراً في جبل ( مدينة بيبلوس Byblos القديمة وتقع على الشاطئ الشمال مدينة بيروت الحالية ) على الشاطئ الفينيقي حيث عادت إليه الحياة فأصبح شجرة خضراء وعاش مرة أخرى .

وكانوا يرمزون في غرب آسيا للحياة المتجددة بشجرة ، وكانوا يقيمون في كل عام احتفالاً كبيراً ينصبون فيه شجرة ويزرعونها ثم يزينوها ويكسونها بالإوراق الخضراء ، وورث الغربيون هذه العادة ، وما زالوا يحتفلون بها عندما يقيمون عهود شهر مايو Maypo:ه الذى ينصبونه ويزينونه و يقيمون المآدب ، ويرقصون حوله احتفاءً بعودة الربيع .

وكان الناس يقصدون من هذا العيد أن يعبروا عن شعورهم نحو اعتمادهم على تجديد الأرض للحياة ، وذلك التجديد الذى أمدهم بالقوت الذى يحصلون عليه من حقول الحبوب ، وبعبارة أخرى كان مظهرا دينيا لاعتراف الناس بفضل الزراعة عليهم .

ولم يكن لهذا الاعتقاد تأثير يقود الناس إلى الإيمان بحياة ينعمون بها بعد الموت فى العالم الآخر . أما فى مصر فإنهم فضلوا أن يؤمنوا بأن أوزيريس لم يكن القوة التى تهدم بالحياة وتعطيهم القوت فى هذه الدنيا فحسب ، بل أنه كان يغنى بهم أيضاً الحياة الأخرى فيعيشون سعداء عندما يأتى اليوم الذى يموتون فيه ، وتستقر أجسادهم فى القبور التى يدفنون فيها على حافة الصحراء .

آمن الناس إيماناً قوياً بأن عقيدتهم فى أوزيريس تيسر لهم حياة مباركة فى العالم الآخر ، وكانوا يرون فى هذا الإله رمزا للموت ثم الحياة مرة أخرى ، وكانوا يرمزون له بشجرة فى بعض الأحيان ، وفى الوقت ذاته كان يرى فيه بعض المصريين أنه هو الأرض السوداء التى تخرج منها الحياة المخضرة ، ويرسمون سنابل الحب وهى تنبت من جسده ، ورأى البعض أن الأرض لا يمكن أن تؤتى ثمارها إلا إذا روتها مياه النيل ، فاعتقدوا أن أوزيريس هو النيل ، وهكذا اعتقد المصريون أن نهرهم العظيم وأرضهم الخصبة التى تروىها مياهه ، والحياة المخضرة التى تزدهر بسببه ليست إلا شيئاً واحداً هى إله واحد هو أوزيريس الذى كانوا يرون فيه رمزا للحياة الأرض التى لا تنفى .

واعتقد المصريون فى آلهة كثيرة ، ولكنهم آثروا عبادة اثنين كان لهم السبق على جميع الآلهة الأخرى ، أحدهما أوزيريس الذى لم يقهره الموت ، والآخر هو الشمس التى تهر البصر بضياءها فى سماء مصر الصافية ، هذا هو

الإله «رع» ، الذى كان أعظم الآلهة المصرية كإله للأحياء ، والذى أقام المصريون لعبادته أضخم معابدهم . ولم يكن الهرم إلا رمزاً مقدساً له .

رمز المصريون للكثير من آلهتهم ببعض الحيوانات ، وقد سبب ذلك وقوع بعض الناس فى الخطأ ، فنسبوا إلى المصريين أنهم عبدوا الحيوانات ولكن الحقيقة أن ذلك لم يكن فى أصل ديانتهم وإنما دخل عليهم فى أيام اضطهادهم ، وفى بعض الوقت الذى بدأت فيه ديانتهم فى الاحتضار فى العصر الرومانى . كما كان كل من قرص الشمس المجنح والهرم رمزاً لإله الشمس (١) .

يرجع «برستد» عقيدة الحياة بعد الموت عند المصريين إلى الفكر المصرى الذى تأثر ببيئته الزراعية ، وطبيعة الأرض من حوله ، ويرى المكاتب أيضاً أنه كما تأثر اعتقاد المصريين بالبيئة والطبيعة ، أثر هذا الاعتقاد فى المصريين أنفسهم فجعلهم يفضلون أن يؤمنوا بأن أوزيريس سيعنى بهم فى الحياة الأخرى ف يعيشون سعداء كما عنى بهم فى الدنيا ، وميسر لهم حياة مباركة فى العالم الآخر .

كما تطور هذا الاعتقاد وتطورت آثاره بحيث انتقل من التعدد باعتقاد المصريين فى آلهة كثيرة إلى إشار عبادة اثنين أحدهما أوزيريس والآخر هو الشمس (رع) وكانت رموز المصريين الكثيرة من الحيوانات لآلهتهم سبباً فى الظن بأن المصريين عبدوا الحيوانات .

وقد عزم المؤلف تأثير البيئة على الفكر الإنسانى والاعتقاد الدينى ، وسحب هذا التعميم وهذا التأثير على الأديان السماوية ، غير مفرق بين مافعله البشر ، وما أوحى به السماء .

٣ - ما يورده العقاد في مؤلفه « الله ، فيقول :

( وللنصب شأن لا يستعرب في ديانة مصر القديمة ، فهم يرمزون إلى الكون كله ببقرة تطلع من بطنها النجوم ، أو بأمرأة تنحني على الأرض بذراعيها ، ويسندها « شو » إله الهواء بكليتي يديه ، وأقدم ما تخيلوه في أصل العالم المعمور أنه عيلم واسع من الماء طفت عليه بيضة عظيمة خرج منها رب الشمس ، وأنجب أربعة من الأبناء هم « شو » و « يفنوت » ، القائمان بالفضاء و « جب » رب الأرض ، و « توت » رب السماء ، ثم تزوجت السماء والأرض فولد لهما أوزيريس وإيزيس وست ونفتيس ، فهم تسعة آلهة في مبدأ الخليقة ، نشأوا من تزواج الأرض والسماء ، ثم استقر الأمر لثلاثه من هؤلاء هم أوزيريس وإيزيس وحورس ، وهناك صيغة أخرى من قصة الخلق فخواها أن « رع » نفسه إله الشمس كان ملكا على مصر في زمن من الأزمان ، ويستدلون على ذلك بخلاصة قصته المتداولة في الأساطير وهي أن رع ملك الدنيا قبل سكانها من البشر فتمرد عليه رعاياه فصلط عليهم ربة النعمة « حاتور » ثم أشفق عليهم من قسرتها فاعتزل الدنيا وحملته بقررة السماء على ظهرها ، فأقام هناك واندبج شخصه بعد حين بشخص أوزيريس .

وقد فعل غربال الزمن فعله في تصفية هذه العقائد والأرباب ، فنسى أوزيريس السلف المعبود ، ورسخ في الأذهان وصف أوزيريس الشمس القائمة على المغرب أو عالم الأموات ، وتوحدت عبادة الشمس بمعناها وتعددت بأسمائها ومواعيدها . وجمعت بينها كلها عبادة « آمون » ثم عبادة « أتون » .

وعبادة « أتون » هي أرقى ما وصل إليه البشر من عبادات التوحيد في القرن الرابع عشر قبل الميلاد .

فلم يكن المراد بأتون قرص الشمس ولا نورها المحسوس بالعيون ، ولكن الشمس نفسها كانت رمزا محسوسا للإله الواحد الأحد المتفرد بالخلق في الأرض والسماء . . . وإنما جاء هذا التطور بعد تمهيدات دينية وسياسية تهيأت لمصر ولم تنهيا لغيرها من الدول الكبرى في تلك الفترة . . . فكانت في أقاليم القصر قبل ظهور عبادة أتون ثلاث عبادات شمسية ، تتنافس في المبادئ الروحية ووسائل النفوذ التي تتغلب بها على النظراء .

فكانت منف تدين لإله الشمس باسم فتاح . . . وكانت عين شمس أو « هليوبوليس » تدين له باسم رع ، وأحيانا باسم « أتوم » ، وكانت طيبة تدين له باسم ( أمون )

... ويرى المؤرخ الكبير ( برستيد ) أن عقيدة ( فتاح ) هي أساس مذهب الخلق بالكلمة Logos عند الأغريق الأقدمين ، فلاحاجة بالخلق إلى أداة للخلق غير أن يشاء ويأمر فإذا بما شاء موجود كما شاء - لما أضنى على فتاح من تنزيه وتعظيم وقوة الكلمة - ومن المحتمل جداً أن كهان تلك العصور تدرجوا إلى فهم قوة الكلمة الإلهية من فهمهم لقوة الكلمة على لسان الساحر ، وقوة الكلمة على لسان المبتهل بالصلاة .

ونسج كهان عين شمس على منوال كهان منف في تنزيه رع وتجريده من ملائسات الحس والتجسيد ، ولا سيما بعد تفرغهم للعبادة الروحية وإنصرافهم إليها ، كما تعاظم سلطان الكهان في طيبة وتفاقت سيطرتهم على مناصب الدولة ، وهم كهان آمون .

وقد توطدت كهانة آمون بتوطد أركان المملكة الوسطى ، وبلغت أوجها بعد عهد تحوتمس الثالث أكبر ملوك الأسرة الثمانية عشرة . . . فكان اتساع الأفق في السياسة مقترنا باتساع الأفق في تصور العالم وما ينبغي لحاqqه من التعظيم والتنزيه ، فارتقى الفكر الإنساني في هذا العهد من البيئة المحلية إلى بيئة عالمية ، ثم إلى بيئة أبدية تنطوي فيها أبعاد المسكان والزمان ،



وطغى نفوذ السكهان الأمونيين على كل نفوذ في البلاد من جراء هذه القربى بينهم وبين الملك العظيم ، فاستأثر رئيسهم بلقب « الرئيس » ، في أنحاء الديار ، وضيقوا الخناق على كهان رع وفتاح . . . ثم طمعوا في نفوذ الملك بعد اطمئنانهم إلى نفوذ الدين . .

ومن هنا خطر للملوك خاطر الخلاص من هذا النفوذ ، فتكلم أمنحتب الثالث عن آمون . . باسم آخر : هو أسم « آتون » .

ومساعد على هذا التبديل الطفيف أن صفات الإله في أذهان المصريين كانت أقرب إلى صفاته عند كهان منف وعين شمس ، وأن مسالك السكهان الديويين من شيعة آمون لم تكن وفق الآداب والعادات التي استلزمها ارتقاء المصريين في فهم كمال الإله .

فلما تولى الملك أمنحتب الرابع أو اخناتون كما تسمى بعد ذلك كان التمهيد للعبادة الجديدة قد بلغ مداه ، وكان اتساع الأفق في النظر إلى الدنيا والنظر إلى صفات خالقها قد وسع له المجال للابتكار والتجديد وأعان عبقريته على التدعيم بعد التمهيد .

. . . فقمع الأمونيين قمعاً شديداً ، وحل اسم آمون من كل مكان بلا استثناء ، وجهر بعبادة « آتون » دون سواه . . . وألغى جميع الأرباب وأعوانهم من الأرواح والجنة وأولهم الرب القديم أوزوريس .

\*\*\*

إلى هنا يبدو ما أورده العقاد في مؤلفه « الله » ، متفقاً في تحليل تطور العقيدة لدى المصريين بالبيئة وآثارها وإن أعطى السياسة فاعلية أكثر في بعض الأحيان ؛ واهتم بتفصيل كثير من شؤونها في مرحلة ما قبل التوحيد

حتى كان الوصول إليه على النحو المذكور ( وسنفرد لعقيدة التوحيد مكاناً خاصاً لنمطها ما تستحقه من بحث وتمحيص ودراسة ) .

\* \* \*

٣ - ما أورده عبد القادر حمزة في كتابه الذى أصدرته مطابع الشعب بعنوان على هامش التاريخ المصرى القديم مجيباً على الأسئلة التالية :

(أ) هل كان المصريون يعتقدون أن للإنسان روحاً ؟ وهل كانوا يعتقدون أن هذا الروح لا يموت بموت الجسم ؟

(ب) وهل كانوا يرتبون على ذلك أن الانسان يحيا بعد موته حياة أخرى يحاسب فيها على أعماله فى الحياة الدنيا ، وتوزن فيها حسناته وسيئاته ، فمن رجحت حسناته استحق الثواب ، ومن رجحت سيئاته استحق العقاب ؟

( ح ) وماذا كانوا يفهمون الثواب والعقاب ؟ وكيف كانوا يتخيلون دار النعيم فى الحياة الأخرى للأتقياء الصالحين ، ودار العذاب للأشرار المفسدين ؟

( د ) وهل عرفت أمة أخرى من الأمم ما عرفه المصريون من ذلك كله فى الوقت الذى عرفوه فيه ، أم كانوا هم الذين سبقوا الأمم كلها إليه ؟

وقد أجب على السؤال (أ) بالإيجاب وذهب يبحث عما إذا كانوا قد رتبوا على هذا الاعتقاد نتيجة الضرورية . فرتبوا على بقاء الروح حياة أخرى يحياها الإنسان بعد موته ، وفيها يحاسب على أعماله فى دنياه فيشأب على الحسنات ويعاقب على السيئات وخرج من هذا البحث بالإجابة على السؤال ( ب ) بالإيجاب أيضاً معددا الأدلة والأسانيد إلى أن يقول : ويحسن هنا

أن نعرف كيف كان تأثير هذه العقيدة في نفوس المصريين ؟ ( وهذا ما بهمننا ذكره في هذا المجال ) يقول بجيأ . على ذلك : « فلنستعرض شيئاً مما كتبوه في ذلك في قبورهم ، تعريفاً بأشخاصهم وبسلوكهم في الحياة .

ففي عصر الأسرتين الخامسة والسادسة (١) أى في الوقت الذي كانت تنقش فيه نصوص الأهرام ، نقش أحد الأعيان على لوحة حجرية نصبها لنفسه :

« لم أسيء إلى أحد في حياتي لأتني أريد أن تسير الأمور كلها سيراً حسناً حينما أكون أمام الإله الكبير ، ، إنه يريد أن تجد محكمة أوزيريس أنه لم يذنب فتجعل الثواب نصيبه .

وكتب حاكم إقليم من أقاليم الوجه القبلي يقول :

« أطعمت الجائعين ، وكسوت العارين ، ولم أمس قط شيئاً لغيري بحيث لم يشكني أحد قط إلى مدينتي . . ولم يحدث في عهدي أن شكاً أحد إلى الآلهة من اعتداء قوى عليه ، .

وكتب حاكم لإقليم أسيوط يقول :

« كانت عندي غلال وافرة ، فلما حلت بالبلاد المجاعة ، وزعت منها على المدينة مكاييل مكاييل ، وسمحت لكل إنسان بأن يأخذ غلالاً من عندي ، وأعطيت الزوجة والأرملة والولد ، وأعفيت الأهل من جميع الضرائب المتأخرة عليهم والتي كان آباءى قد سجلوها في دفاترهم ، .

---

(١) الأسرة الخامسة حكمت من نحو سنة ٢٦٨٠ إلى نحو ٢٥٤٩ قبل الميلاد والأسرة السادسة حكمت من نحو ٢٥٥٠ إلى نحو ٢٣٦٠ ق - م ( المؤلف عبد القادر حمزة ص ٥٤ ) .

وكتب حاكم لاقليم أدفو يسمى « يبي نيفر » قصة حياته فذكر أن أباه أرسله إلى بلاط الملك « يبي الاول » ليتربى فيه مع أبناء حكام الاقاليم ، ثم عينه الملك مرنوع ( هو أحد ملوك الاسرة السادسة ) أميناً لمحصولات الوجه القبلى ثم مديراً للمعابد فى إقليم أدفو ، وبعد ذلك أخذ « يبي نيفر » يصف أعماله فى مناصبه وسلوكه فى حياته الشخصية فقال :

« من منتجات هذا الاقليم ( أدفو ) أطعمت الجائع ، وكسرت العارى ووزعت أقذاح اللبن ، ومن غلال الاوقات الابدية ( هى الاملاك التى كانت محبوسة على المعابد والآلهة وغير ذلك من الاغراض الدينية ) أعطيت الجائع وأصلحت شأن كل رجل وجدته عائشاً من غلال غيره ، وجهزت لدفن كل ميت ليس له ولد . . وقد أنقذت الفقير من يد الغنى وأصلحت بين الاخوة المتنازعين ، .

كل هذا فى عهد الاسرتين الخامسة والسادسة :

ثم يطوى المؤلف هذا العهد وينتقل إلى عهد الاسرة الثانية عشر ( من سنة ٢٠٠٠ إلى سنة ١٧٨٨ قبل الميلاد ) فيقول :

فى عهد الملك أمنمحت الاول كان حاكم الاقليم السادس عشر ( حيث توجد الآن قبور بنى حسن فى مديرية المنيا ) أميراً يسمى أمينى ، وقد حدثنا هذا الحاكم فقال : إنه كان قائداً لجيش هذا الاقليم ، ثم قائداً لحملة حاربت فى النوبة ، ثم لما عاد عين حاكماً للإقليم ، وحينئذ أخذ يحدثنا عن سيرته فى محكوميه فقال :

« بينما كان الإقليم كله فى حركة دائبة تدر الخير العميم ، وبينما كان زمام السلطة فى يدي ، لم أعتد على بذت من بنات الشعب ، ولم أضطهد أرملة ولم أرد زارعاً ، ولم أحبس راعياً ، ولم يقع قط أن أجبرت عمالاً على أن يتركوا عمل سيدهم ليعملوا عندي .

لم يوجد في زمنى بآنس ولا جانع ، وقد كسنت في سنى الجذب أحرث  
جميع أرض الإقليم إلى حدوده الجنوبية والشمالية ، وأحرص على أن  
أجعل أهله يعيشون ، وأسعى في إيجاد العيش لهم حتى لم يوجد جانع .

وقد أعطيت الأرملة كما أعطيت المرأة المتزوجة ، ولم أحاب كبيراً  
لأظلم صغيراً في كل ما أعطيته ، وفي السنين التي كان النيل فيها يأتي عالياً  
فيحمل للناس المحصولات والغنى ، لم أطلب بالمتأخرات من الضرائب ، .

ثم يعلق الكاتب على ذلك بكلام له ولغيره تذكر منه قوله :

والذى لم يبق فيه ريب بعد هذه الشواهد هو أن المجتمع المصرى كان  
يدين بعقيدة الحساب بعد الموت ؛ ويدين بأن من وراء هذا الحساب  
ثواباً وعقاباً

وكان يتأثر بهذه العقيدة إلى حد بعيد ، وفى ذلك يقول برستيد :

« إن هذا الفهم لقواعد السلوك يبلغ من السمو حداً بعيداً ؛ وهو أول  
أبراز للفكرة القائلة بأن مصيرنا فى الحياة الأخرى متوقف على أعمالنا  
فى الحياة الدنيا .. وبمجموع هذا النظام القائم على الحساب بعد الموت يستحق  
أن ينوه به لانه يسبق بألف سنة كل فكرة من هذا النوع عند أية أمة من  
الأمم الأخرى ، فقد كان البابليون والإسراييليون فى الوقت الذى اهتدى  
فيه المصريون إلى هذه العقيدة ، ينزلون جميع الامرات فى مكان مظلم  
لاتفريق فيه من أحسنوا ومن أساءوا ، (١) .

(١) وقد سبق أن عرضنا تعليل برستيد لظهور هذه العقائد فى حياة المصريين  
وتطورها فإذا كان المؤلف قد انتهى إلى ما انتهى إليه برستيد دون تصويب  
أو تغيير يصبح معتقداً لآرائه واتجاهاته فى تطور المعتقدات تبعاً للتطور  
الفكرى والحضارى وتأثير البيئة لتكون كلها صناعة إنسانية فى الاصل  
وفى التطور .

ثم ينتقل إلى جانب آخر من جوانب البحث ليجيب على السؤال ( ج )  
فيستدل بنصوص تصور دار النعيم المثابين الذين يصعدون إلى السماء  
ويقومون في جزر فيها حقل يسمى حقل الطعام ، ومن هذا الحقل يتناول  
الممجدون أطعمة شبيهة بغيرها تتجدد ولا تنفذ . وهناك حقول أخرى  
يجالس فيها الآلهة ، يجالسون الممجدين تحتها ويأكلون منها معاً .

وليس هذا كله مافي النعيم السماوى ، بل فيه إلى جانب ذلك أن السماء  
( نوت ) والشعبان الذى يحمى الشمس يعطيان الصاعد إلى السماء حين وصوله  
إليها نديهما ليرضع منهما ، فتى رضع عاد صدياً . . ؟

هذا ماتقوله نصوص الأهرام أما كتاب الموتى فيذكر من مظاهر الثواب  
أن الميت يجلس فى قاعة أمام أوزيريس ويخرج إلى حقل بارو أو بالو  
( على خلاف فى اللفظ ) ويأكل خبزاً أو فطائر ، ويكون له حقل من القمح  
والشعير يبلغ علو النبات فيه سبعة أذرع ، وخدام حوريس يحصدون له  
هذا الزرع لياً كل منه ، وله أن يدخل العالم السفلى ويخرج منه ، وله أن  
يقم فى حقل يارو أوفى حقل الطعام ، وفيهما يكون ممجداً يزرع ويحصد  
وتكون له نساء يتمتع بهن ، ويعمل كل ما كان يعمل على الأرض .

وقد ترك بعض المصريين كتابات عبروا فيها عما يتمنونه من أنواع  
السعادة الآخروية . . . ويلاحظ أنها تميل فى كثير من جوانبها إلى جعل  
الجنة على مثال السعادة التى يتمناها المصرى لنفسه فى الدنيا .

كحقل الطعام ذو الاطعمة الشبيهة التى تتجدد ولا تنفذ ، وشجرة الجيز التى  
تسمى شجرة الحياة ، والخبز والفطائر ، وحقل القمح والشعير الذى يبلغ  
علو النبات فيه سبعة أذرع . الخ .

أما العقاب فمن صورته ، الوحش الذى له رأس تمساح وجسم أسد يلتهم المذنب ، والنار التى يلقى فيها ، أو يبقى المذنب فى قبره فريسة للجوع والعطش ، محروهاً من رؤية الشمس ، وفى بعض الأحيان يكون مع القضاة الأثنين والأربعين الذين يجلسون مع أوزيريس فى محكمة ومعهم سيوف يضربون بها المذنبين .

أو يكون العذاب بتركيز محور باب على عينه ، وهذا الباب يفتح ويقفل والميت يصبح من الألم كلما فتح أو أقفل ، أو بتعليق طعام فوق رؤوس المعذبين ، وهؤلاء المعذبون يقفزون ليحاولوا الوصول إليه فيبعد عنهم . . .

\* \* \*

ويعلق على هذه الإجابة بقوله :

وهنا نقف لحظة لنشرف على هذا المجهود الجبار الذى بذله المصريون فى القول بخلاص الروح وبالثواب والعقاب بعد الموت ، فلا يسعنا ( أى الكاتب ) إلا أن نعترف بأنه مجهود جبار خطأ بالإنسان خطوة واسعة فى سبيل تهذيب النفس ، ووضع المعاملات والأخلاق على أساس من التقوى والخوف من الله ، فى وقت كان الإنسان فيه لا يزال قريشاً من الحياة الوحشية .

نعم هو مجهود جبار — فى نظره — والعلماء الأجانب كلهم يعترفون به ، ويقدرّون فضل مصر فيه <sup>(١)</sup> .

---

(١) يلاحظ أن صاحب كتاب على هامش التاريخ المصرى القديم يواصل تأييد وجهة نظره المبنية مع وجهة نظر برستيد وغيره من الأجانب الذين يستندون إلى هذه الأشياء ويستدلون بها على أن الإنسان هو —

ولكن هل كان ممكناً أن يسلم هذا المجهود من نقص يعلق به إلى ن  
يمحصه الزمن قيسقط ويبقى الجوهر سليماً ؟

يجيب صاحب كتاب د على هامش التاريخ المصرى القديم ، على  
ذلك قائلاً :

ليس من سنن الأشياء أن تخلص الحقائق الكبيرة للإنسان من غير أن  
يتدش فى سبيل البحث عنها .

بل التعثر هو السنة الطبيعية ، وقد جرت هذه السنة على المصريين ،  
فقام فيهم قوم يقولون : إن الصيغ السحرية تستطيع أن تجنب الميت جميع  
المخاوف التى يستهدف بها بعد مماته ، وتستطيع أن تؤتیه الحكم بالبراءة  
من محكمة أوزيريس مهما تكن ذنوبه ، ، وتستطيع أخيراً أن تعطيه النعيم  
الخالد ولو كان لا يستحقه ، وكانت الأمم كلها فى ذلك الوقت تؤمن بالسحر  
وتكاد تراه فى كل شيء وكانت تجعل للتساحر قدرة على تسخير  
الآلهة لإرادته .

ولكن الكتاب ينبه فى بحثه إلى أن السحر لم يعطل القوة التهذيبية لعقيدة  
الحساب ، ولم يؤثر فى نفوس الشواذ الذين يميلون إلى الشر وهم موجودون  
فى كل زمان .

أما السؤال (د) فلا حاجة لنا بالإجابة عليه بالتفصيل الآن وقد  
عرفنا الإجابة الإجمالية ، وهى أن أحداً لم يتسبق المصريين إلى عقيدة  
الحساب والروح (١) د فى نظر المؤلف ومن سار سيره .

— الذى اخترع الدين والمعتقدات ولذلك يعدون هذه الجهود الإنسانية  
أصلاً ونهاية جهوداً جبارة وسنناقش كل هذه الآراء جملة بعد الانتهاء  
من عرضها .



وهكذا يرى الكاتب أن المصريين سبقوا أمم الأرض إلى عقيدة الحساب والإيمان باليوم الآخر ، ويعمل ذلك بالمجمود الجبار الذى بذله المصريون فى سبيل تهذيب النفس ، ووضع المعاملات والأخلاق على أساس من التقوى والخوف من الإله ، فكان لهذا أثره الكبير فى تفكير وسلوك الإنسان المصرى ، فيما عدا شواذ الناس الذين حاولوا هدم هذه القواعد بعلم السحر الذى برعوا فيه .

٤ — أما هنريك فان لون فى كتابه قصة الجنس البشرى فيمهد لمعتقدات المصريين المتطورة بقصة التطور العضوى رابطاً بين الإثنين فى صراحة ووضوح قائلًا :

« سأقص عليك كيف مهد المسرح لنشأة الإنسان معتمداً على أصدق الروايات (١) . . لهد كان الإنسان آخر من وقد على الأرض من المخلوقات ولكنه كان أول من استعمل عقله فى التغلب على قوى الطبيعة . .

فى البدء كان الكوكب الذى نعيش عليه ، فيما بلغ إليه علمنا كرة ملتهبة ، أو قل غمامة من الدخان (٢) تسبح فى محيط الفضاء الذى لايتناهى ، ثم احترق سطح هذا الكوكب خلال ملايين من السنين حتى همد وغطته طبقة رقيقة من الصخور ، وانهمر المطر على هذه الصخور الجذباء مسيراً لا تنقطع ، أخذت ترى أحجار الجرانيت حاملة معها الغرين إلى الأودية

(١) ، (٢) واضح أنه اختار رواية من الروايات المختلفة يصفها بأنها أصدق الروايات من وجهه نظره طبعا وهذه بداية تدل على افتقار المنهج العلمى مع ادعائهم أنهم يسرون على المنهج العلمى ، فشان المنهج العلمى أن يتخذ من العناصر لبعده ما هو معلوم ومتيقن من صدقه . لا المرجح صدقه من وجهة نظر خاصة ولا المشكوك فى صدقه كما فعل هذا الكاتب وغيره كما سبق بيانه .

الكامنة بين الصخور الشاهقة القائمة على الأرض التي كان البخار لا يزال يتصاعد منها .

وأخيراً حانت ساعة بزوغ الشمس من خلال السحب ، فظلمت على هذا الكوكب الصغير ، فإذا هو مغطى بقليل من برك موحلة قدر لها أن تتطور فيما بعد ، فتستحيل إلى المحيطات المترامية الأطراف في مشارق الأرض ومغاربها .

ثم وقعت في يوم من الأيام عجيبة العجائب ، ، فانبعثت الحياة مما كان ميتاً وطفئت الخلية الحية الأولى فوق مياه البحر ، وظلت هذه الخلية ملايين السنين يتقاذفها التيار على غير هدى ، ولكنها كانت خلال ذلك العهد الطويل تكسب صفات خاصة من شأنها أن تيسر لها سبيل البقاء على هذه الأرض ،

وكان بعض هذه الخلايا أسعد حالا في أعماق البحيرات والبرك المظلمة فقد تأصل هذا البعض في الرواسب الغرينية التي انحطت من أعلى الهضاب ، ثم أصبح نباتاً ، وآثر بعضها التنقل من مكان إلى آخر فذمت له أرجل عجيبة ذات مفاصل أشبه بأرجل العقارب ، وأخذ يدب هنا وهناك على طول قاع البحر بين النباتات والكائنات الخضراء الباهتة . . ثم أخذت هذه الكائنات على مر الأيام تعمير المحيطات بعشرات الآلاف من الأسماك . وكانت النباتات في ذلك الوقت قد ربت وتكاثرت فلم تجد بداً من أن تبحث عن أما كن أخرى تستوطنها ، ولم يجد قاع البحر يتسع لها جميعاً ، فتركت البحر كارهة واتخذت لها موطن جديدة في المستنقعات وعلى الجسور الموحلة في سفوح الجبال . .

وقضت قروناً طويلة في محاولات التواء واختيار الأحسن حتى كانت الأشجار التي عرفت آخر الأمر كيف تفتح عن زهر . . يجذب النحل والطيور . .

على أن بعض الأسماك بدأ يغادر البحر ، وتعلم كيف يتنفس برئتيه ، فـكانت الحيوانات البرمائية كالضفادع ، وأخذت هذه الحيوانات تهيم نفسها شيئاً فشيئاً للحياة على اليابسة ، فكانت الزواحف والحشرات ، ثم المخلوقات هائلة الجثة ، ثم انقرضت الزواحف بعد أن عمرت مليوناً من السنين ، ثم سكن العالم كائنات أخرى تختلف عن الزواحف ، كانت مخلوقات انحدرت من هذه الزواحف ولكنها كانت بعيدة الشبه منها أطلق عليها العلم الحديث « الندييات » . . . إلى أن يقول وتستطيع أن ترى من أبناء عمومك حيوانات لم تألفها الفك بغيرها ، قابعة وراء القضبان في حديقة الحيوان .

ثم ينتهي إلى أنه لاهو ولا غيره يعرفون إلا النزر اليسير عن الإنسان الحقيقي الأول ، ومع هذا يرجح أن يكون الإنسان قد تطور من حيوان آخر مجهول . . لكنه يعترف بأن معلوماته التي وصل إليها أو وصلت إليه من خلال البعوث التاريخية والتنقيبات الأثرية أقل من الكفاية سريراً بالنسبة له هو شخصياً أو بالنسبة لغيره ، أما الباقي فهو في طي المجهول ، إلى آخر هذا الكلام الذي لا يمكن أعماده علمياً ، ولا يصح الارتكان إليه بصفة نهائية مسلمة ، كما أشرنا إلى ذلك وناقشناه من قبل .

لكن الذي يلفت نظرنا ، ويهم بحثنا هو استمرار الكتاب في تتبع هذا المجهول حتى يصل إلى قصة مصر ، ويكتشف من خلالها الظواهر الدينية ، معتمداً على التاريخ والآثار فيقول :

« كان الإنسان فيما قبل التاريخ مضطراً إلى إنفاق ست عشرة ساعة كل يوم سعياً وراء طعامه وطعام أسرته ، أما الفلاح المصري وساكن المدن المصرية ، فقد كان لدهما فراغ ينفقانه في صنع أشياء كثيرة .. ولم يقتصر الأمر على هذا فقد اكتشف المصري في يوم من الأيام أن عقله يستطيع أن يسلك جميع ضروب التفكير التي لاتصل بمسائل الطعام والنوم والمأوى

« بسبب وجود النيل ، فبدأ يتدبر .. ويتسأل : من أين أنت العجوز ؟  
ومن ذا الذى صنع الرعد الذى كان يفزعه أشد الفزع ؟ ومن ذا الذى جعل  
النيل يفيض فى مواسم معينة .

سأل المصريون هذه الأسئلة الكثيرة ، وتصدى بعض الناس عن طيب  
خاطر للإجابة عنها بقدر ما يستطيعون ، وقد سمى المصريون « الكهنة » ،  
وأصبح هؤلاء هدايتهم .

ثم ينتهى الكاتب إلى أن عقيدة المصريين نشأت وتطورت بالتدريج  
حتى عرف المصريون اليوم متأثرين فى ذلك بالبيئة ومحتوياتها كالنيل  
وغيره .. إلخ ، (١) .

٥ — ويعالج د ول ديورانت ، فى مؤلفه قصة الحضارة ج ٢ ص ١٥٥  
وما بعدها ، يعالج معتقدات المصريين القدماء على نحو لا يختلف كثيراً عما  
سبق عرضه ، إلا أنه يتردد فى نهاية معالجته لقضية الألوهية والتوحيد لدى  
المصريين ترددأ يفتح مجالاً جديداً أمام الباحثين .

ويلخص مذهبه هذا بقوله :

لقد كان الدين فى مصر من فوق كل شىء ومن أسفل منه ، فنحن نراه  
فى كل مرحلة من مراحلها ، وفى كل شكل من أشكاله ، من الطوطم إلى  
علم اللاهوت ، ونرى أثره فى الأدب وفى نظام الحكم ، وفى الفن ، وفى كل  
شئ فضلاً عن الأخلاق ، وليس هو مختلف الصور والأنواع فحسب ، بل هو  
أيضاً غزير موفور ، ولستأ نجد فى بلد من البلاد ، إذا استثنينا بلاد الرومان  
والهند . ما نجده من الآلهة الكثيرة فى مصر .

يقول المصري : إن بداية الخلق هي السماء ، وقد ظلت هي والنيل أكبر أربابه إلى آخر أيامه ، ولم تكن الأجرام السماوية العجيبة في اعتقاده مجرد أجرام ، بل كانت هي الصور الخارجية لأرواح عظيمة ، لآلهة ذوات إرادات - لم تكن متفقة على الدوام - توجه حركاتها المختلفة المعقدة وكانت السماء قبة تقف في فضاءها الواسع بقوة عظيمة هي الآلهة « حتحور ، والأرض من تحت أقدامها ، وبطنها يكسوه جمال عشرة آلاف نجم ، وكانت المصريين عقيدة أخرى « لأن الآلهة والأساطير كانت تختلف من إقليم لإقليم ، تقول أن السماء هي الاله « سيبو ، النائم في لطف .

ومن عقائدهم أن الأبراج والنجوم قد تكون آلهة .. وكان القمر إلها ، ولعله كان أقدم ما عبد من الآلهة في مصر ، ولكن الشمس في الدين الرسمي كانت أعظم الآلهة ، وكانت تعبد في بعض الأحيان على أنها الاله الأعلى رع أو ، رى .. الأب اللامع الذي لقح الأرض بأشعة الحرارة والضوء النافذة ، وكانت تصور أحياناً على أنها عجل مقدس .. أو أن الشمس كانت هي الاله « حورس ، مصوراً في صورة باشق رشيق .

وكان رع أو الشمس هو الخالق على الدوام .. إلى أن يقول : وقصارى القول أن هذه الأساطير كانت في جملتها أساطير دالة على الذكاء تعبر في تقوى وصلاح عن اعتراف الانسان بفضل الارض والشمس .

وأخيراً يصل ول ديورانت إلى أن الآلهة صارت في آخر الامر بشراً أو أصبح البشر آلهة ، حتى رأى اخناتون أن الألوهية أكبر ما تكون في الشمس وهنا يتبدد ول ديورانت في تعليل رأى اخناتون فيقول :

ولسنا نعلم هل أخذ اخناتون نظريته عن بلاد الشام أو ابتدعها ؟ خصوصاً إذا كان قد حقق بها الوحدةانية العامة ، وأصدر أوامره بمحو أسماء الآلهة الأخرى تماماً ... حتى يعد ديورانت من مآسى التاريخ أن اخناتون

بعد أن حقق خليم الوجدانية العامة لم يترك ما في دينه الجديد من صفات نبيلة يسرى في قلوب الناس بتأوده . فكانت الردة بعد ذلك بسبب تشدده في فرض دينه الجديد على الناس .

والمجال الجديد الذي ينفتح أمام الباحثين هو تساؤل « ول ديورانت » ، هل أخذ اخناتون نظرية : أن الألوهية أكبر ما تكون في الشمس عن بلاد الشام أو ابتدعها خصوصاً وقد كشف عن عبادة المصريين للنجوم والقمر والشمس والبشر .

وهي من العبادات التي حاول إبراهيم عليه السلام هدمها ونقضها كما أشار إلى ذلك القرآن في مواضع عديدة ، مما يفيدنا في مناقشة هذه المذاهب .

• • •

### مناقشة هذه المذاهب :

هذه المذاهب والآراء في بحث معتمدات المصريين القدماء وتعليل نشأتها بالبيئة ، وتعليل تطورها بالتدرج الطبيعي تخدم أنصار مذهب التطور التصاعدي للدين تبعاً للتطور الفكري والحضاري أو هكذا يدعون .

وكان الإنسان المصري كأى إنسان آخر خضع في فكره وتصرفاته أى في ثقافته العامة للبيئة والظروف الطبيعية المحضة . ولادخل شئ آخر في هذه الثقافة بوجه عام ، وكان الدين كجزء من هذه الثقافة خاضع لما خضعت له .

فوصل الإنسان المصري إلى التوحيد على سلم التدرج الطبيعي مبتدئاً بالأسطورة أو بالخرافة أو بالطوطم وبكثرة الآلهة ، ثم بقلتها ، أو بالثنائية حتى وصل إلى التوحيد ، فلما انتكحت مصر سياسياً من جراء الأحداث التي أحاطت بالدولة انتكست دعوة اخناتون إلى التوحيد ، وعادت الوثنية . إلخ . فالتقدم في العقيدة رهن بالتقدم في مجالات الحياة كلها .

هذه النظرية سادت أوروبا في القرن التاسع عشر ، وحاول تطبيقها على تاريخ الأديان عدد كبير من العلماء منهم سبنسر Spencer وتيلور Tylor وفريزر Frazer ودوركهايم Durkheim وغيرهم وإن اختلفت وجهات نظرهم في تحديد صورة العبادة الأولى وموضوعها كما يقول دراز (١) .

لكن فريقاً آخر تصدى لهذه النظرية وذهب إلى إبطالها بالبحوث والدراسات العملية المشابهة لدراسات القائلين بالتطور محاولاً إثبات أن عقيدة التوحيد المنزهة عن كل نقص هي أقدم ديانة ظهرت في البشر ، مستدلاً بأنها لم تنفك عنها — أى عن عقيدة التوحيد الكاملة — أمة من الأمم في القديم والحديث ، فتكون الوثنيات أو الخرافات وغيرها من النقاىص المنافية لعقيدة التوحيد أعراضاً طارئة ، بجانب هذه العقيدة العالمية الخالدة .

إلا أن طريقة الفريقين ينقصها المنهج العلمى المستقيم ، أو العالم الذى يحيط بالمسألة إحاطة تامة ولا يحكمه هواه ، ولا ينقصه شىء من ضرورات المنهج العلمى الصحيح .

وتساوى الفريقين فى هذا الشأن يمكن كلا منهما من العثور على الأدلة المؤيدة لمذهبه ، انطلاقاً من قاعدة الافتراض والتخمين والخيال أو اعتماداً على التاريخ والآثار وهما عرضة للتغيير والتبديل كلما ظهر اكتشاف جديد مما لا يصل إلى درجة اليقين العلمى — كما سبق — على أن المنهج العلمى الصحيح لا بد أن يهديننا سراء السبيل ، وهو المنهج الذى ملك وسائله العالم المحيط الخبير بأسرار السكون والنفوس الانسانية ونظم الاجتماع فى الماضى والحاضر والمستقبل فقدم على أساس من هذا المنهج قواعد التجضر

الإنشائي ، وحقيقة الدين في بدايته ، وصورته مع الإنسان طوال تاريخه ، منذ الطفولة الإنسانية التاريخية إلى اليوم .

فإذا كان كتاب العالم المحيط الخبير وهو الكتاب المعتمد الذي لم تتدخل فيه يد البشر بتغيير أو بتحريف قد أخبر بأن عقيدة التوحيد النقية هي بداية العقائد الإنسانية منذ الطفولة ، ثم انحرف بها الإنسان فخلط بها الثواب والأباطيل ، وأخضعها لأهوائه وقصوره وعجزه . ثم كانت الرسائل تخلصها من الانحرافات الإنسانية ، وهكذا كانت سنة التطور في الدين غير خاضعة لسنة التطور الحضارى أو الثقافى .

إذا كان العالم قد قال هذا وأخبر به فإن أقل ما يجب على الإنسان ، أن يضع هذا القول أو الخبر موضع الافتراض العلمى ثم يبحث عما يوصله إلى اليقين .

\*\*\*

والسؤال الآن : كيف نفسر إذن معتقدات قدماء المصريين على هذا الأساس ؟

إن الإجابة لا تحتاج إلى جهد كبير إذا اصطحبنا منطق المنهج العلمى الصحيح وهو منطق النظر فى قول العالم الخبير المحيط ، ووضع موضع الافتراض العلمى باعتباره أصدق الأقوال من وجهة النظر العلمية المحضنة ، وباعتباره أخبار عالم له كتاب لو وضع فى ميزان المقارنة مع أى كتاب آخر لتمييز عنه ، بل ولدل على أن صاحبه أعلم بمادة بحثه من أى موجود آخر .

وقد راعى هذا الكتاب - القرآن - أثناء رصده لتجارب وخبرات الأمم والحضارات السابقة ؛ أن يقدم عائد هذه التجربة ونتائجها ، والتفاعل الذى م ١١ - الإنسان



ترتب على جريانها - أو لإجرائها - مع التعرض للظروف والأحوال التي وقعت فيها التجربة بالقدر الذي يفيد الإنسانية ويعود عليها بخبرة نافعة وهو في هذا يؤكد حق الإنسانية الناضجة في الاستفادة من تجارب الأجيال وفي نفس الوقت يعرف الطريق الصحيح إلى هذا الحق حين يحدد اهتمامات الناس وما يجب على العقلاء أن يهتموا به وما لا يصح الاهتمام به أما ما يجب الاهتمام به فهو التجربة وعائدها وأما ما لا يجب الاهتمام به فهو اسم المكان أو الشخص أو الأشخاص أو عدد الناس أو التاريخ أو غير ذلك مما يتصل بالتجربة ولا يفيد في مسائل التقدم والرقى ، وهناك أمور يصح الاهتمام بها ولكن القرآن لا يتناولها بالتفصيل لأعطاء العقل الإنساني فرصة البحث والتأمل حين يكون ذلك ضرورة من هنا كانت قصص القرآن عرضاً لتجارب ونتائج كل تجربة ، ومع كل عملية لها حصة من العطاء النافع حين التعرض لموقف معين يكون وضع القصة أو الموقف بحيث يؤدي هذه الفائدة وهكذا يظهر من التجربة ما يجب أن يظهر ويبقى في الغيب ما يجب أن يبقى .

الأمور العلمية الكثيرة ومنها :

(أ) حث النفس الإنسانية على البحث في المجال الذي يقود إلى تحصيل عد منافع مادية ومعنوية للبشر ، كالبحث في طبقات الأرض والبحوث الحيوية ، والتاريخية ، وغير ذلك مما يحقق للإنسانية تقدماً مادياً .

(ب) ترك المسائل كل الابتعاد الإنسانية الحركة البشرية العقلية للإنسان لأن الفصل فيها يفتح عدة أبواب للفتن والخلافات ، فالإنسان لن يوقف عقله عن العمل في مثل هذه المسائل حتى لو قيلت فيها كلمة فاصلة ولأن العقول تختلف من شخص إلى آخر ، كما تختلف من وقت إلى وقت ، فاحتمالات التناقض هنا لا تحد بمحدود ، ولا يوجد ما يمنع من ذلك مطلقاً .

(ج) نظر الاحتمال اجتماع فئة على كلمة كاذبة أو خبر مزيف باسم

العلم أو باسم غيره خصوصاً في ظروف التخصصات الدقيقة، تلافياً لذلك، وهو احتمال قائم يؤدي حتماً إلى تكذيب الحقيقة، مما يسمح بهدم نسبة الكتاب إلى العلم الخبير المحيط كذباً وادعاءً أو يفتح مجالات من الصراع، الإنسانية في غنى عنها.

كل هذه الأمور وغيرها كانت تحت عين الكتاب الناطق بالحقيقة، فلم يتعرض للتأريخ لحدث بالسنة واليوم والساعة، كما لم يتعرض لتحديد منطقة التجربة بالحد الجغرافي أو اسم البلد إلا إذا كان للأسم فائدة وأهمية خاصة بلحظة التجربة أو الحدث لأن مثل هذا التمرض قد يواجه، باجتهاد إنساني يناقضه، ويدعى الصدق لنفسه والكذب لغيره، وهي أمور يصعب الاتفاق عليها، فتركها أولى من التعرض لها فإذا ما اتفق بشأنها على شيء لم يكن الاتفاق مناقضاً لدعوى الكتاب الناطق بالحقيقة المجردة. وهذه قصة أوردها صاحب كتاب «على هامش التاريخ المصري القديم» فلنخصها للقارئ. ليرى حكمة العالم صاحب الكتاب العلمي «القرآن» وإن كنا لا نحتاج إلى أدلة خارجة عنه، لكننا بمثابة أدلة للذين لا يؤمنون بهذا الكتاب تدلهم على مدى علميته ودلالته على صانعه خصوصاً إذا كنا قد ارتضينا أن نضع قوانين هذا الكتاب مريض الافتراض العلمي.

### معركة بين الكنيسة وعلم الآثار المصرية:

قامت بين سنة ١٧٩٤ وسنة ١٨٨٠ معركة بين الكنيسة وعلم الآثار المصرية شغلت بها أوروبا في هذه المدة الطويلة. وكان منشؤها أن الكنيسة وقسها وقعوا في خطأ ألبسوه ثوب الدين وجعلوا منه عقيدة من أنكرها خرج على الكنيسة وكفر بالدين. وكان كثير من البحث العلمي في ذلك الوقت واقفاً في أيدي التمسس، فما عرض واحد منهم لهذه العقيدة إلا وهي عنده من الحقائق الثابتة التي لا يرقى الشك إليها. وما زالوا كذلك حتى هب عليهم علم الآثار المصرية فنار بهبوه غبار، ثم اشتد هذا الغبار فتحول

إلى معركة حامية تقف منها الكنيسة وقسمها في جانب ، وتقف الآثار المصرية في جانب آخر ، إلى أن اهزمت العقيدة بعد حوالى تسعين سنة .  
وحينئذ أفاق الكنيسة وأفاق قسمها فاعترفوا جميعاً أنهم مخطئون وأن الآثار المصرية انتسبتهم من باطل كانوا فيه مخدوعين .

وهو موضوع هذا الخطأ أن في التوراة ، أو كتاب العهد القديم ،  
نصوصاً عن خلق العالم وتسلسل الأجيال من آدم عليه السلام ، إلى نوح عليه السلام ، وقد ذكرت التوراة في هذا التسلسل أعمار الأشخاص واحداً بعد الآخر ، فكان من السهل على الذين يجمعونها أن يحددوا الزمن الذى مضى على خلق الإنسان . ونذكر هنا شيئاً من نصوص التوراة على سبيل المثال

ففي الإصحاح الخامس ، من سفر التكوين ، مانصه :

هذا كتاب مواليد آدم يوم خلق الله الإنسان على شبه الله . عمله ذكرنا وأثنى ، خلقه وباركه ودعا اسمه آدم يوم خلق ، وعاش آدم مائة وثلاثين سنة وولد ولداً على شبهه كصورته ودعا اسمه شيثا . وكانت أيام آدم بعد ما ولد شيثاً ثمانمائة سنة . وولد بنين وبنات . فكانت كل أيام آدم التى عاشها تسعمائة وثلاثين سنة ومات ،

وعاش شيث مائة وخمس سنين وولد أنوش : وعاش شيث بعد ما ولد أنوش ثمانمائة وسبع سنين وولد بنين وبنات ، فكانت كل أيام شيث تسعمائة واثنى عشرة سنة ومات . الخ . الخ .

وتستمر النصوص على هذا المنوال حتى تصل الى نوح ثم الى ابراهيم . فعلى هذه النصوص استند الذين قدروا عمر الإنسان على الأرض ثم لما كانت هذه النصوص قد اختلفت باختلاف النسخ فقد اختلف تبعاً لذلك تاريخ خلق الإنسان . وذلك أن هناك ثلاث نسخ للتوراة كل واحد منها اعتبرتها الكنيسة مقدسه : نسخة عبرية ونسخة سامرية ونسخة سبطونية .

ففي الأولى يبلغ مجموع الأعمار من آدم الى ابراهيم ٢٠٢٣ سنة . وفي الثانية تبلغ مجموع هذه الأعمار نفسها ٢٣٣٤ سنة . وفي الثالثة يبلغ هذا المجموع ٣٣٨٠ سنة . أما المدة من ابراهيم الى عيسى عليه السلام ، فهي ٢٢٠٠ سنة . وبهذا تكون أقصى مدة قدرت من خلق الإنسان الى رسالة عيسى هي ٥٥٨٩ سنة .

وقد أخذت الكنيسة هذه الأرقام قضية مسلماً بها ، وجعلتها إحدى العقائد المقدسة . فانتشرت في المؤلفات الدينية وسرت منها إلى المؤلفات العلمية التي ألفها القسس وهذا هو الخطأ الذي أخذ العلم المصري بعده منذ سنة ١٩٧٣ ، فثار الكنيسة وثار معها أنصارها في أوربا كلها على مصر والعلم الذي يأتي منها ، فتغلبوا في بدء المعركة ، ولكن الصدام استمر ، فسكان العلم المصري ينض يوماً ويكبو يوماً ، وبلغ من حمو المعركة أن أشترك فيها أكبر العلماء من الجانبين ، وأشتغل بها رجال الدين ورجال العلم ورجال السياسة ، لا بل اشتغل بها الباباليون الثاني عشر نفسه . وأخيراً انتصر العلم المصري فقهض على الخطأ واعترف بانتمصاره الذين حاربوه .

وعادت الكنيسة إلى التوراة ترجع البصر فيها ، ففكرت وفكرت ، ثم اهتمت فجأة إلى أنها أخطأت في اعتبارها تلك الأرقام التي فيها مقدسة وفي استخراجها منها الحساب الذي استخرجته . ولا يتسع المقام هنا لشرح جميع الأسباب التي بنت الكنيسة عليها نظريتها في هذا الخطأ ، فيكفي أن نذكر منها سببين .

الأول : أن كل نسخة من نسخ التوراة الثلاث اختلفت الأرقام فيها عن الأخرى في جملة وفي تفصيلاتها ، فهذا الاختلاف وحده يمنع من أن تكون مقدسة .

والثاني : أن التوراة حينما تقول إن فلاناً ولد فلاناً لا يكون مرادها أن الثاني ولد للأول غير أن يكون بينهما جيل أو أجيال ، بل المراد فقط أن الثاني نسل للأول بحيث قد يكون حفيداً له أو أبعد من حفيد . وإذن يكون من الخطأ أن تجمع الأرقام التي في التوراة ليقال إن مجموعها هو الزمن الذي

انقضى بين آدم ونوح ، ثم بين نوح وإبراهيم ، ثم بين إبراهيم وعيسى ، ثم ليقال في النهاية أن هذا هو الزمن الذى انقضى على خلق الإنسان . وبهذا التفسير الأخير خرجت الكنيسة من التصادم مع العلم المصرى . وبه أيضاً أعلنت أنها كانت على خطأ فى تحديدها السنين التى كانت تحددها لخلق الإنسان . وبه أخيراً اعترفت بهزيمتها أمام الآثار المصرية . ولكن اعترافها هذا لم يأت إلا بعد معركة حامية شغلت بها أوربا كما رأيت من سنة ١٩٧٣ إلى سنة ٨٨٠ (١) .

ومن هنا يظهر لنا مدى الحكمة فى عزوف القرآن عن مثل هذه الامور وعدم التعرض لها . لما تجره من صراع وما يترتب على هذا الصراع من خسارة مادية ومعنوية تنعكس حتماً على النظام تخلفاً وانحطاطاً .

معتقدات المصريين والمنطق العلمى :

ومن هنا أيضاً يسكون المنطق العلمى قاضياً بعدم دلالة معتقدات المصريين القدماء على التطور التصاعدى للدين تبعاً للتطور الثقافى أو الحضارى ، وإنما يهيم الدين الصحيح أو الدين المقنع فرص التقدم الحضارى أو الثقافى لما يمنحه للنفوس المقنعة والمؤمننة من راحة وعدم قلق ، فتتسخط النفس وتنتج فى ميادين الحياة المتنوعة ، لأن الاستقرار العقائدى يؤدى إلى صرف الجهود البشرية فيما يؤدى إلى التقدم والرقى ، أما التقدم الحضارى والرقى المادى فقد يؤدى إلى الانصراف عن الدين وعدم الاهتمام بالعقيدة .

ولعل هذا الخيط الرفيع دوسر الخياط والربط بين التقدم فى الدين والوصول إلى مرتبة الوحدةانية ، وبين التقدم فى جوانب الحياة الأخرى . فالنفوس حينما تستقر فى معتقداتها التى تمدّها بقواعد الفكر والسلوك المنضبطين تزحف مطمئنة نشطه إلى كل ميادين النشاط الحضارى أما إذا كانت النفوس مترددة قلقة فى معتقداتها انعكس هذا القلق وذلك التردد على كافة الأنشطة الإنسانية الأخرى تخلفاً وفساداً .

والنتيجة أن الحضارة أو الثقافة عائد الدين وللاعتقاد ، وهي التي يجب أن تأس بالدين فتخضع الثقافة أو الحضارة لنوع الاعتقاد وقدرته على بث الطمأنينة في النفس وتنشيط قواها وحفزها على العمل في ميادين الحياة ، فالدين يسبق جميع الأنشطة الإنسانية فإذا صح أدار الحياة إدارة نشطة صالحة مستقيمة ، وإذا فسد أدار الحياة إدارة خاطئة فاسدة .

• • •

ومن هنا أيضا يكون المنطق العلمي قاضيا بعدم دلالة الوصول إلى التوحيد من جانب المصريين بهذا الطريق التدريجي على أن الدين كله من صنع الإنسان ولاسلة له بالوحي .

لأن التوحيد سبق هذه المعتقدات كلها ، وعرفته الإنسانية . منذ آدم ، ثم عبثت أهواء البشر ونزعاتهم الظالمة بالاعتقاد الصحيح .

فلما عاد التوحيد المصري بصورته هذه لم يكن إلا اقتباسا من دين صحيح سرأ جاء هذا الاقتباس من طريق قراءات اختاتون وإطلاعه على معتقدات قديمة ، أو من بلاد الشام حيث عاصر اختاتون دعوة نبي من الأنبياء أو وصالته دعوته ، ويرجح ذلك أمور :

الأمر الأول : بشرية التوحيد الذي فرضه اختاتون حيث لم يفارقه عجزه البشري فلم تخلص وحدانيته من شوائب النقص ، إذ اختار الشمس إلهاً أكبر ، بالرغم مما أضنى على إلهه من صفات هي أعلى صفات الكمال فهو الحي المبدىء الحياة ، الملك الذي لا شريك له في الملك ، خالق الجنين من النطفة التي ينمو منها الجنين ، نافث الأنفاس الحية في كل مخلوق ، قريب بآلانه ، تسبح باسمه الخلائق على الأرض والطيور في الهواء وترقص الحلمان من مرح في الحقول فهي تصلى له وتستجيب لأمره ، ويسمع الفرج في البيضة دعاءه فيخرج إلى نور النهار وأتباع على قدميه . قد بسط الأرض ورفع السماء ، وأسبغ عايها حلال الجمال ، وهو ملء البصر وملء الفؤاد ، وهو الوجود ، وواهب الوجود وشعوب الأرض كلها عبيده لأنه هو الذي أقام كل

شعب في موطنه لياخذ نصيبه من خيرات الأرض ومن أيام العمر في رعاية الواحد الآخر آتون « الشمس » .

وقد عقد كل من هنرى برستيد وأرثر ويجال مقارنة بين صلوات اخناتون وأحد المزماء العبرية فاتفقت المعاني بينهما اتفاقاً لا ينسب إلى توارد الخواطر المصادفات

ومن أمثلتها قول اخناتون : « إذا ما هبطت في أفق المغرب أظلمت الأرض كأنها ماتت .. فتخرج الأسود من عرائنها والشعابين من جحورها » .

ويقابل المزمور الرابع بعد المائة وفيه « .. تجعل ظلمة فيصير ليل ، فيه يدب كل حيوان الوعر ، الأشبال تزجر لتخطف ولتلمس من الله طعامها ، تشرق الشمس فتجتمع وفي مأويها تربض ، الإنسان يخرج إلى عمله وإلى شغله إلى المساء ، ما أعظم أعمالك يارب . كلها بحكمة صنعت ، ملائكة الأرض من غناك ، هذا البحر الكبير الواسع الاطراف ، هناك دبابات بلا عدد ، صغار حيوان مع كبار ، هناك تجرى السفن ولويathan ( أى التمساح ) هذا خلقته ليلعب فيه ، ... » (١) .

ومثله في صلوات اخناتون : « ما أكثر خلائتك التي تجهلها أنت الإله الواحد الذى لا إله غيره ، خلقت الأرض بمشيئتك ، وتفردت فعمرت الكون بالإنسان والحيوان ، والكبار والصغار » .

« تسير السفن مع التيار وفي وجهه ، وكل طريق ينفتح للسالك ، لانك أشرقت في السماء ، ويرقص السمك في النهر أمامك ، وينفذ ضياؤك إلى أغوار البحار » .

« وتضى » فتزول الظلمة ، وقد أيقظتهم فيغسلون ويسعون ويرفعون أيديهم إليك .. ويمضى سكان العالم يعملون » (٢) .

وفي هذا ما يدل على أن ما وصل إليه اخناتون مما سمى توحيداً ، لم يزل يشاب بالنقص ، بل يبتعد بعداً شاسعاً عن التوحيد الحقى المنزه .

---

(١) الكتاب المقدس ص ٩٠٥ - ٩٠٦ (٢) الله - العقاد ص ٥٦ - ٥٧

كان توحيد اخناتون مجرد نزعة بشرية دفع اليها مآرِف ومعلومات تميز بها اخناتون نتيجة لِكثرة اطلاعه وبحثه ، فاقْتبس له صفات الكمال الالهي من معتقدات قديمة أو معاصرة - لها مصدر صحيح من الدين أو الوحي ، لكنه عجز - أي اخناتون - عن التعرف على الاله الحق الذي يجب أن يتصف بصفات الكمال هذه:

فكانت الشمس أروع بديلا لعجزه مع ما عرف عن اخناتون من عكوف على التفكير والخُلوة والأمل والتفقه والرغبة في الابتكار .

الامر الثاني من الامر التي تدل على أن ما وصل المصريون أو اخناتون اليه من توحيد لم يكن صموداً على سلم التطور الطبيعي ، كما لم يكن كله من صنع الانسان ، بل كان خليطاً من فكر الانسان والاقْتباس من وحي أودين سماوي قديم . وجرّد رسالات سماوية سابقة أغفلها دعاة مذهب التطور وأنصارهم عمداً ومن غير دليل علمي على انتفاها ، بل قام الدليل العلمي على وقوعها - ما بين القرنين السابع عشر والثالث عشر ق م تقريباً .

مثل : دعوة رسل الله إبراهيم ويوسف وموسى ، وهي الدعوة التي عاشها المصريون أنفسهم ، ودعاهم إليها الرسل السابقون وتحمل في مجملها توحيد الاله الخالق وتنزيهه قبل اخناتون بمئات السنين وكان لابد أن تترك أثرها التاريخي والفكري في البحث والدراسة . فإذا ثبت عكوف اخناتون على القراءة والبحث والتفكير ، كان دليلاً على أن يتأثر بذلك التراث الديني القديم ، وأن يأخذ منه بالقدر الذي يستطيع فهمه واستيعاب أهدافه ، وهو ما حدث ، وتدل عليه أيضاً الرجعة الفكرية والدينية أو الانقلاب على أفكار اخناتون بعد وفاته مباشرة .

فلأن اخناتون فهم ولم يعط غيره فرصة الفهم ، وأدرك كثير آ من الأشياء ، ولم يمكن غيره من هذا الإدراك ، فربط فهمه وإدراكه بالله يستوى في نظر الفكر المصري العام بالآلهة المعبودة الأخرى ، ولم يجدوا تعاليفاً مقبولة



لأفراد الشمس بالعبادة لم يكن بد من الردة الدينية العملية المريعة  
والانقلاب إلى التعدد بدلا من التوحيد الاخناتوني .

o o o

الأمر الثالث: من الأمور التي تدل على أن ما وصل للمصريون أو ما وصل  
اخناتون إليه من توحيد لم يكن صعوداً على سلم التطور الطبيعي ، كما لم  
يكن كله من صنع الانسان بل كان خليطاً من فكر الانسان والاقتباس من  
وحى أودين سماوى قديم ، وجود الدعوات الدينية الراضية لعبادة الأوثان  
والكواكب والارواح وملوك البشر والحيرانات والنباتات . أى وجود  
الدعوات الدينية الصحيحة الراضية لنفس الاشياء التي عبدها المصريون  
والداعية الى عبادة الاله الحق الواحد المنزه عن جميع النقائص .

فلا مجال لدعاه أن الانسان هو الذى وصل بفكره إلى الدين الصحيح  
المنزه ، ولا مجال لادعاء أن التطور كان سلم الانسان الطبيعي للترقى في عباداته  
وصعوده من الكثرة إلى القلة ثم من القلة إلى الأقل حتى وصل إلى التوحيد .

فالترديد عرفه الإنسان الاول وهو أبونا آدم عليه السلام وتناقلته  
الدعوات الدينية الصحيحة ، ولم يكن المصريون أول من عرف التوحيد  
لحتى توحيد المصريين لا يمكن أن يسمى توحيداً بالمعنى الصحيح إلا إذا  
أنكرنا الواحد الحقيقي ، وهو الله الخالق فاطر السموات والارض ، وإذا  
ما وصل اخناتون إلى أفراد رع أو الشمس بالعبادة وإضفاء صفات الكمال  
عليها فلا يدل هذا إلا على أن التوحيد عقيدة تقدمية راقية فإذا ما صار  
توحيداً عن منزها النقائص ، أصبح عقيدة أكثر تقدمية ورقياً . وهذا  
لا يمنع من وجود التوحيد مع أول انسان أوحى اليه وتبعه الله بالوحي ؛  
وبالحماية والرعاية ، حتى تكاثرت أجياله ؛ وأصبح قادراً على العيش وسط  
وحوش الطبيعة وهوامها : فلما انقطع الوحي مدة . وتدخلت أهواء الناس  
وأغراضهم بدأت الردة الدينية ، وشيبت العقائد الصحيحة بالزيف البشرى

هذا هو التفسير الصحيح لوجود العقائد على هذا النحو أو ذاك .

الامر الرابع : عالجت الـكتب المقدسة قصة العقيدة الصحيحة فأشارت الى وجودها منذ آدم أصل البشرية .

وقد أحيطت هذه المعالجة بالدقة والخبرة والاحاطة والملم ، لأنها من قبل العالم الخبير المحيط كما سبق أن قررنا ، وسنعود الى شرح هذه المعالجة عند حديثنا عن معتقدات القدماء من القرآن الكريم .

خلاصة القول :

أن العقيدة الصحيحة بوجه عام عرفها آدم عليه السلام منزدة عن كل النقائص والشوائب ، وكلما تعرضت للردة الفكرية وتدخل الاهواء والغرائز البشرية للتجريف والايهام والكفر جاء الرسل لتنقيتها ، ولأن الفطرة الإنسانية مرتبطة دائماً بقوة عليا ترى فيها القدرة على التنظيم الصحيح للعلاقات الانسانية بعضها مع بعض ومع الكون ، فإن استقامة هذه الفطرة ترتبط بالوحي الذي يهذى الفطرة العاقلة إلى العقيدة الصحيحة التي هي في الأساس منطلق السلوك الصحيح .

أما الانحراف فيجىء بتدخل الأغراض والاهواء البشرية ، ومحاولة خروج الإنسان من القيود التي تفرضها العقائد الصحيحة على الغرائز والاهواء ويتطور الانحراف حتى يصل إلى انكار الإله الخالق أو الاشراك به ولهذا لا تجد دينا يصنعه البشر أو يتدخلون لتجريفه يعتمد على اقناع العقل السليم والمنهج العلمي ، بل لابد أن تجد فيه ما يتنافر معه ما وصدق الله العظيم (لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) .

وفي ضوء هذه القاعدة كانت عقائد المصريين أثناء التعدد وبعد التعدد وعند عبادة شيء غير الاله الخالق الحقيقي ، صورة من الانحراف عن الفطرة

المستقيمة والوحي الصحيح ، أى ردة دفع إليها الهوى والخرائط البشرية بادية  
ذى بدء ثم تطورت إلى صورها المختلفة وأشكالها البديدة التى طالعناها ،  
وكان توحيد اخناتون محاولة بشرية مميزة اختلط فيها الفكر الانسانى بالدين  
الصحيح فجاء على هذه الصورة الناقصة غير السكاملة . .

#### تفسير عقيدة البعث والحساب :

وعلى نفس الطريقة وبنفس المنهج يمكن تفسير عقيدة البعث والحساب ،  
فالايمان بالبعث والحساب حقيقة دينية وصلت إلى المصريين من طريق دين  
صحيح ، لولا أن عبث بها الفكر الانسانى البشرى ، وخاطبها التحريف ، فحول  
صورة البعث إلى خيال بشرى وقضية على مستوى الادراك الحسى للبشر .  
فنزلت من مستوى الادراك الايمانى السامى إلى هذه الصورة التى عرضت  
وهى صورة ناقصة تدل على عجز العقل حين يكون وحده وبلاوحي عن الوصول  
إلى حقائق هذه الامور .

## الفصل الخامس

### نقد نظرية التطور في ضوء معتقدات قدماء الهند

الدين الطبيعي - البرهمية - الجينية - البوذية - تفسيرها في ضوء التطور

## معتقدات قدماء الهنود

لا يكاد يختلف اثنان على وجود النزعة الفطرية التي تلتبس الألوهية فيها وراء الطبيعة ، أو في الوصول بالطبيعيات حجارة أو أشجارا أو بشرا إلى مرتبة من المثالية تساوى القول بما وراء الطبيعة .

وقد حفلت الهند بهذه النزعات المتنوعة المختلفة إلا أن الخلاف بيننا وبين علماء مقارنة الأديان إنما هو في القول بأن هذه النزعة كانت أصلا للعبادات والأديان التي تطورت من عبادة قوى الطبيعة إلى عبادة إله واحد .

فالأصل عندنا هو عبادة الإله الواحد ، ثم الانحراف والردة إلى عبادة مظاهر الطبيعة وقواها ، ولعل ذلك الانحراف كان تقربا بها إلى إلهه الحقيقي ابتداء ثم إلى تأليهها هي دون الإله الخالق .

وأمامنا الآن حقل جديد للدراسة والبحث وتفسير المعتقدات الإنسانية هو معتقدات قدماء الهنود .

### الأديان الهندية :

مادمننا نستمد أصول الحديث في هذه الأمور من مصادر بشرية ، فإن مدى علمنا بالحقيقة لا يعدو الاستنتاج والافتراض .

من هنا سنفترض أن المكتشفات الأثرية القليلة التي عثر عليها حديثا ، وغيرها من دراسات ، تدل على أن سكان الهند عرفوا دين الأديان .

١ - الدين الطبيعي : أي تقديس وعبادة مظاهر الطبيعة مباشرة أو بواسطة الرموز والتماثيل والطواطم .

فمثلا كانوا يعبدون آلهة من إناث البشر والحيوان ، ويعمل الدلتور

« عثمان عبد المنعم عيش » مؤلف كتاب « الأديان والمذاهب الشرقية ، يعلم لهذا بقوله » ولعل ذلك يرجع إلى رؤية الرجل البدائي أن الاني في مخلوقات الحية هي المصدر المباشر لتكاثر الانواع ورعايتها .

ويقول الدكتور أحمد شلبي في كتابه « أديان الهند الكبرى »<sup>(١)</sup> عرف الهنود القدماء عبادة الحيوانات ، وبخاصة البقرة ، كما عرفوا عبادة الطبيعة .

وعرفوا كذلك عبادة عضو التلقيح معتقدين أنه سبب الخلق ويشارك العقاد في التعليل لظهور هذه المعتقدات قائلا<sup>(٢)</sup> « وعبادة الهنود للحيوانات نشأت عن الفكر الطوطمي ، أو عن اعتقادهم بأن الله يتجلى في بعض الاحياء فيحل فيها ، فيحتمل حلوله في هذا الحيوان أو ذاك ، أو لأنهم آمنوا بالتناسخ فجاز عندهم أن يكون الحيوان جذاً قديماً أو صديقاً عائداً إلى الحياة » .

وقد حظيت البقرة من الحيوانات بقدسية خاصة بقيت لها حديثاً كما كانت قديماً . حتى يقول عنها المهاتما غاندي ( عندما أرى بقرة لا أعدني أرى حيواناً ، لأنني أعبد البقرة وسأدافع عن عبادتها أمام العالم أجمع )<sup>(٣)</sup> .

## ٢ — الديانة البرهمية :

من أقدم الديانات في الهند « الديانة البرهمية » التي يرجع وجودها إلى نحو القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، ويعتنيها الآن معظم سكان الهند وبعض سكان الباكستان ، كما يقرر عالم الاجتماع الكبير الدكتور علي عبد الواحد وافي الذي يرى أن الديانة البرهمية تنسب للإله براهما

---

(١) ٢٨ نقلًا عن Weech في كتابه The peoples and religionsof india

(٢) ص ٢٨ المرجع السابق

(٣) ص ٣٢ المرجع السابق .

وهو عند معتنقي هذه الديانة اسم للاله الخالق ، ناقصا بذلك  
بذلك ما ذكره الشريستانى فى الملل والنحل من أنها تنسب إلى رجل عظيم منهم  
يقال له براهم ، وما قاله غيره من أنها تنسب إلى إبراهيم عليه السلام .

### ٣ — الجينية :

نشأت كنوع من رد الفعل للبرهمية ، وتزعمها ماهويرا الذى قاد فكرة  
نفي الآلهة والاعتقاد بأن الموجودات تحمل فى تركيبها المادة والروح ، وأن  
كل روح من هذه الأرواح خالدة بجرى عليها التناسخ الذى أفرته البرهمية .

### ٤ — البوذية :

حركة ثانية من رد الفعل للنظام الذى فرضته البرهمية وقاد هذه الحركة  
« سيداتا جوتاما بوذا » أحد أبناء عائلة من النبلاء وقد رفض نظام الطبقات  
ولم يعترف بالآلهة التى أوردتها الكتب المقدسة للبرهمية .  
وسنتاول بالشرح والتحليل هذه الديانات وقصة تطورها على هذا  
النحو الغريب .

العقيدة أصولها وتطورها فى بلاد الهند من خلال الفكر الإنسانى .

### تمهيد :

يبدو من العرض المبسط الذى ذكرناه ، أن ما شغل بال الهنود كبشر  
- يتميزون عن بقية الكائنات بالفطرة العاقلة الباحثة عن إله خالق للكائنات  
يبدو أن ما شغل بالهم هو عملية التكاثر التى تتم بين المخلوقات بطريقة تتوافق  
مع مواسم معينة وخلال دورات منتظمة تجعل المفكر الخالى الذهن يبحث عن  
أسباب هذه العملية ومقننها ، فذهبت بعض الأفكار إلى إثبات متوسطات  
غيبية ، وذهبت بعض الأفكار الأخرى إلى الأثرى يرون فيها ذاتية خاتمة  
لعملية التكاثر ، فكانت المتوسطات الغيبية شيئا مزها عن كل ما يتصف به  
المخلوقين مما يتصل بهذه العملية فلا يولد ولا ينكح ولا يطعم ولا يشرب ،  
ولا يهرم ، ولا يموت . . . فإيهى شخصاً أو ملكاً روحانياً أو غير ذلك

وكانت الآثى مثلا أعلل لهذه العملية التناسلية المنتظمة فعبدت لذاتها وكانت البقرة أوضع هذه الأمثلة وعبد غيرها تبعاً لاختلاف الأفكار والمدارك .

إلا أن تداخل عملية الخلق والتكاثر تدخلت فى كل المعتقدات الهندية تقريباً فإذا عبدت مظاهر الطبيعة فلأنها مصدر يؤثر فى هذه العملية، كالشمس وإله السماء وإله المطر والمياه والأنهار . . إلخ .

وإذا قبل بالتناسخ فلأن العقل عجز عن الإجابة على عملية التجدد والخلق مع الموت . . وكثرت الأديان والمعتقدات حول هذه المعانى والأفكار إلا أن البرهمية استطاعت أن تحتوى غالبية الهنود وتحمل اتجاهاتهم وأفكارهم .

ودراسة البرهمية هى السبيل لاقاء الضوء على المعتقدات الهندية .

يظهر أن البرهمية مرت بمراحل عدة ، فاشتملت فى بدايتها طرقاً مختلفة للعبادة ، وعدداً من الآلهة فى العقيدة ، وقواعد متغيرة السلوك والشريعة وخليط من أفكار الهنود وأفكار غيرهم من الغزاة الآريين وغيرهم من المهاجرين ، فكانت تمثل صورة المجتمع الهندى المتعدد البيئات والاجواء واللغات والعادات والتقاليد ومدى قوة تأثير الغزاة المهاجرين .

يقول العقاد فى كتابه الله لو اشتملت البرهمية القديمة على عبادة الاسلاف كما اشتملت على عبادة المظاهر الطبيعية ، فتقديس الملك عندهم إنما هو تقليد موروث من تقديس جد القبيلة تحول إلى تقديس الرئيس الأكبر فى الدولة بعد أن تحولت القبيلة إلى الامة ، ويحسب العلامة البوت سميث كما قال فى كتابه « المبادئ » ، The Beginning - أن مراسم تقديس الملك التى لاتزال مرعية فى جوار الهند كانت تحاكي مراسم قصة الخليفة كما تخيلها المصريون .. فلم يكن حق الملك مستمداً من الجلوس على العرش أو من البناء بالملكة التى تنقل إليه حفرقه الملكية ، ولكنه يتولى هذا الحق بعد تقديسه فى حفل



يمثل قصة الخليفة ، وكأنهم يعنون بهذا أن الملك يستمد من ذلك التقديس قدرته على الخلق ومنح الحياة ، وهي قدرة لاغنى عنها لاضطلاعها بالقرائن الملكية .

وقصة الخليفة في الهند تشبه قصة الخليفة المصرية في أكثر من صيغة واحدة من صيغها العديدة : فالحياة خرجت من بيضة ذهبية كانت تصفو على الماء في العماء ، والاله الأكبر كان ذكراً وأثنى فهو الأب والأم الأحياء كما جاء عن «رع» ، في بعض الأساطير المصرية ، وبناء العالم من صنع بناء ماهر في أساطير مصر والهند على السواء ، وتتفق مصر وبابل والهند على أن الاله الأكبر قد خلق الأرض بكلمة ساحرة . فأمرها بأن توجد فبرزت على الفور إلى حين الوجود ويواصل العباد حديثه فيقول : وتعززت في الهند عبادة الطواطم بعقيدتهم في وحدة الوجود وتناسخ الارواح كما تعززت بعقيدة الحلول — فعبدوا الحيوان على اعتباره جداً حقيقياً أو رمزياً للأسرة ثم للقبيلة .

ثم تخلفت عبادة الحيوان حتى آمنوا بأن الله يتجلى في كل موجود أو يخص بعض الأحياء بالحلول فيه ، وآمنوا بتناسخ الارواح فجاء عندهم أن يكون الحيوان جداً قديماً أو صديقاً عائداً إلى الحياة في محنة التكفير والتطهير

فعاشرت عندهم الطوطمية في أرق العصور كما عاشت في عصور الهمجية ، بهذا الامتزاج بين الاعتقاد الحديث والاعتقاد القديم لكنهم خلاصوا كما خلاص غيرهم من هذه العبادات إلى الإيمان بالإله الواحد<sup>(١)</sup> وإن اختلفوا

---

(١) سبق أن قررنا خطأ هذا الانحياز وبيننا أن الإيمان بالإله الواحد نفياً مع أول إنسان ثم كانت الردة وتدخل الاهواء فكان التحريف . . .

في المنهج الذي سلكوه فلم يكن إيمانهم به على الأساس الذي قام عليه إيمان  
الشمعوب الأخرى بالتوحيد .

فهم قد بدأوا بإبطال جميع المظاهر فنسبوا إليها التعدد والاختلاف لأنها  
تتكرر وتزول وتستتر من ورائها الحقيقة الأبدية التي لا تتكرر ولا زول .  
وتلك هي حقيقة القضاء والقدر ، التي تقدر للآلهة وتقضى عليهم كما تقدر  
لسائر الموجودات وتقضى عليها في أجلها المحدود .

ومنا ذهب حكماءهم إلى مذهبين غير متفقين ، فبعضهم تمثل تلك  
الحقيقة إلهاً واحداً قريباً من الإله الواحد في أكثر ديانات التوحيد ،

أما الفريق الثاني فالحقيقة الأبدية عنده معنى ليس له قوام من الذات  
الواعية ، وإنما هو قانون يقضى بتلازم الآثار والمؤثرات ويقابل الاعتقاد  
بالقضاء والقدر عند المؤمنين بالاديان الكائنة إلا أنه قضاء يسرى على  
الآلهة كما يسرى على البشر ويتغلغل في طبائع الخالقين كما يتغلغل في طبائع  
المخلوقات ، وحكمه الذي لا مرد له هو حكم التغيير الدائم والفناء ، وحكم  
الإعادة والإبداء . . .

ويحسن بنا أن نستعرض الكتب والاسفار المقدسة للبرهانية ، وأن  
ما تشتمل عليه من عقيدة وشريعة وعبادات وأخلاق ، حتى تدرس مهمتها في  
تحليلها وتعليل وجودها على هذا النحو في ضوء منهجنا العلمي ، .

---

... والتبديل والرجعية الفكرية . وعندما تعود الإنسانية إلى الإيمان  
المنزه لا يكون ذلك بطريقة إنسانية بحتة ، بل يكون اقتباساً من وحى أو  
دين صحيح سابق أو معاصر . فلا يصح ادخال الإيمان المنزه ضمن حلقات  
التطور الفكري للإنسان . لأن تعزيز هذا الرأي يخدم القوم بأن . . .

### أصل البرهمية وراجدها :

يختلف علماء مقارنة الأديان في تاريخ نشأة البرهمية فمنهم من يقرر وجودها بين سنتي ٨٠٠ ثمانمائة و ٦٠٠ ستائة قبل الميلاد (١) ومنهم من يرجع بها إلى زمن أبعد بكثير حيث يصل إلى ألف وخمسمائة قبل الميلاد (٢) أحياناً وأكثر من ذلك (٣) .

ولعل سر الاختلاف يرجع إلى عدم معرفة الوقت الذي دونت فيه كتبها المقدسة بدقة . وعدم معرفة واضعها الحقيقي ،

وسميت البرهمية نسبة إلى إلهها براهما Brahme وأمم براهما نفسه مأخوذ من معاني المعبود والعبادة ومرجع هذه الديانة الكتب المنسوبة إلى الفيدا ومن هذه الكتب استخرجت وكذلك استمدت منها «قوانين مانو» التي تنسب إلى مشرع هندي قديم يسمى «مانو» وتفسر وتبين ما اشتملت عليه كتب الفيدا من عقائد وعبادات وشرائع وأخلاق وقصص

وهذه الكتب وقوانين مانو مقدسة لدى البرهمنين ، ويعتقدون أنها من وضع الآلهة المنبشقين عن الإله الخالق «براهما» وهو أى واضع «الفيدا» أزل في نظرهم وملهم .

---

. . . الإنسان هو الذى صنع الأديان أو القول بأن العقل كاف للتوصل إلى الإيمان المنزه فلا حاجة للرسول . . . الخ .

(١) الأديان والمذاهب الشرقية د . عثمان عيش ص ٢٧ .

(٢) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام وعلى عبد الواحد

وإلى ص ١٠٦ .

(٣) الله - العقاد ٦١ .

### الكتب الفيدية ومشتملاتها اجمالاً :

يطلق البرهمنون اسم « الفيدا » على مجموعة كتب دينية يعتقدون أنها وحي من الإله براهما ، نفسه وقد جمعها حكميم من حكمائهم اشتهر باسم فيدا فياسا ، أى جامع الفيدا (١) وتضم أخبار وأحوال الآريين فى الهند فى عهدهم القديم ومقرهم الجديد ، حلهم وترحالهم ، دينهم وسياساتهم حضارتهم وثقافتهم ، معيشتهم ومعاملاتهم « مساكنهم وملابسهم ومنهم وأعمالهم ، مراحل تدرجهم العقلى ابتداء من سذاجة البدوى إلى شعور الفيلسوفى ، وتدرجهم الدينى من أدعية ابتدائية تنتهى بالارتياح ، إلى ألوهية تترقى إلى وحدة الوجود (٢)

١ - « الريج فيدا ، أو رينش فيدا Rig Veda ( ومعناها المعارف النارية المنسوبة للنار ) ويعد أشهر الكتب الفيدية الأربعة وأهمها وأشملها .  
وهى قسمان : قسم يشمل أدعية وأناشيد وأوراداً منظومة يتلوها أتباع البرهمنية أمام الآلهة تضرعاً فى بعض المناسبات ، وتيمناً فى مناسبات أخرى متعددة تزيد عن الثلاثين إلهاً ، وأشهرها هو إلاله « أنذرا ، إله الآلهة ويتلوها فى الدرجة « أغنى ، إله النار ورأى الأسرة ثم الإله « فارونا ، .

فالاله سوريه ( الشمس ) وغيرهم ويسمى هذا القسم « منترا ، .  
وقسم يشمل تعاليم وشرائع تتعلق بالعبادات والمعاملات الدينية بطقوسها وشعائرها وطريقة ممارستها ويعد أهم مرجع فى دراسة الدين البرهمنى ويسمى هذا القسم « برهمانا ، أو برهمناس .

---

(١) الأسفار المقدسة . عبد الواحد وافي / ١٥٠ .

(٢) أديان الهند الكبرى د . أحمد ص ٤٢ .

٢ — ياجورفيدا أو ياجرش فيدا Yadjour veda (ومعناها المعارف والعلوم الهوائية أى المنسوبة للهواء) وهى أيضاً قسمان وكل قسم ينقسم هو الآخر إلى قسمين .

القسم الأول ويسمى « ياجور فيد البيضاء » ، هذا القسم يشمل جزءه الأول أدعية وابتهالات ينتجها الأنباغ إلى الآلهة فى بعض المناسبات ( منبرا ) وبشمل جزءه الآخر تعاليم تتعلق بالطقوس والشعائر الدينية وطريقة ممارستها ( براهمانا ) .

وماصح بالنسبة للقسم الأول يصح بالنسبة للقسم الثانى — « ياجور فيدا السوداء » ، من ناحية التقسيم . حيث يشمل جزؤه الأول أدعية وابتهالات ويشمل جزؤه الثانى تعاليم تتعلق بالطقوس والشعائر الدينية وطريقة ممارستها .

وطقوس الياجورفيدا تتضمن طريقة تقديم الضحايا والقرايين التى تحفظ الناس من الشياطين والأرواح الخبيثة التى يتوقعون شرها .

٣ — سامافيدا Samaveda ، ومعناها المعارف الشمسية أى المنسوبة إلى الشمس ، وهى أيضاً قسمان : قسم يشمل أغان وترانيم دينية يتغنى بها الأنباغ فى بعض المناسبات الدينية ، وقسم يشمل تعاليم الطقوس والشعائر الدينية وطريقة ممارستها .

آثار فيدا Atharveda وتشمل فى أحسب قسمها أدعيه وأناشيد للاستغفار والرقى ضد السحرو ضد الأرواح الشريرة خاصة مايتصل بالعلاقات الاجتماعية وتقسيمها إلى طبقات وتحديد الصفات التى تعين كل طبقة ومركزها ووظائفها عند البرهمنين .

#### كتب مقدسة أخرى

ويضاف إلى مجموعة الكتب الأربعة كتابا يلحقه بعضهم بالكتب

الفيدية فتصبح خمسة ، ويسمون هذا الكتاب « الفيدا الخامس » ، ويضم  
سفرين أو قسمين هما « الايتهازا » و « اليوراننا » ،

ولكن الصحيح كما يقرر ذلك الدكتور على عبد الواحد وافي (١) أن  
هذين السفرين وأسفاراً أخرى مثل « السوترا » و « البرهمانا » و « اليوبانيشاد »  
و « الفيدانتا » و « الأرانيا كاس » ، هي شروح وتعليقات على الفيدا ، وليست  
من أسفار « الفيدا نفسها » ، أنها قد ألقت في عصور متأخرة عن العصور التي  
ظهرت فيها أسفار الفيدا الأصلية .

فالبرهمانا ، مثلاً وهو أقدم هذه الشروح والتعليقات يمثل تفسيراً مفصلاً  
لقسم « الياجورفيدا » ، ويشتمل على مقالات تفيض في شرح الطقوس والشعائر  
الدينية التي يمارسها الكهنة ، ومن ثم كان من أهم ما يرجع إليه في دراسة  
الدين البرهمي .

أما « الأرانيا كاس » ، فيحتوى على الأسس والقواعد والتعليمات الفنية  
التي يجب على الكهنة مراعاتها أثناء الضفوس الدينية ، كما يشتمل على نصائح  
موجهة إليهم فيما يتعلق بالزهد والنسك واعتزال الحياة .

وكذلك « الأوبانيشاد » ، وهو أحدث تلك الكتب فيحتوى على الأفكار  
الفلسفية والنظرية التي أبدعتها تلك الديانة ، وطريقة عرضه على منهج السؤال  
والجواب بين تلميذ هو « شيلا » وأستاذ هو « جورو » ، حول تساؤلات  
عقلية هامة ، كالحقيقة الواقعية ، والمظاهر الخداعة التي لاتمثل الحقيقة ،  
وصدور التعدد عن الواحد وتخلص الإنسان من الكثرة وتفانيه في  
الواحد إلى غير ذلك .

ومن الكتب المقدسة الهامة في الديانة البرهمية « قوانين مانو » ، أو  
« ما نافادها رهاماسترا » ، الذي يحتوى تفصيلاً شاملاً للدين البرهمي ،

---

(١) الأسفار المقدسة ص ١٥٩ .

عقائده وعباداته ، ومعاملاته ونظمه الاجتماعية - سياسيه ، واقتصادا وتربية وقضا ، وأحزابا وقوانين مدنية وعقوبات ونظم تربية وأحلاق وعلاقات أسرية ، - كما يشمل على تاريخ نشأة الكون وخلق الإنسان وتقسيم الطبقات .

وهذا الكتاب يعد لدى البرهمن من الكتب المقدسة ذات المنزلة الخاصة التي تصل إلى الاعتقاد بأن مؤلفها أحد الآلهة الستة المنبشقين عن الإله الخالق أو المطلق «براهما» .

كما يعد من أهم المراجع للباحثين في الدين البرهمنى لاستيعابه جميع نواحي هذا الدين وشموله لجميع فروع الحياة ، واستمداده الأحكام من الكتب الفيدية نفسها كما أكد مؤلفه نفسه في مقدمته .

وينسب إلى مشروع قديم اسمه «مانو» ، أود مانافا، ولا يعلم تاريخ تدوينه على وجه الدقة ، وأرجح ما قيل في هذا الصدد من آراء أن مؤلفه عاش حوالى القرن الثالث عشر قبل الميلاد (١) ،

---

(١) المرجع السابق ص ١٦١ - ١٦٢

## مشمتملات الكتب المقدسة البرهمية تفصيلا

تشمتمل الكتب المقدسة البرهمية - كما رأينا إجمالاً - جميع جوانب الحياة البشرية ، فتعرض لكل جانب منها بالتشريع والتقنين والواجبات . ولا تكاد تدع فرعاً من فروعها إلا وتعرض له بشيء من ذلك . وقد آثرنا أن نعرض لهذه الجوانب على النحو التالى :

١ - العقائد . تفصيلاً لأهميتها وصلتها بموضوعنا .

٢ - العبادات - إجمالاً

٣ - الشرائع - إجمالاً

٤ - الأخلاق - إجمالاً

العقيدة البرهمية فى كنهم المقدسة :

مغالطة علمية :

لست أدرى كيف غفل علماء مقارنة الأديان خاصة القانائين منهم بتطور العقيدة من التعدد إلى التميز والترجيح ثم الوجدانية تبعاً لتطور العقل الانسانى ورقى معارفه .

كيف غفل هؤلاء عن الوجدانية المنزهة التى عرفها الهنود قبل جمع وتدوين الريحفيدا فقبل ذلك كما يقول د ما كس مولر ، الثقة الحجة فى اللغات الآرية . . د أيا كان العصر الذى تم فيه جميع الأناشيد المسطورة فى الريحفيدا فقبل ذلك العصر كان بين الهنود مؤمنون بالله الأحد الذى لاهو بذكر ولا بانثى ، ولا تحده أحوال التشخيص وقود الطبيعة الانسانية ، وارتفع شعراء الفيدا فى الواقع إلى أوج فى إداركهم لحقيقة الربوبية لم يترق اليه مرة أخرى غير أناس من فلاسفة الاسكندرية المسيحيين ، ولكنه فوق



هذا لا يزال أرفع وأعلى مما يطيف بأذهان قوم يدعون أنفسهم بالمسيحيين<sup>(١)</sup> .

كيف يفسر أصحاب اتجاه تطور العقيدة تبعا لتطور الحضارة والثقافة هذا الايمان المنزه ، في وقت لم يكن العقل الهندي العام فيه قد تخلص من تشبثات الاطفال ، فلا تزال توجد مع هذا الايمان طوطمية يقول عنها العقاد ( فعاشت عندهم الطوطمية في أرقى العصور كما عاشت في عصور الهمجية<sup>(٢)</sup> ) .

ولن يستطيع أحد من القانين بتطور العقيدة الانسانية ووصولها إلى مرتبة التوحيد على سلم التطور أن يعلل الامتزاج بين الطوطمية كعقيدة بدائية وبين التوحيد كعقيدة هي فئة الرقي العقائدي .

لن يستطيع أحد أن يعلل ذلك تعليلا علميا ، إلا أن يعبر على مغالطة مشوبة بغشاء من الظلمة الفكرية ، كما فعل العقاد بقوله ولكنهم خلصوا — كما خلص غيرهم من هذه العبادات إلى الايمان بالاله الواحد .

قال هذا في نفس الصحيفة التي قال فيها ( فعاشت عندهم الطوطمية في أرقى العصور كما عاشت في عصور الهمجية<sup>(٣)</sup> ) .

فليس أمامنا إلا منهجنا الذي سرنا عليه في بحوثنا في هذا الكتاب ، فلندرس العقيدة في كتب الدين البرهمي من خلال منهج علمي بحت .  
تقوم العقيدة البرهمية في كتب الفيدا وقرانين مانو على الاسس التالية .

١ — توحيد الله مع تعدد أسمائه وصفاته :

انتهت الكتب الفيدية إلى توحيد الله الخالق وتنزيهه عن النقص والفسك ،

---

(٢) المرجع السابق ٦٣

(١) الله للعقاد ص ٦٤

(٢) ص ٦٣ الله

وإن ذكرت له عدة أسماء وكثيراً من الصفات ، فهو وحده الموجود بحق ، ولا تمثل هذه الكائنات إلا مظاهر ، وآثاراً صدرت عنه ، وقد سرت منه روح في الجماد والنبات والنبات ، وهو في النهاية « براهما » الفاعل المطلق ، والخالق الأزلي الأبدي المنتصف بكل صفات الكمال الإلهية ،

وإليه وحده « براهما » يتوجه الاتباع بالعبادة « إندرا » .

وهذه أبيات من قصيدة مترجمة عن السنسكريتية من الريج فيدا أوردها الدكتور أحمد شلبي في أديان الهند الكبرى ص ٤٥ . تقول :

هو الأهل من كل شيء وهو الأسنى	إله الآلهة ذو القوة العليا
الذى أمام قدرته الغالبة	ترتعد الأرض والسموات العالية
أيها الناس استمعوا لشعري	إنما هو إندرا له الكسوف

❖ ❖ ❖

هو الذى قهر الشياطين فى السحاب	وأجرى الأقار السامية الصافية الكبار
واقترح كهوف الكتابة والأكدار	وأخرج البقرات الجميلة من الأرحام
وأضاء النار القديمة من البرق فى الغمام	ذلك هو اندرا البطل الجسور

❖ ❖ ❖

الجيش المتقدم للهيجاء	ينادية للضوء يوم الحرب
الاعزاء بصيته الذائع يهتفون	والاذلاء يذكرون أسمه بشفاهم ويهتفون
وفائد الجيش على العجلة الخريبة	يدعو ويستنصر إندرا إله الحرب

❖ ❖ ❖

الأرض والسماء تعترفان بسلطانه وكماله  
والجبال المرتعدة تخزله وتسجد لجلاله  
هو الذى يرسل صواعق السماء على أعدائه  
فلتهب إليه السكائب المقدسة

ويورد الدكتور علي عبد الواحد في « الأسفار المقدسة » ص ١٦٣ هذه الكلمات التي تقولها أسفار الفيدا على لسان براهما .

« إني أنا الله نور الشمس وضوء القمر ، وبريق الذهب ، ووميض البرق وصوت الرياح ، والعرف الطيب ينبعث في الأرجاء ، والأصل الأول لجميع الكائنات ، وحياة كل موجود . إني صلاح الصالح ، أنا الأول والآخر ، أنا الحياة والموت لكل كائن ، إني أنا الله الذي لا إله غيري ، رب الارباب مالك السموات والارض ، .

ويقول أبو الريحان البيروني في كتابه « الفلاسفة الهندية » .

« واعتقاد الهند في الله سبحانه : أنه الواحد الازلي من غير ابتداء ولا انتهاء المختار في فعله القادر الحكيم الخي المحي المدبر المبق ، الفرد في ملكوته - أي المنزه - عن الاضداد والانداد لا يشبه شيئا ولا يشبهه شيء (١) .

هذا وتوضح عقيدة التوحيد في أثرين من شروح الفيدا وهما اليوبانشاد الفيدانتا

وهذه العقيدة أي عقيدة التوحيد - يتشكك البعض في وجودها على شلى الحقيقة فينقل الدكتور أحمد شلبي في كتابه « أديان الهند الكبرى » رأيا للويس رينو في كتابه Hinduism, Ed يقول فيه : « ولكنهم في وسط هذا التدد كانوا يميلون أحيانا للتوحيد أو اتجاه قريب منه ، فكانوا إذا دعوا إلها من آلهتهم أو أثنوا عليه أو تهربوا إليه بقربان ، أقبلوا عليه بكل عواطفهم وجل ميولهم حتى يغيب عن أعينهم سائر الآلهة والارباب ، ويعلق

---

(١) ص ٣٠ وما بعدها تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود . وهذا الكتاب قسم من ثلاثة أقسام من كتاب البيروني المشهور « تحقيق مالهند من مقولة - مقبولة في العقل أو مردولة » .

عل هذا القول بكلام لمؤلف كتاب فلسفة الهند القديمة محمد عبد السلام الذى يصل الحديث بقوله « ويصير إلههم هو ذلك الاله لاخير ، فيسمونه بكل اسم حسن ويصفونه بكل صفة كاليه ، ويخاطبونه برب الارباب وإله الآلهة تمظيها وإجلالا لتحقيقا وإيقانا ، وإذا عطفوا إلى إله غيره أقاموه مقام الاول وجمعوه رب الارباب وإله الآلهة ، فهذا التعبير « رب الارباب أو إله الآلهة » كان أولادىل على العظمة والجلال ، فلما مضت القرون على هذا النحو أصبح هذا التعبير ثابت المعنى ، أى أنهم اعتقدوا فعلا أن وصف الآلهة رئيسا ومرءوسين وآمرًا ومأمورين ، وأن الرئيس والامر هو وحده رب الارباب وإله الإلهة ، وهذا وصف ثابت له لا ينتقل إلى سواه ، والكائنات كلها تحت يده . وسائر الآلهة تحت أمره (١) وحوالى القرن التاسع قبل الميلاد اتجه فكر السكته الهند إلى ابراز هذه النتيجة التى تقرب من التوحيد أو تصل إليه ، فقد جمعوا الآلهة فى إله واحد ، وقالوا انه هو الذى أخرج العالم من ذاته ، وهو الذى يحفظه إلى أن يهلكه ويرده إليه ، وأطلقوا عليه ثلاثة أسماء ، فهو براهما من حيث هو موجود ، وفشنو من حيث هو حافظ ، وهو سيفا من حيث هو مهلك (٢) ،

#### تفسير ذلك :

وفى اعتقادنا أن التوحيد المنزه سبق التوحيد المشوب بالريب . وأن الدافع إلى التشكيك فى حقيقة التوحيد الهندية إنما هو منهج القول بالتطور العقائدى والاصرار عليه فلما خالف توحيد الهند قاعدتهم لم يجدوا إلا التشكيك فى حقيقته ايصح منهجهم ، وهذه مغالطات علمية مكشوفة

(١) أنظر ص ٤٧ - ٤٨ اديان الحص الكبرى .

(٢) المرجع السابق نقلا عن كتاب دروس فى تاريخ الفلسفة ليو سنف و ابراهيم مذكور .

فالترديد المنزه وجد لدى الهنود وغيرهم ، لأنه يسكون وحيا أو قاعدة لدين صحيح أو اقتباسا منهما يصل إلى الناس في أى وقت ومع أى ظروف يدينية أو ثقافية ، ولا يخضع أبدا لقاعدة التطور العقائدى التى وضعها علماء مقارنة الأديان . هذا هو التفسير الصحيح لوجود التوحيد -تقرب ومع وقبل خضم التعدد والتشبيه والطوطمية وغيرها

فلا عجب أن نجد التثليث بعد التوحيد كردة عقائدية وتحريف لحقيقة الإيمان نتيجة تدخل الأهواء والنزعات البشرية .

وهذا ما حدث فعلا للبرهمية التى كانت فى أصلها وكما يبدو من نصوص كتبها المقدسة ديانة توحيد . لكنها تغيرت وحرفت على مر الأيام لأنهم زعموا أن براهما كان الوجود فى فضاء لانهاية له ، فرغب أن يكون كثيرا ، فخلق العالم بقوة إرادته وبفيض من ذاته ، وسمى نفسه الخالق ، ثم انبثق منه إله المدرس ، وهو إله « سيفا » الموكل بالخراب والفناء ، فلا يذر من شئ ، أتى عليه إلا جدله كالرميم ، ولو ترك هذا إلهه وشأنه لفدبت السموات والأرض ومن فىن ، ولهذا انبثق من براهما إله ثالث حافظ مجدد وهو إله « فيشنو » ، وبذلك أنمحت عقيدة التوحيد الأصلية فى الدين البرهمى ، واستبدل بها هذا الثلاث كما يقرر ذلك الدكتور على عبد الواحد وافي (١) .

## ٢ - وحدة الوجود :

تقرر المكتب المقدسة للدين البرهمى . أنه صدرت عن الله الواحد ، جميع الكائنات ، وسرت منه روح فى الجماد والنبات والحيوان ، فالوجود بحق هو الله وحده وليست هذه الكائنات إلا مظاهر منه ، وهذا ما يعبر عنه

---

(١) راجع الأسفار المقدسة ص ١٦٦ وما بعدها .

بنظرية وحدة الوجود التي انتقلت إلى التصوف الإسلامى ونظريات رجاله وخاصة ابن عربى والحلاج (١) .

فالفناء فى هذا المطلق ، والاتصال بهذه الروح العامة ، يمثل فى نظر الهنذى هدفاً أساسياً فى حياته إن لم يكن هدف حياته كلها ، فعرف الهنود من قديم الزمان الزهد المفرط ، وبإهاد النفس بالصوم وأرق الليل وتعذيب الجسد ، كطريق فناء فى المطلق والاتصال بالروح العامة .

وفى « الفيدانتا » تظهر فكرة وحدة الوجود التى يقوم عليها الدين البرهمى وتتضح الى حد لا يحتمل الجدل من خلال اشارات صريحة بأن الله والنفس الإنسانية وجميع الكائنات شىء واحد . مثل هذه العبارة « هذا الكون كله ليس الا ظهورا للوجود الحقيقى الأساسى ، وأن الشمس والقمر وجميع جرات العالم وجميع أرواح الموجودات أجزاء ومظاهر لذلك الوجود المحيط المطلق ، ان الحياة كلها أشكال لتلك القوة الوحيدة الاصلية ، وان الجبال والبحار والأنهار . . تفجر من ذلك الروح المحيط الذى يستقر فى سائر الأشياء (٢) .

### ٣ — انكار النبوة :

ذكر الشهر ستانى فى الملل والنحل القسم للثانى أن من عقائد البرهميين انكار النبوة ، ونسب ذلك الى رجل منهم يقال له « براهم » مهد لهم نبي النبوات أصلاً ، وقرر استحالة ذلك فى العقول بوجوه منها أن قال : ان الذى يأتى به الرسول لم يخل من أحد أمرين : اما أن يكون معقولا ، واما أن لا يكون معقولا ، فإن كان معقولا فقد كفى لنا العقل التام بإدراكه والوصول اليه فأى حاجة لنا الى الرسول .

---

(١) المرجع السابق ص ١٦٣ .

(٢) الفيدانتا ص ٤١ ، ٣٠ نقلا من أديان الهند الكبرى د. أحمد شلبى ص ٦٨

وإن لم يكن معقولا فلا يكون مقبولا ، إذ قبول ما ليس بمقول خروج  
عن حد الإنسانية ودخول في حريم الهيمنة (١) إلى غير ذلك من محاولات  
ادعاء قدرة العقل لإنساني على معرفة العقيدة الصحيحة والشريعة الصحيحة  
وقد رد عليه الشهرستاني في كلمات قليلة مبينا قصور العقل الإنساني  
عامة عن المعرفة الكاملة ، والهداية التامة ، وحاجة الإنسانية إلى رحمة الله  
بالنبوة مع العقل

ونضيف أنه العقل ، كما سبق أن قررنا يمثل قدرة معدة الإدراك والعمل  
كمثل سفينة حديثة مجهزة بأحدث أساليب الحركة والانتحاء والعمل ، فكل  
منهما لكي يصل إلى هدفه بدقة يحتاج إلى موجه يحدد المسار والطريق  
المستقيم الموصل إلى الهدف ، ولا يستغنى عن ذلك أبدا خصوصا وقد تعددت  
المسالك والطرق ، واختلفت المدارك والعقول ، فضلا عما وجد في الكيان  
الإنساني بجوار العقل من جانب حيواني ، يعاونه الهوى ، ويغذيه الغرض  
الذاتي . والدليل على ذلك مخالفة ما قرره منكروا النبوة للعقول أو لبعض  
العقول بشأن هذا الإنكار نفسه .

فلا يعقل أن تصل جميع العقول إلى إدراك شرع الله .  
كما لا يعقل أن تصل إلى تنزيه الله ونفى الشريك والند والولد مجتمعة ،  
من غير وحى يتلقاه فرد لا جميع الأفراد .  
فالعقل بحكم بضرورة النبوة والرسالة ، والهوى هو الذى ينكر النبوة .  
والرسالة .

ولا ريب أنه ان صح هذا بالنسبة للبرهمية كان دليلا على انحرافها بعد  
استقامة خصوصا وأن الشهرستاني نفسه يقول (ومن أهل الهند جماعة أثبتوا

---

(١) ج ٢ ص ٢٥٨ - ٢٥٠ الطبعة الثانية من سلسلة في الدراسات الفلسفية .

هتوسطات روحانية . يأتونهم بالرسالة من عند الله عز وجل في صورة البشر ، من غير كتاب . فيأمرهم بأشياء ، وينهاهم عن أهياء ، ويسن لهم الشرائع ، ويبين لهم الحدود . وإنما يعرفون صدقه بتنزهه عن حطام الدنيا ، واستغنائه عن الأكل والشرب والبعال - أى الجماع - (١) .

#### ٤ - تناسخ الأرواح :

يجمع المبراهيمية على الاعتقاد بتناسخ الأرواح بمعنى أن الأرواح الجزئية لا تفنى بالموت ، واسكنها تبقى بعده فارقتها للجسد الذى كانت فيه تنتقل إلى جسد آخر ؛ وهكذا تظل متعلقة من جسد إلى جسد فى طريقها إلى نهايتها الأخيرة ، وهى العودة إلى أصلها الذى صدرت عنه وهو (براهما) والاتصال به .

وأصل الاعتقاد بالتناسخ هو الاعتقاد بأن الروح الإنسانية ، هى الإنسان بالحقيقة ، وأما الجسد فهو زيف باطل ، ومن ثم فهى خالدة لا يصيبها الغناء الذى يصيب الجسد

وسبب الاعتقاد بالتناسخ وعلته فى نظرهم أولاً أن ما يأتى الإنسان فى حياته من أفعال يستتبع نتيجته بالضرورة : وذلك بما ينال روحه من النقص أو السكال ، ومن السعادة أو الشقاء ، فإن لم ينله شيء من ذلك ، فى دور حياته الذى وقع فيه ذلك الفعل ، ناله فى أدوار تالية ، تناسخ فيها روحه ، سواء فى أجساد إنسانية أو حيوانية حسب صلاح أعماله أو فسادها . حتى تتطهر الروح من شهواتها وأهوائها الفاسدة ، ونتائج أعمالها الناقصة ، وتكون بهذا التطهر مستعدة للاتصال ببراهما ، وانتهاء دورتها من الحياة الدنيا . ويعبرون عن هذه الفكرة بكلمة « كارما »



ثانياً : أن الروح بعد خروجها من الجسم تبقى لها أهواء وشهوات مرتبطة بالعالم المادى ولم تتحقق خلال دور وجودها فى جسدها ، وإذا كانت الميول قد خلقت لتستوفى ، فإذا لم تستوف فى دورة وجودها فى جسدها كان لابد أن تستوفى خلال التناسخ حتى تكتمل الميول ولا تبقى للانسان شهوة ماحتى تنجو روحه وتنطلق لتتصل ببراهما .

( من الشروط اللازمة لتجوال الروح وخلاصها على هذا النحو أن الروح فى عالمها الجديد لا تذكر شيطان عالمها السابق ، فكل دورة منقطعة تماماً بالنسبة للروح عن سواها من الدورات<sup>(١)</sup> ) ،

ومنزلة التناسخ وتجوال الارواح ( الكادما ) لدى البرهميين كمنزلة الشهادة عند المسلمين ، والتثليث لدى المسيحيين ، والأمسيات عند اليهود ؛ كذلك التناسخ عند البرهميين ، فمن لم ينتحله لم يك ولم يعد فى جملتها .

( ويؤيد البيرونى هذه القضية بنصوص من كتبهم فيقول : حقيق علينا أن نورد من كتبهم شيئاً من صريح كلامهم فى هذا الباب . . . قال ياسديو لارجن يحرضه على القتال وهما بين الصفيين : « إن كنت بالقضاء السابق مؤمناً ، فأعلم أنهم ليسوا ولا نحن معا بموتى ، ولا ذاهبين ذهاباً لارجوع معه فإن الأرواح غير مائتة ولا متغيرة ، وإنما تتردد فى الأبدان على تغابر الإنسان من الطفولة إلى الشباب والكهولة ثم الشيخوخة ، التى عقبها موت البدن ثم العود . . .

وقال له : « كيف يذكر الموت والقتل من عرف أن النفس أبدية الوجود لا عن ولادة ، ولا إلى تلف وعدم ، بل هى ثابتة . لا سيف يقطعها ، ولا نار تحرقها . ولا ماء يغصها ولا ريح تبيسها ، لكنها تنتقل عن بدنها إذا عتق

---

(١) أديان الهند الكبرى ص ٦٤ .

نحو آخر ليس كذلك ، كما يستبدل اللباس إذا خلق فإغملك لنفس لا تبديد ، ولو كانت بائدة فأحرى ألا تقم لفقد لا يوجد ولا يعود ، فإن كنت تلح البدن دونها وتجزع لفساده فكل مولود ميت عائد ... إلخ (١) .

وواضح أن عقيدة البعث والإيمان بالثواب والعقاب قد انحدرت وتراجعت في العقيدة الهندية حتى صارت على هذا النحو ، فالموجود منها الآن صورة مشوشة لعقيدة البعث والإيمان بالجزاء الصحيحة وسيوضح هذا أكثر عند حديثنا عن الجزاء الآخرون ، في الفقرات التالية :

هـ — عودة الأرواح إلى مصدرها الأول وهو الله .

تنتهى العقيدة البرهمية إلى تقرير : أن روح كل كائن تعود في نهاية مطافها إلى مصدرها الأول الذى صدرت عنه وهو الله ، ومادام الإنسان أحد هذه الكائنات ، فإن ما يجرى على الكائنات يجرى عليه . إذا تمت دورة روحه ، وتحلصت من تكرار المولد وتطهرت ، كان هذا إيذاً بامتزاجها ببرهما ، ويعبرون عن هذه الحالة بالانطلاق ، ويقصدون الامتزاج ببرهما كما تنطلق قطرة الماء عند ارتباطها بالحيط ، لأن الانفصال يعد قيوداً على الروح التى هى قطرة من نور الله . انفصلت عن الله إلى أجل لتعود على طريق التناصخ إلى الله أى إلى تحرير الروح بالانصال بالمطلق العام .

٦ — الجنة والنار .

يكون طبعياً مع ما تقدم من معتقدات البراهمة خاصة الاعتقاد بالتناصخ وعودة الروح إلى خالقها ، ألا يكون هناك جزاء آخرون غير هذه الدورة التناصخية والنهائية إلى الانصال بالله إلا أن الذى يثير التساؤل ويبحث على الغرابة أن يعتقد البرهميون في الجنة والنار فكيف ذلك .

---

(١) البيروني الفلسفة الهندية تحقيق د . عبد الحليم محمود ص ٥٣ وما بعدها .

يقول البيروني شارحاً عقيدة البرهمن في الجنة والنار : المجمع يسمى «لوك» ، والعالم ينقسم قسمة أولية إلى علو وسفل وواسطة فيسمى العالم الأعلى «سفلوك» ، وهو الجنة ، والعالم الأسفل «ناكارك» ، أى مجمع الحيات وهو جهنم ، ويسمى أيضاً يزلوك وربما سموه «بافال» ، أى أسفل الأرضين ، وأما الأوسط للاكتساب ، والأعلى للثواب والأسفل للعقاب وفى هذين الأخيرين يستوفى جزاء العمل من استحقهما مدة مضروبة بحسب مدة العمل ، والكون فى كل واحد منهما للروح وحدها مجردة عن البدن ، وللقاصر عن السمو إلى الجنة أو الرسوب إلى جهنم (لوك) آخر يسمى (ترجلوك) وهو النبات والحيوان غير الناطق يتردد الروح فى أشخاصهما بالتناسخ إلى أن ينتقل إلى الإنسان على تدرج من أدون المراتب الثامية إلى عليا المراتب الحساسة ، وكونها فيه على أحد وجهين : إما لقصور مقدار المكافأة عن محل الثواب والعقاب ، وإما لرجوعها من جهنم ، فعندهم أن العائد إلى الدنيا (من الجنة) متأنس فى أول حالته : والعائد إليها من جهنم متردد فى النبات والحيوان ، إلى أن يبلغ مرتبة الإنسان (١) .

وهكذا تم التوفيق بين عقيدة التناسخ وعقيدة الإيمان بالجنة والنار ، فأرواح الناس فى حياتهم الأولى تكون فى المنزل الوسطى منزلة العمل والكسب فإذا ماتوا ذهبت أرواح الخيرين منهم إلى المنزل العليا (الجنة) تستوفى فيها جزاء اكتسابها مدة معينة تساوى قيمة العمل والاكتساب ،

أما أرواح الشريرين فتذهب إلى المنزل السفلى (جهنم) تستوفى فيها جزاء ما كسبت مدة معينة تساوى قيمة العمل والاكتساب .

وبعد ذلك توزع الأرواح أرواح الخيرين تنتقل إلى آدميين آخرين أى ترجع إلى المنزل الوسطى وأرواح الشريرين تنتقل إلى الحيوان والنبات ثم تتدرج بالتناسخ وهكذا .

فالجنة والنار عند البرهمنين على هذا يكونان للروح وحدها مجردة عن البدن ويكونان مؤقبتين لمدة معينة ، ويكونان في الدنيا .

وهم يكثرون من عدد الجهنمات وصفاتها وأسمائها ويفردون لكل ذنب محلا حتى يصلون بها إلى ثمانية وثمانين ألفا ، ذكر البيروني منها ثلاث عشرة بأسمائها وما خصصت له ( فرود ) مثلا للكاذب وشاهد الزور ومن يعينهما على ذلك والمستهزئ بالناس و ( رودة ) لسافك الدم بغير حق وغاصب حقوق الناس ، والمغير عليهم وقاتل البقر . . . الخ . . .

ويذكر البيروني أيضا مذاهب أخرى للبرهمنين في الجنة والنار والجزاء . منها الاكتفاء بالتناسخ وهذا ما يراه بعضهم من أن جهنم ليست شيئا آخر غير الانحطاط عن البشرية وتردد روح الخاطئ في الحيوان والنبات (١) .

فالديانة البرهمنية كانت في أصلها وكما يظهر من نصوص كتبها المقدسة ديانة توحيد منزه عكر صفوها وحدة الوجود ( وقد زعمها بعض متصوفة المصلين كالحلاج ) وتناسخ الأرواح ورجوع الكائنات للاتصال بالخالق .

ولكنها تغيرت وحرفت على مر الأيام ، وحلت محلها عقيدة التثليث بزعمهم أن براهيم كان قبل الوجود في قضاء لانهاية له ، فرغب أن يكون كثيرا فخلق العالم بقوة إرادته وبفيض من ذاته ( نظرية وحدة الوجود ) وسمى نفسه الخالق ، ثم انشق منه الإله المدمر سيفا الموكل بالخراب والفناء فلا يندر من شيء أتى عليه إلا جعله كالريم ، ولو ترك هذا الإله وشأنه

---

(١) راجع الأسفار المقدسة للدكتور على عبد الواحد ص ١٦٩ والفلسفة الهندية للبيروني ص ٥٩ وما بعدها .

لفنيت السموات والأرض ومن فين . ولهذا انبثق من براهما إله ثالث حافظ مجدد وهو الإله « فيشنو » .

وبذلك انمحت عقيدة التوحيد الأصلية في الدين البرهمي . واستبدل بها هذا الثالث . ويتجه البرهميون الآن بمعظم عبادتهم إلى الإله « فيشنو » ، أصلهم جميعاً فيزعمون أنه قد أدى وظيفته وهى الخلق ، وأنه ينعم الآن بالراحة المطلقة الكاملة

وقد سرت صفة القداسة عندهم مع تقادم العهد إلى بعض الأنهار والجادات وبعض الحيوانات وعلى الأخص فصيلة البقر التى ينزلونها منزلة كبيرة من القداسة تقرب من درجة العبادة ويحرمون ذبحها ، ويعتبرون التعرض لها بأذى من أكبر الجرائم .

وسرت إليهم كذلك عبادة الأصنام التى ترمز إلى الآلهة أو إلى الملائكة و إلى السكواكب أو إلى القديسين ، وتفنونوا فى صنعها ، ووضعوا لاحتها قواعد ومقاييس مضبوطة تختلف باختلاف ماترمز إليه ، وأعطوا كلامها اسما خاصا وتقرّبوا إليها بالصدقات والقرابين ، كما ذكر الشهرستانى إنكارهم للنبوة كما سبق .

\* \* \*

كل هذا يدل على أن التوحيد والتزيه والعقيدة المستقيمة تتحول بتدخل البشر وأهوائهم إلى مثل ما رأينا من تراجع وردة دينية ، كما يدل على أن تطور العقيدة لا يخضع لناموس التطور الطبيعى إلا إذا كانت العقيدة من صنع البشر إما إذا تدخل الوحي فلا مانع من وجود التوحيد المنزه وسط خصم من الظلمة الفكرية والتخلف المادى .

## العبادات في في كتب البرهمن المقدسة

يتضح مما سبق عرضه حول العقيدة البرهمنية الاتجاه العام الذي يحكم العبادة في الدين البرهمنى وهو الاتجاه إلى الفناء في الله والامتزاج بالمخالق المطلق وعلينا الآن أن نبحث عن الأمور التي تحقق هذا الاتجاه وتخدم هذه الغاية .

### ١ - الصوم :

فإذا وجدنا الصوم والدعوة إلى الاكثار منه عرفنا أن البرهمنية أدركت أن الصوم يساعد على كسر حدة الشهوة الحيوانية للجسم وإضعاف القوى الجسمية وإضعاف سيطرتها على الإنسان . لتصفو الروح ففرضته على جميع الطبقات أو على بعض الطبقات في مناسبات عدة .

فمن ذلك أنها تفرض الصوم على طبقة رجال الدين الذين يطلق عليهم اسم البرهمنين في أوائل فصول الخريف والربيع والشتاء والصيف وفي اليومين الأول والرابع عشر من كل شهر قرى وروى في أسفارهم المقدسة كذلك أنه في أثناء كسوف الشمس يجب الكف عن الأكل والشرب والاتصال الجنسي ، وهذا فيما يتعلق بالطبقات الدنيا وأما الطبقات العليا ، فلا يقتصر واجبهم على ما تقدم . بل يحرم عليهم الانتفاع بشيء من الأطعمة التي تكون بمنزلة وقت الكسوف ويجب عليهم التصديق بها على غير أفراد طبقتهم بعد تحطيم الآنية التي كانت بها ، وتوجب قوانين مانو على طبقة السيناتا Sinata ( وهم كبار رجال الدين من البرهمنين ) أن يكفوا عن الأكل والشرب والنوم والسفر من غروب الشمس إلى غروب الشفق الأحمر كل يوم .

وهذا فيما يختص بالصيام المفروض على بعض الطبقات والصيام الذي يؤدي بمناسبة كسوف الشمس .

وأما الصيام العام فقد ذكر البيروني أنه عندهم تطوع ونوافل ، وليس شيء منه مفرضا ، وذكر له أنواعا كثيرة ، تختلف باختلاف مواقيتها الفلكية ومناسباتها الدينية . (١)

وخلاصة القول أن البرهمن يميلون إلى التقشف والورع والزهد في متع الحياة جملة ويعملون على ترويض الجسم وقمع شهواته بكل أساليب الحرمان .  
٢ - - الصلاة :

والصلاة تسبيح وتمجيد وسجدة برسمهم على الابهامين من الراحتين الملصقتين نحو الشمس فإنها القبلة أينما كانت عدا الجنوب فليس يعمل شيء من أعمال الخير نحو هذه الجهة ولا يتقدم إليها إلا في كل شيء ردى .

### ٣ - الحج :

وزيارة المواضع المعظمة عندهم واجبة على البرهمنين أما العوام فتطوع وفضيلة . وهو أن يقصد الحاج أحد البلاد الطاهرة ، أو أحد الأصنام المعظمة أو أحد الأنهار المطهرة فيغتسل بها ويخدم الصنم ويهدى إليه ويكثر التسبيح والدعاء ويصوم ويتصدق على البراهمة والسدنة وغيرهم ويحلق رأسه ولحيته وينصرف .

٤ - ويشتمل الدين البرهمي بجانب ذلك عبادات أخرى ، منها ما يشبه الصوم في تعلقه بالجسم ، ومنها ما يتعلق بالصوت ، ومنها ما يتعلق بالقلب . أما العبادات المتعلقة بالجسم فمن أهمها الصلاة وخدمة الملائكة وعلماء البراهمة ، وتنظيف البدن واحترام الحياة الانسانية واحترام الأعراض .

---

(١) راجع الأسفار المقدسة وعلى عبد الواحد ص ١٧٠-١٧٢ والفلسفة الهندية ص ١٣٠ وما بعدها .

وأما العبادات المتعلقة بالصوت فمن أهمها ، قراءة الأوراد والدعوات الدينية والتسبيح والصدق وملاينة الناس في الحديث وإرشادهم وأمرهم بالمعروف وأما العبادات المتعلقة بالقلب فمن أهمها تقويم النية وترك الكبرياء ولزوم التأني ، وجمع الحواس مع انشراح الصدر .

## الشرائع

أبرز شرائع الدين البرهمي النظم الطبقيّة التي تقسم المجتمع إلى فئات متفاوتة لكل فئة وظائف خاصة بها يتوارثها الأبناء عن الآباء .

تضمن ذلك كتب الفيدا وقوانين مانسو .

فتذهب إلى أن الإله براهما قد خلق الناس من أربع طبقات حيث أنشأ كل طبقة من طبيعة خاصة ، ومن موضع خاص من جسمه . فالبرهمنين (رجال الدين) من فمه ، والكشترين (رجال الحرب) من ذراعه ، والفيسائين رجال التجارة والأعمال من فخذه ، والشودرا أو المنبوذين من قدمه .

وتقسم الوظائف الاجتماعية بحسب منزلة كل طبقة وحسب شرف الوظيفة نفسها وأهميتها فالبرهمنين المخلوقين من أشرف جزء من الإله وهو الفم أرقى الوظائف وهي الوظائف الدينية ، فلهم وحدهم حق المنح والمنع والقبول والرفض ، وللكشترين المخلوقين من الذراع الذي هو أقل مرتبة من الفم الوظائف الحربية وحماية الشعب والذود عن حياض البلاد والمحافظة على الأمن والفسائين المخلوقين من الفخذ الأقل مرتبة من الذراع والغم القيام بتربية الأنعام وفتح الأرض وشئون التجارة ، وأما الشودرا المنحدرين من القدم الذي هو أخط جزء في جسم الإله براهما فليس لهم غير وظيفة الخدمة للطبقات السابقة . وهم مع ذلك رجس وبخس لا يصبح لمسهم ولا مؤاكتهم ولا مصاهرتهم ولا الارتباط بهم إلا برابطة السيد والمسود وفي أحياء كثيرة من الهند يعتبر مجرد لمس المنبوذ دنسا ورجسا وفي أحياء أخرى يلحق الدنس



والرجس بالشخص إذا مر به المنبوذ على بعد بضعة أمتار وديانة المنبوذين غير ديانة بقية الشعب وتنحصر في عبادة الأرواح وأعظم آلهتهم يظهر في شكل كومة من الآجر أو في هيئة أخرى ساذجة . وكما يتوارث الأبناء عن الآباء طبقتهم يتوارثون وظيفتهم .

وقد حاول غاندى أن يقضى عن هذه الفوارق فلم ينجح . ويرى البيرونى أن العائق الذى يحول بينهم وبين نظام الإسلام الذى يسوى بين الناس ولا يفضل أحد على أحد إلا بالتقوى .

وتوجد طبقات أخرى فرعية ذكرها البيرونى في قسم الفلسفة الهندية ص ٩١ وما بعدها (١) .

وبما تعنى به شريعتهم نظم الزواج والأسرة حيث يعتبر الزواج واجبا على كل قادر وتنظر إلى الأعزب نظرتها إلى عنصر فاسد حقاد ، ويعتقد البرهميون أن من يموت بدون عقب تتخطط روحه كمن يتخطط الشيطان من المس (٢) .

وتبيح هذه النظم الاستيلاء على المرأة بالقوة لاتخاذها زوجة كما تبيح أن يلحق الولد بجده لأنه نسبيا إذا اشترط ذلك في العقد . كما تبيح للمرأة الاتصال بزواج أختها لتحمل منه إذا كان زوجها عقيما . وتبيح أيضا اتصال المرأة برجل قوى نجيب لتأتى لزوجها بأولاد نجباء ياذنه ، وأن يشترك في المرأة عدة أزواج وخاصة إذا كانوا إخوة . ولا يزال هذا الاشتراك متبعا إلى الوقت الحاضر في الهند في عدة مناطق . وأما تعدد الزوجات الزوج الواحد فقد أباحتها جميع كتبهم المقدسة .

---

(١) الأسفار المقدسة ص ١٧٥ — ١٧٦

(٢) قصة الزواج والعزوبة في العالم د : على عبد الواحد وفي ٩ - ١٠

وتضع كتبهم المقدسة فيودا كثيرة على الطبقات حتى لا تتزاح طبقة من طبقة أخرى (١).

## الاخلاق

كما عُنيت العبادات الهندية البرهمية بالكيفية التي تحقق خلاص الروح وانطلاقها . عُنيت الاخلاص بذلك أيضا فكان الحرص على اعتزال الحياة وعلى الزهد في الدنيا كما كان الحرص على السلوك الفاضل الذي يمثل في جملة عشر دعاتم أساسية هي الوصايا العشر التالية ، مراعاة الكائن الإلهي ، ومقابلة الاساءة بالإحسان والقناعة والاستقامة والطهارة ، وكبح جماح الحواس ، ودراسة الفيدا ، والصبر والصدق واجتناب الغضب .

بالإضافة إلى اجتناب الرذائل التالية : وهي الكذب وشهادة الزور وسفك الدم بغير حق ، والاستهزاء بالناس وغضب حقوقهم والسرقة وقتل البقر والزنا وجماع المرأة في الأيام المعظمة وإتيان البهائم ، والأعضاء على فاحشة الزوجة طمعا في منفعة والاحتياال والغدر وعقوق الآباء والأجداد والصح والبخل على النفس وإخفاء المال طمعا في صلات الأمراء وإحراق بيوت الناس وقطع الأشجار وتقصير الأمراء في واجباتهم نحو رعاياهم (٢) .

---

(١) الأسرة والمجتمع د . على عبد الواحد ص ٧١ - ١٢٤ والبيروني

ص ٩٧ - ٩٨

(٢) راجع الفلسفة الهندية للبيروني ص ٧١ والامسفار المقدسة

د . على عبد الواحد ١٨٠ - ٨١

ويبدو أن الأخلاق البرهمية في جملتها تدعو إلى كثير من الفضائل التي يدعو إليها الدين السماوي وتنهى عن كثير مما ينهى عند الدين السماوي من رذائل ، مما يدل على أن لها أصلا صلة بدعوة دينية قديمة ثم أصابها يد التحريف ففرقت بين الناس ووضعت قواعد التفرقة العنصرية إلى غير ذلك من رذائل ينهى عنها الدين الصحيح .

## الجينية والبوذية

### أو المراحل الجديدة للبرهنية

ظهرت الجينية والبوذية كجركتين مضادتين للبرهنية خاصة فيما يتعلق بنظامها الطبقي وتفرقتها العنصرية ، فقد حول هذا النظام طبقة البرهمانيين إلى طبقة مستبدة ظالمة عانى من إستبدادها وظلمها الشعب بأسره وطبقة الشودرا خاصة ، حتى قاد هذه الثورة النفسية مصالحان أحدهما « مهاويرا » قائد الحركة الجينية وثنائهما « جوتاما بوذا » اللذان حولاً ثورة النفس إلى ثورة في الواقع والحقيقة .

#### مهاويرا والجينية :

ينحدر مهاويرا من أسرة من طبقة الكاشترايا التي تسيطر على شؤون السياسة والحرب ، وتحس باستبداد وظلم البرهمانيين للشعب الهندي عامة ولطبقة الشودرا خاصة .

وكان ميالا إلى رفض الترف والملاذ المتوفرة لأسرته راعياً في الرهينة والتبتل والزهد إلا أن مكانة أسرته لم تسمح له بالتعمق في الرهينة والخوض في أسرارها التي احتكرها البرهمانيين .

فكان يغرق في المراقبة إلى حد يجعله لا يحس بنفسه ، ولا يشعر بشيء مما حوله ، وذهب يتجول في البلاد ، حتى تهيأت له المسكاة التي يستطيع أن يبدأ بها دعوته ، فبدأ بأسرته وأهل مدينته الذين استجابوا لدعوته ، وأخذت دعوته تنمو بين الملوك والأمراء والقواد الذين رأوا في هذه الدعوة تعبيراً عما يحول بنفوسهم من زغبة في الثورة على البرهمانيين .

وظلت دعوته تواصل نجاحها حتى قضى نحبه سنة ٥٢٧ ق م وحيداً في خاوته

ويقال بأن مهاويرا كان آخر أربع وعشرين داع للجينية وأن الجينية مذهب قديم جداً (١).

عقائد الجينية تحررت الجينية من سلطان الكتب الفيديّة المقدّسة وخرجت عليها ، فلم يعترف مهاويرا بالآلهة ظلنا منه أن هذا هو الطريق لرفض طبقة البرهمنين ، وبالغ في هذا ، شأنه في ذلك شأن الحاقدين الذين ملأ الحقد قلوبهم وسيطر على عقولهم ، فراحوا يرفضون الشيء وما يتصل به إرضاء لحقدهم ، ولهذا قرر مهاويرا أنه لا يوجد روح أكبر أو خالق أعظم لهذا الكون ، وسميت الجينية بهذا دين الحاد رفض صاحبه طبقة البرهمنين ، ورفض معهم الآله إلا أنه أبقى بعد ذلك كل ما لا يتعارض مع عواطفه المتقددة بالحقد فلا يزال الاعتقاد بالتناسخ ، ولا يزال بالزهد طريق الخير ، والسلام شعار الجينية حتى تبالغ في البعد عن العنف ، لدرجة يكرهون معها قتل الهوام والحشرات . وعدم العنف عهد من العهود الأربعة التي وضعها بارسوانات وهو جينا الثالث والعشرون ، وعلى طريق المشاملة هذه اعترف الجينيون بآلهة الهندوس فيما عدا الثالوث واحترموها للمجاملة والمسامحة . كما احترموا طبقة البرهمنين تقديراً لمكائهم عند الهنود لكن الفطرة الانسانية لا تستغنى عن الآله والعقل الانساني لا يستريح للانكار التام للألوهية ، فانتهت الجينية إلى اعتبار مهاويرا إلها : بل عدوا الجينوات الأربع والعشرين آلهة لهم

وطبيعى أن يؤدي إنكار الآله إلى إنكار الصلاة وإلغاء القرابين ، ولا يعترفون بالطبقات ، ولا بما تدعيه لنفسها الطبقة العليا في النظام الهندوسى وهى طبقة البرهمنين من امتيازات واستثناءات .

---

(١) راجع الأديان الكبرى في الهند ( أحمد شلبي ص ١٠٧ - ١١٣ )

وأباحوا الانتحار بل اعتبروه غاية أو جائزة لانتاح إلا خاصة الرهبان الذين اتبعوا الجينية كما أباحوا العرى .

وكان الماركسية المعاصرة واقع جديد للجينية مستتهى إلى عبادة ماركس ولينين وغيرهم من أقطاب النظام الشيوعى . لا فرق بينهما إلا أن الجينية لأنها لم تعتمد على الإكراه ولم تستغل ظروف المجتمعات الفقيرة لم يزد أتباعها عن المليون وكلهم فى الهند .

أما الماركسية فتستغل الفقر وتمنى أصحابه بحال أحسن من حاله ، كما تحاول أن تساهم فى إفقار الدول لتجد قبولاً للماركسية . مما ساعد على كثرة أتباعها . فالماركسية كالجينية — ثورة حاقت ضد طبقة فامدة أنكرت بوحي من حقدها الأديان وتعاليمها إجمالاً وتدين بالماركسية وهادنت الأديان والطبقة فى المجتمعات غير الشيوعية مسالمة ... إلخ .

بوذا والبوذية :

أما جوتاما بوذا فقد كان أحد أبناء عائلة غنية تحكم مقاطعه صغيرة على منحدرات الهملايا ، وقد تسالت الى عقله أفكار اختلطت بمرارة الواقع الطبقي حينما التقى برجل من أولئك الزهاد الذين يكثرون وجودهم ببلاد الهند حتى قبل أيامه ، والذين يتبعون فى عيشهم قواعد قاسية ، ويقضون معظم أوقاتهم فى التأمل والوعظ والمناقشات الدينية التى تحيى أعماق النفس الانسانية وتنبيه العقل الباحث عن الحقيقة .

فاستولت على جوتاما رغبة شديدة وملحة فى الجرى وراء الحقيقة وشعر أن الحياة التى يحياها ليست هى الحياة الحققة ، وأن ما قضاه منها كان عطلة دامت أكثر مما ينبغى . فقرر هجرها والانطلاق وراء البحث والاحتذاء حذو الزاهد .

تقول القصة كما يرويها هـ وبلز (١) إنه كان يتفكر في هذا الأمر، عندما بلغه أن زوجته الجميلة وضعت بكرأبنائه، فقال جوتاما: «وتلك رابطة أخرى لامر من فصمها».

عاد إلى القرية بين تهاليل أبناء عشيرته ومظاهر إبتهاجم، وأقيمت وليمة عظيمة ورقصت الراقصات إحتفالاً بميلاد هذه الصلة الجديدة ولكن جوتاما استيقظ في أعماق الميل والآنم الروحى العظيم يلذع فؤاده «وكانه رجل أبلغ نبأ اشتعال النار في منزله».

فصمم على أن يهجر منذ اللحظة حياته المرفهة التى لا هدف لها، إلى حياة البحث والشقاء لتحقيق هدفه.

فتسلل إلى غرفة زوجته، فرآها على نور قنديل زيت صغير وهى ترقد كالوردة الجميلة تحف بها باقات الزهور وبين ذراعها طفله الرضيع، عند ذلك شعر بحنين عظيم أن يحمل الطفل ويعانقه عناقاً يكون هو الأول والأخير، ولكن خوفه من إيقاظ زوجته منعه من ذلك، وأخيراً ولى ظهره وخرج إلى ضياء القمر الهندى الساطع وامتنطى جواده وانطلق إلى العالم.

سار فى تلك الليلة شقة بعيدة، حتى إذا أسفر الصبح توقف خارج أراضي عشيرته، وترجل على ضفة نهر رملية، وهناك قطع بسيفه ذوائبه المتهدلة وأماط عنه كل حلية، وأرسلها مع حصانه وسيفه إلى منزله، ثم واصل سيره حتى التقى - للوقت - برجل فى أسمال وتبادل وإياة الثياب، حتى إذا تم له بذلك تجريد نفسه من كل العوائق الدنيوية، أصبح حراً فى متابعة بحثه وراء الحكمة.

واتجه جنوباً إلى مشوى للنسك والمعلمين يقوم على طنّف (مانتا من جبل)

---

(١) مرجع تاريخ العالم ص ١٢٢ وما بعدها

بين التلال بجبال الفندھيا ، وهناك كان يعيش عدد من الحكماء في منطقة من الكهوف ، ويذهبون إلى المدينة طلباً لمستلزماتهم البسيطة ، ويدلون شفويّاً بما لديهم من المعرفة لكل من يعنى بالحضور إليهم . وأصبح جوتاما ضليعا في كل علوم ماوراء الطبيعة في عصره ، غير أن ذكاه الوقاد لم يقنع بالحلول التي قدمت إليه .

والعقل الهندي ميال منذ القدم إلى الاعتقاد بأن القوة والمعرفة يمكن الحصول عليها بالزهد المفرط أى بالصوم وأرق الليل وتعذيب النفس .

فلجأ جوتاما إلى اختبار هذا الاعتقاد ، وانطلق مع خمسة من رفاقه التلاميذ إلى الغابة ، وهناك استسلم للصيام ورهيب التفكير ، وطار صيته وذاع

يبدأ أن ذلك لم يقنعه ولم يجلب عليه أى شعور بالفوز بالحقيقة . وبينما هو يسير ذات يوم ذهاباً وإياباً ، محاولاً أن يفكر على الرغم مما هو عليه من وهن ، غاب عن وعيه فجأة ، حتى إذا أفاق من غشيته ، تجلّت أمام ناظره سخافة استخدام هذه الطرق شبه السحرية للوصول إلى الحكمة .

فالتقى الرعب في أفئدة رفاقه بطلبه الطعام العادى ورفضه مواصلة تعذيب نفسه ، ذلك أنه تحقق أن خير الوسائل لبلوغ أية حقيقة هي العقل الجيد التغذية في جسم سليم .

وكانت مثل هذه الفكرة غريبة غرابه مطلقة على أفكار البلاد والعصر — بل ضد ميراث طويل من الاعتقاد في الزهد كطريق يحقق القوة والمعرفة — فهجرة تلاميذه ، وذهبوا إلى بنارس في حالة حزن وقنوط ، وأخذ جوتاما يتجول بمفرده .

والمثل عندما يضطرع مع مشكلة عظيمة ومعقدة ، فانه يتقدم في سبيل الفوز خطوة في أثر خطوة — أى يبطئ — دون أن يدرك إلا قليلاً قدر



المكاسب التي أحرز ، فإذا هو يدرك نصره ويحققه على حين بغيته ، مع احساس بالاستنارة المفاجئة ، وهذا هو ما حدث لجوتاما ، فانه جلس يتناول طعامه في ظل دوحة عظيمة إلى جوار أحد الأنهار ، وإذا بهذا الشعور بالرؤية الصافية يحل به ، فلاح له أنه يرى الحياة نقية واضحة ، ويقال أنه جلس طيلة نهاره وليله في تفكير عميق ، ثم قام ليبلغ العالم رؤياه .

فذهب إلى بنارس وهناك جد في البحث عن تلاميذه الذين هجروه حتى وجدهم وأقنعهم ثانية بتعاليمه الجديدة ، فشادوا لأنفسهم في حديقة الغزلان الملكية بينارس أكواخا ، وأقاموا مدرسة وفد إليها كثيرون ممن كانوا يطلبون الحكمة .

#### تعاليمه :

وكانت نقطة البداية في تعاليمه هي السؤال الذي وجهه لنفسه كشاب حالفه التوفيق : « لماذا لا أحس بسعادة تامة ؟ » .

وهو سؤال ينطوى على محاولة تعرف بواطن النفس ، لكنه يختلف اختلافا كبيرا في النوع - عن حب الاستطلاع الصريح المنطوى على نسيان الذات والتوجه نحو العالم الخارجى ؛ حب الاستطلاع الصريح الذي كان طاليس وهيراقليطس يحاولان به تفهم مشاكل الكون ؛ كما يختلف كثيرا عما يعادل ذلك من نسيان للذات يتجلى في صورة تحمل أعباء الالتزام الخلقى الذي كان أواخر الانبياء يفرضونه في العقل العبراني فرضا ( كما يقول هجويلز ) (١) .

فالمعلم الهندي لم ينس « النفس » بل اكد ركز على النفس اهتمامه وحاول أن يدمرها ، وعلم الناس أن كل ما يعانيه الفرد يعود إلى رغباته المشوهة ..

حتى يخضع المرء لتهافته الشخصية لحياته متاعب ونهايته شجن .

والتلهف على الحياة يتخذ أشكالا رئيسية ثلاثة كلهن شر ، فأولها حب الشهوات والشراسة وجميع أنواع الاحساسات الجسدية ( الغرائز ) وثانيها الرغبة في الخلود الشخصي والأناي، وثالثها التهافت على النجاح الشخصي وحب الدنيا وما إليه ، ولابد من التغلب على أنواع هذه الرغبات ، التماسا للفرار من محن الحياة وأشجانها ، فإذا تم قهرها واختفت النفس تماما ، بلغ المرء مرتبة « البرفانا » أى صفاء النفس وهى أعلى درجات الخير ، تلك خلاصة مذهبه يملق على ذلك ه . ج . ويلز قائلا : ولا شك أنه مذهب خفى جدا وميتافيزيقي وهو لا يكاد يدانى فى سهولة الفهم وصية الفلسفة الاغريقية التى تدعو الناس أن ينظروا ويعرفوا بلاخوف ، وبانظرية الصائبة ، ولا الوصية العبرانية الآمرة بخوف الله وإتيان البر .

كان تعليمها يعلو كثيرا على فهم تلاميذ جوتاما المتصلين به اتصالا مباشرا فلا عجب إذن أنه ما كاد نفوذ هذه الشخصية يزول حتى داخل المذهب الفساد والغلط ، وكان أهل الهند يعتقدون فى ذلك الزمان بأن الحكمة تهبط إلى الأرض على فترات طويلة ، وأنها تتجسد فى شخص مختار يسمى « البوذا » وأعلن تلاميذ جوتاما أنه بوذا وأنه خاتم البوذوات ، وإن لم يقم أى دليل على أنه هو نفسه قبل اللقب ، ولم تؤكد تنقضى على وفاته فترة وجيزة ، حتى أخذت مجموعة ضخمة من الأساطير الخيالية تنسج من حوله . ومع ذلك فإن العالم فاز بكسب جوهرى . فى اعتقاد ويلز فإن الناس كانوا يستطيعون على الأقل أن يدركوا شيئا من المقصود مما كان جوتاما يسميه باسم « الطريق ذى الشعب الثمان » وهذا الطريق ينطوى على الاصرار على الاستقامة الذهنية وعلى الأهداف الصائبة والكلام الصائب وعلى السلوك الصائب ، والتعيش الشريف ، وبفضله تم انعاش الضمير ، وظهر اتجاه نحو الأهداف الكريمة المنطوية على نسيان الذات فقال بوذا بالغاء الطبقات ، ولم يعترف بهذا التقسيم الطبقي ، وهاجم

المعتقدات والطقوس التي تتبع في هذا الشأن ، وأعلن أنه اكتسب الحكمة  
بجهود جبارة فيما سبق له من الحياة على هذه الارض دهورا وأحقابا بتعدد  
المواليد ، وهو يرشد أتباعه إلى نظام يضمن الرقي الاخلاقي ولا يدعوهم إلى  
دين كسائر الاديان ، يكشف لاتباعه سبيلا ولا يقرر عقيدة . . . فبوذا  
يؤسس دعوته على حصوله على المعرفة أو بعبارة أخرى على تجربته الروحية  
التي لا يمكن بيانها بالالفاظ فدعوته حكاية عن تجربته ، وعن الطريق المؤدى  
إليها ؛ وهو يقول إن الحق لا يعرف بالنظريات ، بل بالسير في طريقه .

وعلى هذا لم يعن بوذا بالحديث عن الاله ، ولم يشغل نفسه بالكلام عنه  
اثباتا أو إنكارا وتحاشى كل ما يتصل بالبحوث اللاهوتية وما وراء الطبيعة ،  
والقضايا الدقيقة في السكون وكان ينهى أصحابه وزواره أن يخوضوا في هذه  
الآبحاث ، ويوجههم على سؤالهم عن قضايا دقيقة مجردة ، ويأمرهم بالخوض في  
أعمالهم ودواعيها ، وميولهم وعواطفهم وعواجلها .

ولكن بوذا اتجه أحيانا إلى جانب الإنكار أكثر من اتجاؤه إلى جانب  
الاثبات . . . ومن أجل إهمال الاله أو الاتجاه إلى نكرانه أحيانا اتجه براهمة  
عصره إلى وصمه بوصمة الإلحاد .

لكن النفس كما سبق أن قررنا - لا تصبر على ذلك كثيرا ، فاتجه بعض  
أتباع البوذية إلى القول بأن روح الله قد حلت ببوذا .

دين جديد :

إلا أن عدم اتجاه بوذا إلى التهجم على الآلهة أو إلى إنكارها إنكاراً  
مباشراً وواضحاً ، كان سبباً قوياً في سرعة انتشار البوذية في الهند ولعدم  
تعارضها مع آلهة الهنود ، وعلى هذا كان كثير من الهنود يتبعون البوذية  
في أخلاقها ومع ذلك يحافظون على ولائهم لآلهتهم ، حتى اختلطت البوذية  
بالبرهمية ، ونج عن هذا الاختلاط دين من صنع البشر ، يقبل كل فلسفة

وكل تفكير ويؤاخي كل الديانات والمذاهب « هو جنائيوجا ، الذي يتسع لمعتقدات الجميع ويطلقون عليه الآن « اليوجا » .

وهناك كثير من المغرضين ودعاة الهدم يحاولون احتواء الاسلام بهذا المذهب . يقول العقاد : وعلينا أن نحترس من مغالاة الشراح الأوربيين بهذه الفلسفة البوذية ، لأنهم يتعصبون لكل منسوب إلى الآرية على اعتبارها عنصر الآريين الأقدمين والمعاصرين فقد رفعوها فوق قدرها بلا مراعاة وزعموا أنها جراءة العقل الكبرى ، (١) .

#### انتشار البوذية بعد انكماشها :

انتشرت البوذية في حياة بوذا بين الطبقات العليا والطبقات الدنيا على السواء أما طبقة الأمراء والجنود فقد وجدوا فيها تنفيذا لكرهيتهم لسلطان البرهمنين وتسلطهم وأما الآخرون فقد وجدوا فيها نخلصا من معاناتهم من الاضطهاد والاحتقار .

ولكن البوذية بدأت تنكمش بعد وفاة بوذا ، إذ بدأت فيها ثغرات وفجوات لم يجد لها الناس اجابة - كموقع الألوهية مثلا .

إلا أنه بعد انقضاء بضعة أجيال ، تمكن تلاميذ بوذا وأتباعه من سد هذه الثغرات ، ومله هذه الفجوات إما بالاعتراف بآلهة الآخرين أو بتأليه بوذا وعبادته ، واحتلال تمثاله مكانا بين آلهة الهند المتعددة .

وبعدئذ ما لبثت هذه التعاليم أن حييت ، خصوصا بعد أن استولت على لب ملك من أعظم الملوك الذين شهدهم العالم كما يقول

---

(١) الله ص ٧٠ وارجع إلى أديان الهند الكبرى ص ١٧٠ .

هـ ج ويلز (١) وهو الملك آسوكا الذى دام حكمه للهند ثمانية وعشرين عاما ، فتبنى مذهب البوذية ، واهتم بجانبها السلى ، وأعلن أن قوة بلاده وقدرتها على الفتوح ستكون منذ ذلك الحين فتوحا فى ميادين الدين بطريقة سلمية عملية ، فحفر الآبار وزرع الأشجار وأسس المستشفيات والحدائق العامة والبساتين التى تربي فيها الأعشاب الطبية ، وأنشأ وزارة للعناية بأهالى الهند الأصليين وأجنتاسها الخاضعة ، واتخذ العدة لتعليم النساء وخصص هبات خيرية هائلة لهيئات التعليم البوذية ، وحاول أن يعشهم على نقد المؤلفات الدينية المتكسدة لديهم نقدا أحسن وأقوى أثرا .. وانطلقت البعوث الدينية من لدن أسوكا — أعظم الملوك كافة ، كمتعير ويلز — إلى كشمير وفارس وسيلان والإسكندرية .

ولكن آسوكا لم يخلف من ورائه من يواصل جهوده ، لذا لم تسكد تنقضى مئة عام على وفاته حتى صارت أيام حكمه العظيمة ذكرى مجيدة فى بلاد الهند التى عبثت بها أيدي الترق والانحلال ، لقد كانت طائفة الكهان البرهمانية وهى أعلى طوائف المجتمع الهندى وأكثرها امتيازات ، مناهضة على الدوام لتعاليم بوذا ، فراحوا يقوضون على التدرج نفوذ البوذية فى البلاد ، واستردت الإلهة القديمة سلطانها ، هى والعقائد الهندوكية التى لاعد لها ، وأصبح نظام الطوائف أشد قوة وأعظم تعقيدا وبعد قرون طويلة ازدهرت فيها البوذية والبرهمانية أحدهما إلى جوار الأخرى ، أخذت البوذية تضمحل ببطء ، وأخذت البرهمانية تحل محلها متخذة عددا كبيرا من الصور والأشكال ، بيد أن البوذية انتشرت خارج حدود الهند بعيدا عن

---

(١) راجع أديان الهند الكبرى ص ١٣٧ وما بعدها . وموجز تاريخ العالم ص ١٢٠ وما بعدها ، والأديان والمذاهب الشرقية ص ٥٧ وما بعدها ، والله للعقاد ص ٦٦ وما بعدها وقصة الدراما الهندية — محمد فكرى ص ٦ وما بعدها .

سلطان الطوائف حتى اجتذبت إليها بلاد الصين ، وسيام ، وبورما ، واليابان ،  
وهى بلاد لا ترح البوذية سائدة فيها إلى اليوم (١) .

#### خلاصة القول :

عُثت يد البشر كثيرا بهذه الصور التي سميت أديانا سواء كانت برهمية  
أو جينية أو بوذية ، وكانت نتيجة هذا العبث معاناة الإنسان من ظلم الإنسان  
باسم الطبقات والطبقة ، أو باسم تعاليم الآلهة المتعددة التي صنعها الإنسان  
بوحى من ضعفه وعنصريته وغرائزه وأهوائه ، فكان البشر يميلون إلى  
الآله الذي يرضى غرائزهم . أو يشبع أهواءهم .

وقد حاول أذكىاء البشر أن يخلصوا الإنسان من آلامه ، فرفضوا جمع  
الآله كالجينية ، ، فكانت النتيجة أسوأ وأكثر إيلاما ، أو اعترفوا  
بها جميعا دون أن يكون لهم تأثير أو تدخل في حياة الناس كالجنائينوجا ،  
فبقيت العقول تتسائل وتبحث عن الحقيقة الكبرى ، وسر الالتزام .

ولا يزال الإنسان قلقا حائرا خاصة ذلك الإنسان المثقف الذي يلحظ  
بسهولة تناقض البوذية مع نفسها وعجزها عن الاجابة على معظم تساؤلات  
العقل الناضج .

وتحاول الدول الكبرى أن تستغل هذه الحيرة ، وأن تجتذب الإنسان  
المتردد في هذا العالم الواسع ، فالمسيحيون يبذلون وسمهم مدعين أن المسيحية  
قادرة على إزالة حيرة الإنسان وآلامه ، والشيعيون يدعون نفس الدعوى ،  
ويحاولون نفس المحاولات ، إلا أن المسيحيين يصدقون الكثير على مراكز

---

(١) راجع أديان الهند الكبرى ص ١٣٧ وما بعدها ، وموجز تاريخ  
العالم ص ١٣٠ وما بعدها ، والأديان والمذاهب الشرقية ص ٥٧ وما بعدها ،  
والله للعقاد ص ٦٦ وما بعدها ، وقصة الدوراما الهندية ، محمد فكري ص ٦  
وما بعدها .

التبشير بالمسيحية ، والغلبة للأقوى وللأكثر قدرة على العطاء في هذا العصر .  
لكن الغيب لا يزال يحمل المجهولات والعجائب .. لأن الاسلام الذى يحمل  
الاجابات العلمية على كل التساؤلات التى تصدر عن العقل الانسانى فى كل  
زمان لا يعجزه عن الحوكمة غير حكوماته التى اختارت الدنيا لنفسها ، ولأتابعه  
لأفراد شعوبها وشعوب العالم ، فعجزت هذه الحكومات عن تحقيق التقدم  
والثراء للشعوب الاسلامية ، وهما عماد الحركة الفردية والاجتماعية ، وإلى  
أن يتحقق هذا يبقى الإنسان نهبا للصراعات المادية وللزيف المؤيد بالأساليب  
العلمية ، وللأكراه العقل المصحوب بالعطاء المادى والمعنوى ، من جانب  
المبشرين رسل الدول الثرية المتقدمة .

\* \* \*

## الفصل السادس

### نقد نظرية التطور في ضوء

### معتقدات قدماء العرب

انحراف العرب عن دين إبراهيم — عبادة الاصنام والاونان  
تعدد المعتقدات العربية — تعدد الاصنام واختلاف أسمائها باختلاف القبائل



تمهيد :

وجدت المعتقدات العربية على نحو يشبه معتقدات قدماء الهنود ومعتقدات قدماء المصريين، من حيث ظهور المعبودات الكثيرة تارة حتى كان لكل قبيلة معبودها الخاص ، وقلة المعبودات تارة أخرى حتى عرف الإله الواحد الذى يتقرب إليه العربى فى كل البلاد العربية وإن اختلفت مظاهر هذا التقرب

كما التقت عبادة الأصنام مع عبادة مظاهر الطبيعة ، مع الاعتراف بالخالق فى وقت واحد ، ووجد من العرب منكروا الخالق والبعث والاعادة وإرسال الرسل مع من يقر بالخالق وابتداء الخلق والابداع . إلخ . فى بيئة واحدة ، الامر الذى ينقض فكرة تطور الاديان تبعا للتطور الفكرى والحضارى أو الثقافى من أساسها ، فيظهر بذلك فساد هذه الفكرة ويتأكد لنا : —

١ — أن التوحيد والإيمان بالخالق والبعث والحساب وغير ذلك مما يتصل بالعقيدة الصحيحة الواردة من طريق الوحي الصحيح أمر عرفه الإنسان منذ وجد على ظهر البسيطة ممثلا فى آدم أبى البشرية وأول الانبياء الذين تلقوا هذا الوحي .

٢ — أن العبادات المنحرفة كالأرجعة فكرية لا تنتظر الرجعة الحضارية ولا تقترن بثقافة مدنية ، ولا ترتبط ببيئة خاصة .

٣ — أن المعتقدات التى يصنعها الإنسان أو يتدخل فى صنعها لا تنتهى بنفسها إلى التنزيه الحكامل للإله الحق وما يأمر به وما ينهى عنه بل لابد من

وحى صحيح ينبى هذه المعتقدات من كل تشويه أو تحريف أو انحراف بشرى كل هذه الأمور تكشف عنها دراسة معتقدات قدماء العرب كما كشفت عنها دراسة معتقدات قدماء المصريين وندماء الهنود وغيرهم ...

### انحراف العرب عن العبادة الصحيحة :

تميز معتقدات قدماء العرب بوضوح صورة الانحراف عن العبادة الصحيحة إلى عبادة الأوثان والحجارة وغيرها من مظاهر الوثنية .

ذلك الوضوح الذى يكشف عن صورة وكيفية الانحراف والتراجع الإنسانى ، والردة الفكرية الدينية ، من غير أن يرتبط هذا التراجع وذلك الانحراف بنوع الحضارة المادية ، أو التقدم الشكلى الإنسانى .

فقد عرفت مكة من رسالة إبراهيم ( ﷺ ) ذلك الدين الصحيح الذى يوحد الخالق وينزهه عن كل نقص ، ويصفه بكل كمال ، ويعطيه القدرة على إرسال الرسل ، وإحياء الناس بعد الموت ، وسؤالهم عما قدموا من خير وشر ومجازاتهم على أعمالهم بالجنة أو بالنار ... إلخ ...

وكان لسكنى إسماعيل بن إبراهيم فى مكة تأكيد لبقاء هذا الدين الصحيح الصادر من وحى صحيح ، حتى ولد له ولقبيلته ما جعل مكة تضيق بهم فبدأ الصراع المادى يسيطر على أفكارهم وتصرفاتهم ، وبدأ الهوى يحكم تفسيرهم للدين ، فاستباحوا محاربة بعضهم البعض بعد استباحتهم العداوة بعضهم لبعض وكل فريق يحاول أن يدعى لنفسه الحق دون الآخر فأخرج بعضهم بعضا ، وتوزع الخارجون فى البلاد ...

فأخرجوا إلأوهم كارهون ، وكان من تصرفهم للتعبير عن الرابطة المقدسة التى تربطهم بمكة : أنه كان لا يظن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة البيت العتيق أو البيت الحرام تعظيماً للحرم ، وصباية بمكة ، فحيثما حلوا وضعوا ماحملوه من حجارة وطافوا به كطوافهم بالكعبة

ثيما منهم بها ، وصباة بالحرم وحباله ، وهم بعد - لا يزالون - يعظمون الكعبة ومكة ، ويحجون ويعتصرون ، على ارث - أى سنة - إبراهيم وإسماعيل ، عليهما السلام ثم سلخ ذلك بهم إلى أن عبدوا ما استحبوا ، ونسوا ما كانوا عليه ، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره (١) .

### عبادة الأصنام والأوثان :

كثيرا ما تصرف الحياة بمشاغلها ، الناس عن البحث عن سرائرهم والآباء بهذا الشئ ، أوبذاك ، خصص صافي تلك الأيام التي كان يصعب على الإنسان أن يحصل على عيشه ومقومات حياته إلا بعد جهد عضلي وذهنى يستغرق كل وقته تقريبا . فلا يجد الأبناء إلا أن يواصلوا السير على منهاج الآباء في تقدير ما يقدررون ، واتباع ما يتبعون حتى يصبح التقدير والاتباع سنة لا تعرف علتها ، وعرفا لا يدرك الأجيال له سببا ، إلا أنهم يسرون سيرة الآباء ، ويلتزمون بأعراف القدماء ، ولهذا قال الكفار : إنا وجدنا آباءنا على أمة ، ولنا على آثارهم مقتدون ، لقد انتهى تقدير الآباء للحجارة التي حملوها عند خروجهم من مكة انتهى ذلك بالأبناء إلى أن عبدوا الأوثان ، وصاروا إلى ما صارت إليه الأمم السابقة كعبادة قوم نوح للأصنام على نفس النمط ، وكان لابد أن يبقى مع ذلك تقدير الخارجين من مكة لمكة والبيت ، فيبقى هذا في الأبناء مع عبادتهم لتلك الأصنام التي اتخذوها ، وكانوا ينسكون بتعظيم البيت والطواف به ، والحج ، والعمرة ، والوقوف على عرفة ومزدلفة ، واهداء البدن والاهلال بالحج ، والعمرة مع ادخالهم فيه ما ليس منه .

وكانت نزار تقول إذا ما أهلت .

ليك اللهم ليك ! ليك لا شريك لك ! إلا شريك هو لك .. !

---

(١) الأصنام للكلبى ص ٦ .

تملكه وما ملك !

في وحدونه بالتلبية ، ويدخلون معه آلهتهم ، ويجعلون ملكها بيد الله الأعلى  
وكانت تلبية « عك » ، إذا خرجوا حجاجا قدموا أمامهم غلامين أسودين  
من غلمانهم ، فكانا أمام الركب فيقولان : نحن غرابا عك - والأغربة في  
لغة العرب تعني السود منهم شبهوا بالأغربة في لونهم - فتقول عك من  
بعدهما : عك إليك عانية ، عبادك اليمانية ، كيما ننج الثانية !  
وكانت ربيعة إذا حجت فقصت المناسك ووقفت في المواقف ، تفرت  
في النظر الأول ، ولم تقم إلى آخر التشريق ،

فكان أول من غير دين إسماعيل عليه السلام - علنا - فنصب الاوثان  
وسيب السانبة ، ووصل الوصيلة ، وبحر البحيرة ، وحمى الحامية (١) عمرو  
ابن ربيعة ، وهو لحى بن حارثة ابن عمرو بن عسر الازدي وهو أبو خزاعة  
وكان قد قاتل جرهما بيني إسماعيل فظفر بهما وأجلاهم عن الكعبة ، وتولى  
أمرها بعدهم ولما مرض مرضا شديدا لم يبرأ منه إلا بعد أن أذى البلقاء من  
الشام فاستحم بحمة كانت بها فبرئ . ووجد أهلها يعبدون الاصنام فقال :  
ما هذه ؟ فقالوا نستقي بها المطر ، ونستنصر بها على العدو ، سألهم أن يعطوه  
منها ، ففعلوا ، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة . (٢) فكانت بداية تعدد  
الاصنام فيها وتقديسها إلى أن أظهر الله الإسلام .

وليس أوضح من هذا دليلا عن أن الإنسان كان يتراجع عن العقيدة  
الصحيحة حين يعطى عقله حق التدخل في تصوير هذه العقيدة أو تغييرها  
أو تحريف كمالها .

تعدد المعتقدات العربية :

---

(١) الاصنام للكلبي ص ٦ وما بعدها .

(٢) الملل والنحل للشهر ساني ص ٢٤٧ .

### تعدد المعتقدات العربية :

وجد من العرب من يؤمن بالله واليوم الآخر وينتظر النبوة وهم قليل كان منهم ورقة بن نوفل ، رزید بن عمرو بن نفیل ، فكان ذلك دليل ما بقى من الدين الصحيح الذى جاء به إبراهيم وإسماعيل ثم وجد منهم فى نفس الوقت من ينكر الرسل ويقر بالخالق والبعث وهم الذين أخبر عنهم القرآن فقال على لسانهم « ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق . . . . . »

ومنهم من أنكر البعث مع الإقرار بالخلق وهم الذين أخبر عنهم القرآن أيضا فى قوله : « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم . . . »

ومنهم من زعم بأن عبادة الأصنام إنما هى مجرد وسيلة للتقرب إلى الخالق « وقالوا ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » .

ومنهم من أنكر الخالق وأسند الخالق إلى الطبيعة فأنكر البعث والحساب فقالوا : « وما يهلكنا إلا الدهر . . إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحرم بمبعوثين . . الخ »

ومن العرب من كان يميل إلى اليهودية ، ومنهم من كان يميل إلى النصرانية ومنهم من كان يصبو إلى الصابئة ويعتقد فى الأنواء واعتقاد المنجمين فى السيارات .

حتى لا يتحرك ولا يسافر ولا يقيم إلا بنوء من الأنواء ، ويقول ، مطرنا بنوء كذا ، ومنهم من كان يصبو إلى الملائكة فيعبدهم ، بل كانوا يعبدون الجن ويعتقدون فيهم أنهم بنات الله . . . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

## تعدد الأصنام واختلاف أسمائها

ومن العرب الذين عبدوا الأصنام من اتخذ أصنام قوم نوح بأسمائها فعبدت قبيله كلب ودا ، وعبدت هذيل «سواع» ، وكانوا يحجون إليه وينحرون له ، وعبدت مذحج وبعض قبائل من اليمن يغوث ، وعبدت همدان «يعوق» ، وعبدت ذى الكلاع بأرض حمير «نسرا» .

ومن العرب من اتخذ لأصنامهم أسماء أخرى ، فكانت «اللات» ، لتقيف بالطائف ، «والعزى» ، لقريش وجميع بني كنانة وقوم من بني سليم ، و«هناة» ، للأوس والخزرج وغسان ، «وهبل» ، أعظم الأصنام عندهم وكان على ظهر الكعبة ، وهو ذلك الصنم الذى جاء به عمرو بن لخمى من البلقاء بالهمام ، وأضاف إليه «أساف» ، وثأنله وكان يذبح عليهما تجاه الكعبة ووضعهما على الصفا والمروة . . .

• • •

كل هذه الأشياء كانت بعد دعوة إبراهيم وإسماعيل ، فكانت على هذا المستوى أو ذاك من التراجع والردة ، مما يدل بلا أدنى وجه للجدل على أن الانسان عرف التوحيد وتنزيه الاله الخالق قبل أن يعرف هذه الأنواع من العبادات ، وقبل أن يردد ويتراجع إلى هذه الصور السافلة .

فلا مجال البتة لادعاء تطور العقيدة الصحيحة مع تطور العقل البشرى ، بل لا مجال البتة لادعاء قدرة العقل الانسانى على الوصول إلى دين صحيح من غير أن يهديه إليه وحى صحيح .

الفصل السابع  
نقد نظرية التطور  
في ضوء

معتقدات قدماء الصينيين

تمهيد - العبادات والشرائع عند الصينيين القدامى  
تعاليم كنفشيوس

## تمهيد

قدمنا من خلال معتقدات قدماء المصريين وقدماء الهنود وقدماء العرب دليلاً واضحاً ومثالاً حياً ، على أن دعوى تطور المعتقدات مرتبطة بتطور الحضارات والثقافات دعوى كاذبة يقوم الدليل على بطلانها، وبالتالي: فلا صحة لدعوى أن الانسان هو الذى وصل إلى توحيد الله وتنزيهه من غير وحي .

بل الدليل قائم على عكس ذلك وهو : أن الانحراف بالحقيقة إلى الضلال هو صنع الانسان ، أما التنزيه والتوحيد الحقيقي فلا يكون إلا من طريق الوحي .

وإذا كان الانسان قد فطر على التدين ، فلا يعدو ذلك تطلعه الدائم الى البحث عن الخالق المحيط الخبير بهذا السكون ، فكانت مهمة الوحي توجهه الى تعريفه بما تبحث عنه فطرته وهو الله المنزه أما تدخل الانسان فكان ينتهى الى هذه الصور المحرفة الناقصة للألوهية ولذلك كان توحيد الاله من جانب البشر لا يمثل وصولاً الى الحقيقة بطلقة انسانية بحثة ، بل كان يمثل خلطاً واقتباساً من وحي قديم يخالطه عجز البشر فيكون توحيداً مشوباً بالفكرة الانسانية العاجزة كإفراد الشمس بالعبودية أو بالآلوهية .

فحين وصل المصريون الى التوحيد ممثلاً في أفراد الشمس أورع بالآلوهية ، كان ذلك منهم اقتباساً من وحي قديم ولذلك أضفوا على هذا الإله جميع صفات السكّال الإلهي التي يحملها الوحي ، والتي دونت في تراث مصر التاريخ والثقافي ، وقد ثبت وجرد رسل وأنبياء موحي إليهم كإبراهيم وموسى ويوسف دعوا المصريين إلى عبادة الإله الأحد الذي ليس كمثل شيء وهو السميع البصير وحين وجد التوحيد في بلاد الهند كان



شأنه كذلك ، وقد ثبت أيضا وجود رسالات سماوية بلغت في هذه البلاد ،  
فالهند كمصر من أمم الرسالات الدينية .

أما الصين فتعد مثالا فريدا حيث يقال بأنها ليست من أمم الرسالات  
الدينية ، ولم تحظ في تاريخها القديم بشيء من ذلك فكيف كانت معتقداتها ،  
وهل تصبح دليلا يؤيد قضيتنا أم ينقضها ؟

#### العبادات والشرائع عند الصينيين القدامى :

اصطلح علماء مقارنة الأديان على أن الصين على اتساع رقعتها . وكثرة  
شعوبها . قد اختبرت جميع أنواع العبادات ، ولكنها على الرغم من ذلك  
لم تحظ برسالة دينية واحدة تنشأ فيها ، فلم تخرج للعالم قوما دينية تصدر منها ،  
ولكنها أرضت العقل الفطري الباحث عن الألوهية بمعتقدات وردت إليها  
من الخارج قديما وحديثا ، كـمعتقد البوذية والمجوسية والمسيحية  
والإسلام ، ولم تعط أمة عقيدتها ، باستثناء اليونان التي أخذت عنها نخلة  
كـنـفـشـيـوش ( الحكيم المشهور ) .

ومن الجائز جدا كما يقول هـ . جـ ، ويلز (١) أن أقدم حضارات الصين  
كانت حضارة سمراء كما كانت نمائلة في طبيعتها لأقدم الحضارات المصرية  
والسومرية .

ومهما يكن الأمر فإننا نجد أنه لما وافق ١٧٥٠ ق م كانت الصين  
مكونة فعلا من مجموعة هائلة من الممالك الصغيرة ودول المدن ، وكلها  
تعترف بولاء مـفـكـك العرى ، وتدفع رسوما إقطاعية لامبراطور كاهن  
واحد هو : « ابن السماء الكاهن الأعظم ، وانتهى حكم أسرة « شانج ، في

---

(١) موجز تاريخ العالم ص ١٢٩

١١٢٥ ق م وخلفتها : أسرة « تشاو » الطويل ، وانحدرت إلى البلاد شعوب من الهون ؛ وانشأت الإمارات ، وقطع الحكام المحليون الجزية ، وأصبخوا مستقلين ، ويقول أحد ثقات الصينيين : إن البلاد كان بها في القرن السادس ق - م خمسة أو ستة آلاف مقاطعة مستقلة تقريباً ، وهذا العصر هو الذي يسميه الصينيون في سجلاتهم باسم « عصر الفوضى » .

وبهمنا جداً أن ندرك أن عصر الفوضى هذا كان مليئاً بكثير من النشاط الفكرى ، وبوجود كثير من مجالات الفن المحلية والعيش المرفه والمتحضر ومع ذلك لانجذ للدين صورة راقية تدل على التوافق بين الرقى الفكرى والرقى الدينى ، أو بين المتحضر وتطور المعتقدات الدينية .

فكل ما استطاع أن يصل إليه الإنسان الصينى فى هذا العصر أن وجد « كونفشيوس » الذى بشر بالحلم والصبر والبر بالوالدين والعطف على الأقربين والغرباء وأوصى بأن تقابل السيئة بالعدل وأن يقابل الإحسان بالإحسان ، وقد أحزنه كثيراً ما يغشى الصين من فوضى وخروج على القانون ، فاخطت لنفسه صورة مثل أعلى لحكومة أحسن وحياة أفضل . وأخذ ينتقل من ولاية إلى أخرى باحثاً عن أمير يأخذ بنظرياته فى التشريع والتعليم وينفذها ، ولكنه ، لم يعثر قط على ذلك الأمير ، وحين عثر عليه ، أحاطت به مؤامرات رجال البلاط فقوضت سلطان كونفشيوس على الأمير ، وتغلبت فى النهاية على مشروعاته الإصلاحية .

ويتلخص مذهب كونفشيوس فى منهج عيش الرجل النبيل أو الأرستقراطى أو المثل الأعلى - أى أنه مدخل بسلوك الشخص وأفعاله . فاهتم بالشئون العامة ورثى لاضطراب العالم ونعاسته ، وأراد أن يجعل الناس فلاء - أى فضلاء - رغبة فى إيجاد عالم فاضل ،

لذلك حاول أن ينظم السلوك إلى درجة تفوق كل مألوف ، وأن يدير

القواعد السليمة لكل مناسبة من مناسبات الحياة ، وكانت صورة السيد المذهب الذى يهتم بالشئون العامة ، والذى يأخذ نفسه بالتأديب الصارم ، هى المثل الأعلى .

ومات « كنفشيوس » محطم الآمال ، وهو يقول ، « لم ينهض حاكم ذكى القواد ليتخذنى استاذاً له ، وهاقد حانت منى » بيد أنه لما مات فى ٤٧٨ ق - م أقاموا له الهياكل وعبدوه على سنتهم فى عبادة أرواح الأسلاف الصالحين ، وأوشكوا أن يتخذوا عبادته عبادة « رسمية » أى حكومية على عهد أسرة « هان » فى القرن الثانى قبل الميلاد ، وأوجبوا تقديم القرابين والضحايا لذكراه فى المدارس ومعاهد التعليم ، وكانت هياكله فى الواقع بمثابة مدارس يؤمها الناس لسماع الدروس كما يؤمونها لأداء الصلاة ، ولم تزل عبادته قائمة إلى أوائل القرن العشرين فخصوه فى سنة ١٩٠٦ بمراسم الإله الأكبر « شانج تى » إله السماء ، لأنه فى عرفهم « نذ السماء » ومن لم يؤمن اليوم بربوبيته من الصينيين المتعلمين فله فى نفسه ترويقير يقرب من النأية وقد جعلوا يوم ميلاده عيداً قومياً يحجون فيه إلى مسقط رأسه .

والله السماء هو الإله الأكبر من آلهة معبودة أخرى من مظاهر الطبيعة أرضى بها الصينيون فطرتهم الباحثة عن الإله قديماً ، فالسماء والشمس والقمر والكواكب آلهة معبودة تمشى عبادتها جنباً إلى جنب مع عبادة الأسلاف والأبطال .

وهم يتقربون إلى « شانج تى » إله السماء بالذبائح ويلبغونه صلواتهم بأشغال النار على قسم الجبال ، فيعلم الإله فحوى الرسالة التى يرفعها إليه عباده مما يودعه السكاهن فى دواخينها ، ولا يحسنون الترجمة عنها كما يحسنها السكاهن .

وهو - أى هذا الإله الأكبر - الذى يصرف الأكوان ويدبر الامور ويرسم لكل إنسان مجرى حياته الذى لا يحيد عنه ، وإنما يداول تركيب

الوجود من عنصرين ، هما عنصر السكون دين ، وعنصر الحركة ديانج ، وقد يفسر عنصر السكون بالراحة والنعيم ، وعنصر الحركة بالشقاء والعذاب فهما بهذه المثابة يقابلان عنصرى الخير والشر وإلهى النور والظلام فى الأديان الثنائية .

• وقد امتزجت عبادة الأسلاف بعبادة عناصر الطبيعة فى القرن العاشر الميلادى حين تسمى أهل الصين باسم ابن السماء .

وأراد الفيلسوف شو هسى فى القرن الثانى عشر أن ينشئ بوذية صينية توافق مذهب بوذا فى أمور وتخالفه فى أمور ، فدعا إلى دين لا إله فيه ولا خلود للروح ووضع دلى ، موضع دكارما ، الهندية أو القانون أو القضاء والقدر والدولاب والمادة أو دوشى ، قوام العالم ظاهره وخفيه ، فالمادة تحد من القانون ، والقانون خالد لاوعى له . ولا يسمع ولا يجيب ، وإنما ينشأ الوعى أو الإدراك فى الإنسان من قدح القانون للمادة كما ينقذ الحجر من الزناد فيخرج الشرر ثم ينطفىء فيموت ، وتزول الأرواح كما تزول الأجساد متى د نصبت ، كما تنضج الثمرة فى أجلها المعلوم ، وقد يبطئ النضج فيطول بقاء الروح فهى إذن طيف أوشبح ، كأنها الثمرة فى حالة العفن والاهمال (١) .

هذا أقصى ماوصل إليه الصينيون بفكرهم ونظرتهم ، مما يدل على ضرورة وجود الوحي والرسل والأنبياء لتتقية الفكر البشرى وتصحيح إتجاه الفطرة الانسانية

• ولا ريب أن دعوى إمكانية وصول البشر إلى التوحيد بأنفسهم ومن غير وحي باطلة تماما ، وإلا لوصل الصينيون إليه كما لا ريب أن دعوى تطور العقائد من التعدد إلى التمييز والترجيح ثم الوحدة تبتعا لتطور الفكر والحضارة دعوى لا أساس لها من الصحة .

( فقد حدث في الصين مثلما حدث في الهند بالضبط أن أفسدت تعاليم معلمهم سواء كان كنفشيوس أو لاهوتسى أو غيرهما كما أفسد مذهب بوذا وتغشت الاساطير كل ذلك ، وضمت إليها أشد الطقوس والفكرات الخرافية تعقيدا وخروجاً على المألوف .

فنشطت فكرات السحر البدائية ، وتحركت الاساطير البشعة التي ظهرت في ماضى طفولة جنسنا تكافح ضد التفكير الجديد في العالم ، ونجحت في أن تسدل عليه ستارا من طقوس غريبة مضحكة وغير معقولة ، وعتيقة بالية (١) .

فلا تفسير لهذا كله غير أن الردة والتراجع شأن واقع وغالب في ميدان المعتقدات والشرائع ، كلما تدخلت أهواء البشر وذاتياتهم فغلبت عقولهم وإيمانهم ، وسولت لهم التبديل والتجريف وتطويع وحى السماء لرغبات الدنيا السافلة .

---

(١) موجز تاريخ العالم ويلز ص ١٢١

## الفصل الثامن

### نقد نظرية التطور

### في ضوء

معتقدات قدماء الفرس

تمهيد : عناصر التشابه في المعتقدات الفارسية مع غيرها - زرادشت  
والزرادشتية - المزدكية - المانوية .

تمهيد :

لعل دراسة معتقدات قدماء الفرس تضيف تأييدا جديدا لوجهة نظرنا - القائمة على المنهج العلمى الصحيح - لما تنفرد به هذه المعتقدات من روابط وصلات بالمعتقدات الأخرى فى مصر والهند وبابل واليونان ، فضلا عن روابطها وصلاتها بتواريخ معتقدات سابقة عليها أو لاحقة لها ، فكان نصيبها من هذه الصلات والروابط ، الأخذ والاعطاء والتأثير والتأثر .

فقد اى الفرس يرجع أصلهم إلى السلالة الهندية الجرمانية أو الجنس الآرى المهاجر وموقع بلادهم قريب من دولة « بابل » قريب من أقاليم الطورانيين قريب من مسالك الحضارة بين المشرق والمغرب ، وقد تلاقت حضارة الفرس وحضارة مصر فى السلم والحرب غير مرة .. وكان لليهود وأبناء فلسطين وأمم العرب علاقات قديمة بالدولة الفارسية من جانب وبالدولة البابلية من جانب آخر ، فاتصل من ثم تاريخ المجوس بتاريخ اليهود والمسيحيين والمسلمين<sup>(١)</sup> .

عناصر التشابه فى المعتقدات الفارسية مع غيرها :

يتضح من دراسة هذه المعتقدات اقتباسها من معتقدات الهنود والبابليين والمصريين واليونانيين وأن للجميع أصلا واحدا هو دين سماوى صحيح أصابته يد التحريف والعبث البشرى جيلا بعد جيل فتوزعت الأهواء والأغراض وقدرات العقول حسب البيئات والظروف ليصبح لكل بلد عقيدة متميزة تأخذ وتعطى .

---

(١) راجع الله للعقاد ص ٧٧ والأديان والمذاهب الشرقية ص ٩٣ .

فالأقدمون من الفرس يلتقون مع الهند في عبادة دمترا ، إله النور  
وتسمية الإله بالـ د أسورا ، أو الـ د أهورا .

وإن اختلفوا في اطلاقه على قوى الخير والشر ، فجعله الفرس من أرباب  
الخير والصلاح ، وجعله الهنود من أرباب الشر والفساد .

والبابليون عرفوا عبادة دمترا ، في القرن الرابع عشر قبل الميلاد .  
ورفعوه إلى المنزلة العليا بين الآلهة التي تحارب قوى الظلام .

واستعار الفرس من البابليين كما أعاروهم ، فأخذوا منهم سنة التسبيع في  
عدد الآلهة ، وجعلوا دأهورامزد ، على رأس سبعة من أرباب الحكمة والحق  
وقوى الطبيعة وأنواع المرافق والصناعات .

ولم تخل الديانة المجوسية ( الفارسية ) من عقائد الطوارئين ، لأن  
دزادشت ، عاش بينهم زمنا ه وبشرهم بدينه فاضطر إلى مجاراتهم في عبادتهم  
ليجاروه في عبادته ، وأدخل أربابا لهم في عداد الملائكة المقربين .

ويعتقد المجوس في بعض أساطيرهم أن دزروان ، أبو الالهين إله النور  
والظلام ، ولعل دزروان ، هذا صنو لاله البابليين د نون ، أو القدر الذي  
يتسلط على الآلهة كما يتسلط على المخلوقات .

وقد آمن المجوس ( من الفرس ) بالعالم الآخر كما آمن به المصريون ،  
كذلك بالشواب والمعقاب في الدار الآخرة . ولكنهم قالوا بقيامة الموتى ونهاية  
العالم وبعث الأرواح للحساب في يوم القيامة .

ولعلمهم جمعوا بذلك بين عقيدة الهند في نهاية العالم ، وعقيدة المصريين في  
محاسبة الروح ووزن أعمالها في موقف الجزاء ... إلخ (٢) .

---

(١) راجع المرجع السابق ص ٧٧ - ٧٨ .



هذا وقد استوعبت الديانة الزرادشتية صورة كاملة لهذا التأثير والتأثر أو الاقتباس خلال مراحل نشأتها وتطورها : كما سيحيى .

### شخصية زرادشت :

تنسب الزرادشتية إلى شخصية زرادشت التي اختلف الباحثون بشأنها وانقسموا بصددتها إلى ثلاث فرق .

١ - فريق ينكر وجوده ، ويقرر أنه شخصية أسطورية خيالية نسجت باسمها طائفة من العقائد والشرائع والعبادات والأخلاق التي كان يسير عليها الفرس ، وقد دلت الكشف الحديثة على بطلان هذا الرأي .

٢ - فريق يرى أنه هو إبراهيم الخليل الذي ورد ذكره في التوراة والقرآن وقد ساد هذا الرأي لدى كثير من أتباع الزرادشتية خاصتهم وعامتهم وليس لهذا الرأي دليل يعتد به وتتضافر الأدلة على بطلانه .

وأظهر الأدلة على ذلك بعد ما بين ميلاد إبراهيم الخليل الذي كان ظهوره في أصح الروايات حوالى القرن السابع عشر - م وميلاد زرادشت الذي كان ظهوره في أصح الروايات أيضا في القرن السابع ق - م .

وبعد ما بين مكاني الميلاد لإبراهيم قد نشأ في بلدة دأور، ببلاد السكديانيين على حين نشأ زرادشت بأذربيجان إحدى مقاطعات ميديا ببلاد إيران واختلاف أصل كل منهما فإبراهيم سامى الجنس وزرادشت آرى الجنس واختلاف أماكن الإقامة والدعوة فقد رحل إبراهيم إلى مكة وبنى الكعبة وأسكن بها أهله وذريته ، بينما لا يوجد ما يدل على أن زرادشت عرف بلاد الحجاز أو رحل إليها .

ويظهر أن هذا الفريق قد اختلط عليه الأمر لمثاله ما تذكره التراجم والأساطير الفارسية عن حياة زرادشت ، لما تذكره الكتب المقدسة عن حياة إبراهيم .

٣ - فريق يقرر أن زرادشت شخصية حقيقية غير إبراهيم الخليل ، وهذا هو الرأي الصحيح .

وقد اختلف هؤلاء في تحديد جنسيته وتحديد الزمان والمكان اللذين ظهر فيهما ، وأرجح الآراء في هذا الصدد أنه إیرانی الأصل (أى آرى الجنس) وأنه ولد حوالى سنة ٦٦٠ ق . م بأذربيجان ، وأنه قد هاجر منها إلى بختر في شرقى إيران في مرحلة شبابه ، وأنه مات قتيلا في بخت من بيوت النار في بلخ حوالى سنة ٥٨٣ ق م عندما أغار عليها الطورانيون ،

وقد اعتمد أصحاب هذا الرأي على أدلة تاريخية يكاد بعضها يصل إلى درجة اليقين .

ولا يعتد أحد من العلماء الباحثين في الوقت الحاضر بما كان يزعمه اليهود - حسب ما يروى عنهم الطبرى وابن الأثير وغيرهما من مؤرخى العرب - من أن زرادشت كان من أهل فلسطين وكان من خاصة الخدم لبعض تلاميذ أرمياء النبي ، فخافه وكذب عليه ، فأصيب بالهرص ، وفر من فلسطين ببلاد أذربيجان وشرع بها دينه (١) .

وقد حفلت التراجم والأساطير الفارسية بحكايات - حول مولده وحياته جديرة بالذكر . نلخصها فيما يلى :

#### حكايات حول مولده :

روت الأساطير حول مولده والفترة السابقة لمولده قصصا وحكايات كثيرة منها :

ماحدث في عالم الفلك من أنه لما ولد أحاط بالدار نور قدسى وهاج ،

---

(١) الأسفار المقدسة د . على عبد الواحد ص ١٢٣ - ١٢٨ .

وهبط من السماء نجم عظيم ودنا من الأرض ، وأعلن النبأ السار ، وظهر في عرض الأفق كوكب عظيم ملاً ضياؤه جميع أنحاء الفضاء .  
ومنها ما حدث منه هو ذاته من ضحككم بصوت عال سمعه الحاضرون جميعاً وتعجبوا منه .

ومنها ما حدث من حوله حينما ذهب حاكم أذربيجان لقتله عقب مولده ، وكان المنجمون قد أخبروه أن نبياً سيظهر وسيلغى دين الفرس ويبطل السحر ولكن يده التي حملت الخنجر تجمدت ولم تتحرك . فأشار عليه السحرة أن يبنى بنياناً كبيراً ويملاه وقوداً ويشعل فيه النار ويلقى زرادشت ، ولكن النار صارت برداً وسلاماً وجاءت أمه فحملته من وسط الرماد سليماً ( وهذه الحادثة مما تشابه على من ظنوا أنه إبراهيم (١) ) .

ومنها ما حدث من بعض الحيوانات حينما ظهر نور قبل مولده وتكلم منبئاً بقرب ظهور منقذ للعالم من سيطرة قوى البشر .  
ويعتقد قدامى الفرس أن الله قد نفخ في رحم أمه من روحه فتقمصت روح الله جسداً زرادشت ، فنشأ جامعاً بين اللاهوت والناسوت على نحو ما يعتقد المسيحيون في المسيح ... إلخ

### حكايات حول حياته :

لما وصل سن زرادشت عشرون عاماً ، كان يفضل العزلة والتأمل العميق فيما حوله ، حتى أحس بما يشده نحو التعرف على حقيقة السكون

---

(١) ذكر القرآن قصة إلقاء إبراهيم في النار وجعلها برداً وسلاماً في سورة الصافات آيات ٩٧ ، ٩٨ يقول تعالى : ( قالوا ابنوا له بنياناً فلقوه في الحجيم فأرادوا به كيداً فجعلناه من الأسفلين ) وفي سورة الأنبياء آيات ٦٨ - ٧٠ يقول تعالى : ( قالوا حرّقه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ، قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ، وأرادوا به كيداً فجعلناه من الأسفلين ) .

وخبايا الطبيعة وأسرارهما فاتبع أسلوب الرياضة الروحية وترويض النفس على الطهر والتميز للصفاء الروحي . وصدقت عزيمته ، فهجرت موطنه الأصلي وأخذ يحجوب بلاد إيران ، متأملاً ناظراً في ملكوت الله متزوداً بالتجارب والمعارف والثقافات مدة عشر سنوات .

تأمل كواكب السماء نجومها وقرها وشمسها ملاحظاً ظهورها وأفولها حتى انتهى من هذا التأمل وهذه الملاحظة إلى أن هذه الكواكب لا يمكن أن تكون آلهة ولا يصح أن تعبد ، ولا بد لها من مدبر ( وهذا أيضاً مما اشتبهه على من ظن زرادشت هو إبراهيم الخليل )<sup>(١)</sup> - وكل هذه أمور يمكن حدوثها من أي عاقل ندفعه فطرته إلى البحث عن خالق هذا الكون ومدبره .

تروى أسفار الديانة الزرادشتية ، أنه حينما بلغ هذه المرحلة من الصفاء والاستعداد الروحي نزل عليه الوحي من السماء .

فبينما هو واقف على شاطئ نهر ديتي بمقاطعة أذربيجان إذا به يرى كأنما مضيقاً يهبط من السماء وكأنه عمود من نور ، حجمه تسعة أمثال حجم الإنسان ، يحمل في يده عصا من لهب ، تقدم من زرادشت وأنباه أنه كبير الملائكة أرسله الله إليه ليعرج به إلى الملأ الأعلى فيحظى بشرف المنول أمام الإله الأكبر ، أهورا مزدا ، وهناك أشرقت عليه معرفة الحق ، وتكشفت

---

(١) بشأن إبراهيم عليه السلام يقول تعالى : وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من المومنين ، فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدينى ربى لأكونن من القوم الضالين فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم أنى بربى مما تشركون الأنعام ٧٨/٧٥ .

أسرار الكون ، ورفعت عن بصره الحجب ، ووقف على ما كان يسمى إليه وأصبح نبيا يوحى إليه بدين يبلغه للخلق وبكتاب مقدس هو «الابستاق» المشتغل على واحد وعشرين سفرا تشمل تفصيلا لعقائد الديانة الزرادشتية وعبادتها وشرائعها وتاريخها وما اجتازته من مراحل وتاريخ نبيها زرادشت من قبل رسالته ومن بعدها . وبما يحكى عنه أيضاً أنه أوحى إليه أن يتوجه إلى بلخ ليدعو ملكها «كاشتاسب» فلم يستجب له وزج به في السجن بضعة أيام حتى مرض الملك وعجز البياطرة عن علاجه فطلب من زرادشت أن يدعو له فاشترط لذلك إيمان الملك به هو وزوجته وولده وأن يوقف الولد لنشر الدعوة الزرادشتية ، فأجابه الملك وتحققت المعجزة . . . فتحمس الملك لهذه الدعوة ويقال إنه عمل على نشرها بالقوة .

ولم تنته حياة زرادشت إلا وقد دخل في دينه معظم أهل إيران ، بل يقال إنه قد دخل في هذا الدين كثير من أهل البلاد المجاورة لإيران ، وخاصة بعض بلاد من الهند ، بل يقال أنه انتشر كذلك في بعض بلاد اليونان نفسها .

#### أسس العقيدة الزرادشتية :

يقول الشهرستاني<sup>(١)</sup> وزعموا - أى الزرادشتيين ، أن الله عز وجل خلق من وقت ما في الصحف الأولى والكتاب الأعلى من ملائكته خلقاً روحانيا فلما مضت ثلاثة آلاف سنة أنفذ مبعوثه في صورة من نور متألئ على تركيب صورة الإنسان . وأخف به سبعين من الملائكة المكرهين ، وخلق الشمس والقمر ، والكواكب ، والأرض ، وبنى آدم غير متحركة ثلاثة

---

(١) الجزء الأول ص ٢١٦ وما بعدها .

آلاف سنة ، ثم جعل روح زردشت في شجرة أنشأها في أعلى عليين وأحف بها سبعين من الملائكة المقربين ، وغرسها في قمة جبل من جبال أذربيجان يعرف « باسم يذخر » ، ثم مازج « شبح زردشت » ، بلبن بقرة ، فشربه أبو زردشت فصار نطفة ، ثم مضغة في رحم أمه ، فقصدها الشيطان وغيرها فسمعت أمه نداء من السماء فيه دلالة على برتها ، فبرئت ، ثم لما ولد ضحك ضحكة تبناها من حضر ، فاحتلوا على زردشت حتى وضعوه بين مدرجة البقر ، ومدرجة الخيل ، ومدرجة الذئب فسكان ينمض كل واحد منهم حمايته من جنسه ونشأ بعد ذلك إلى أن بلغ ثلاثين فبعثه الله تعالى نبيا ورسولا إلى الخلق ، فدعا كشتاسب الملك فأجابه إلى دينه .

وكان دينه عبادة الله ، والكفر بالشیطان ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واجتناب الخبائث . .

وقال : النور والظلمة أصلان متضادان ، وكذلك « يزدان » و « دهر من » وهما مبدأ موجودات العالم . وحصلت التراكيب من امتزاجها ، وحدثت الصور من التراكيب المختلفة ، والبارئ تعالى خالق النور والظلمة ومبدعهما ، وهو واحد لا شريك له ، ولا ضد ، ولا ند ، ولا يجوز أن ينسب إليه وجود الظلمة كما قالت « الزوانية » ، فرقة من فرق المجوس — لكن الخير والشر والصلاح والفساد ، والطهارة والخبث إنما حصلت من امتزاج النور والظلمة . ولو لم يمتزجا لما كان وجود العالم ، وهما يتقاومان ، ويتغالبان إلى أن يغلب النور الظلمة والخير الشر ، ثم يتخلص الخير إلى عالمه ، والشر ينحط إلى عالمه ، وذلك هو سبب الخلاص ، والبارئ تعالى هو الذي مزجهما وخلقهما بالحكمة رآها في التراكيب ، وربما جعل النور أصلا ، وقال : وجوده وجود حقيق وأما الظلمة فتتبع ، كالظل بالنسبة إلى الشخص ، فإنه يرى أنه موجود ، وليس بموجود حقيقة ، فأبدع النور ، وحصل الظلام تبعا ، لأن من

ضرورة الوجود المتضاد ، فوجوده ضرورى ، واقع فى الخلق لا بالقصد الأول ، كما ذكرنا فى الشخص والظل .

وأورد الشهرستانى مقالة زردشت فى المبادئ نقلها الجيهانى يقول فيها « أن دين زردشت ، هو الدعوة إلى دين «مارسيان» ، وأن معبوده أورمزد وعدم الملائكة المتوسطين فى رسالاته إليه ، وعددهم ستة ، وقد رآهم وزردشت واستفاد منهم العلوم .

وجرت مساءلات بينه وبين « أورمزد » - الإله - من غير توسط .

أولها قال زرادشت : ما الشيء الذى كان ويكون وهو الآن موجود ؟

قال « أورمزد » أنا والدين والكلام ، أما الدين فعمل أورمزد وكلامه وإيمانه ، وأما الكلام فكلامه ، والدين أفضل من الكلام ، إذ العمل أفضل من القول ، وأول من أبدع من الملائكة « بهمن » وعلمه الدين وخصه بموضع النور مكانا ، وأفتحه بذاته ذاتا ، فالمبادئ على هذا الرأى ثلاثة .

السؤال الثانى : لم لم تخلق الأشياء فى زمان غير متناه ؟ إذ قد جعلت الزمان نصفين ، نصفه متناه ، ونصفه غير متناه ، فلو خلقتها فى زمان غير متناه كان لا يستحيل شيء منها ، قال أورمزد : فإذا كان لا يمكن أن تنفى - ثم - آفات الأئمة إبليس .

السؤال الثالث : قال لماذا خلقت هذا العالم ، قال أورمزد خلقت جميع هذا العالم من نفسى : أما أنفس الأبرار فمن شعر رأسى ، وأما السماء فمن أم رأسى . . . ونسب كل خلق إلى جزء من جسمه . . . ثم يقول ولما بلغ زرادشت مبلغ الكمال بأربعين سنة ، وتمت له المخاطبات فى سبع عودات إلى « أورمزد » أكمل فيها معرفة شرائع دين الله وفرائضه وسننه أمره الله بالمسير إلى كشتاسب الملك وإظهار ذكر الله وأسمه فنفذ . . . ويقول :

ولما بلغ كشتاسب لقي منه كل ما أنباء به أورمزد من الحبس والبلاء حتى حدث أمر الفرس ، . . إلى أن يقول : ( وما نص عليه زردشت أن العالم قوة إلهية هي المدبرة لجميع مافي العالم المنتهية مبادئها إلى كالاتها (١) ) .

وهكذا يبدو واضحاً أن الديانة الزرادشتية في أصلها ديانة توحيد تدعو إلى عبادة إله واحد ، وتحارب الشرك وعبادة الأصنام والكوأكب وقوى الطبيعة - المنتشرة في بلاد الفرس آنذاك ، وكانت جميع أدعياتها وصلواتها وآيات أسفارها تتجه إلى هذا الإله وحده كما يظهر ذلك ، ما ذكره الشهرستاني والجهاني وما جاء في سفر « اليستا » وفي أقدم أجزاء « الأبيستان » ، كتاب الزادشتين المقدس قول زرادشت « النجدة لهذا الإنسان ، النجدة له مهما يكن أمره ليتفضل على الخالق الأكبر والحاكم الأعظم ، الرب الحي . . .

إني أتوسل إليك يا أهورا أن تحمي حمى الهداية ، وعسى أن تتفضل علي بها . أنت يا من يبعث في النفوس التقوى التي لها من العظمة ما لها ، فهي النعمة المقدسة ، وهي حياة العقول الطيبة الصالحة ، إني أتصورك أيها المعطي الأكبر فرداً جميلاً حينما أشاهد أنك القوة العليا ( ذات الأثر الفعال ) في تطور الحياة ، وحينما أرى أنك تكافي الناس على الأعمال والأقوال .

لقد كتبت الشر عقاباً على الشر ، وجعلت السعادة جزاء وفاقاً لمن يفعل الخير وذلك بفضلك العظيم الذي يظهر أثره حينما تتبدل الخليفة التبدل النهائي فهو موصوف بالقدم والبقاء والقدرة والإرادة والعلم والخلافة للحوادث وأنه يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار ، ويعلم حقيقة مافي السموات والأرض ، ولا يصل أحد إلى معرفة حقيقته . . . بل إن أسم « أهورا مزدا » نفسه يدل معناه على ذلك ومعناه أنا وحدي خالق الكون وهو أيضاً



بحاسب الناس على أفعالهم ، فتقرر الديانة الزرادشتية الإيمان باليوم الآخر والبعث والحساب ، والجنة والنار ، كما تقرر الإيمان بالوحي وبالملائكة . . . الخ

### تطور العقيدة الزرادشتية على يد البشر :

واضح أن الديانة الزرادشتية كانت في أصلها ديانة توحيد منزه خالص . دعى إليها في وقت كانت فيه المجوسية تقول بأصلين أو مبدئين أو خالقين ، وكان الوثنيون يعبدون الكواكب والأصنام ، ولا ريب أن للزرادشتية مرجعا من الوحي ( وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ) فما يستطيع التطور الفكري أن يصل إلى التوحيد الحقيقي المنزه بدون معونة من الوحي أو اقتباس من ديانة موحى بها ، وواضح أن ديانة إبراهيم قد سبقت الزرادشتية بحوالي عشرة قرون ، فلا مانع من أن تكون الزرادشتية مقتبسة منها أو منمولة عنها .

فلما تدخل الفكر البشري الخالص مدفوعا بطبيعة البشر العنصرية المادية الأنانية الغريزية العاجزة ، أصيبت الزرادشتية بكثير من التحريف والتبديل وأصبحت ديانة شرك يعتقد أتباعها بوجود إلهين أحدهما « أهورامزدا » ويجعلونه إلها للخير ، والآخر « أهريمان » ويجعلونه إلها للشر ، ويرتبون على هذا الاعتقاد صراعا دائما بينهما لأن كلا منهما يرى إلى السيطرة على العالم ويظهر أن هذا التراجع الفكري نفعاً عن عدم قدرة العقل الإنساني على مجازاة الوحي في تجريد الذات الإلهية وتنزيهاها ، بعد ما فقد الموجهون أو قلوبا ، فقد رمزت الديانة الزرادشتية إلى قدرة الذات الإلهية برمزين ماديين محسوسين أحدهما النور يمثل في الشمس والآخر النار .

ومن ثم كان حرص الديانة الزرادشتية على أن يوقد في كل هيكل من هياكلها شمعة من النار ، وأن تبقى مضئئة متوهجة ، يتعهدا رجال الدين

الموازنة ، والموازنة ، فيقدمون لها وقوداً من خشب الصندل وغيره من الأعشاب والمواد العطرية ، وترتل حولها الأدعية وتقام الصلوات وقد بدا الانحراف بالمبالغة في شأن الرمز كعبادة الإنسان دائماً ، حتى انتهى بتقديس النار وعبادتها لذاتها بعد أن كانت مجرد رمز لقدرة الإله .

ثم أشركوا مع النار في التقديس بدرجة أقل من النار - الماء والتراب والهواء (١) وهكذا الإنسان في كل زمان ومكان يبدأ انحرافه عن الحق بالمبالغة في تقدير بعض الأشياء أو المظاهر ، أو الناس . ثم لا يلبث هذا التقدير أن يلبس ثياب التقديس ليحل الزيف محل الحقيقة ، والباطل محل الحق ، حتى يتدخل الوحي أو الرجوع إلى الوحي الصحيح ، لتصحيح مسار الإنسان ، وتوجيه العقل أو الفطرة المستقيمة إلى الصراط المستقيم .

وقد يبدأ هذا الانحراف وينتهي إلى نتائجه السيئة في دور من أرقى أدوار الحضارة المادية لأمة من الأمم . إن سمي هذا التقدم المادي البعث حضارة .

كما قد يبدأ تصحيح مسار الإنسانية في دور من أسفل أدوار الانحطاط البشري المادي والعقلي أيضاً وينتهي إلى نتائج عظيمة وخيرة المادة والمعنى إن صح المسار . . .

هذه هي الحقيقة يؤيدها الواقع المادي للأمم والحضارات كما رأينا وكما

---

(١) يراجع في هذه المعتقدات كتب الله للعقاد ص ٧٧-٨٩ والأسفار المقدسة . د . علي عبد الواحد ص ١٢٣ - ١٥٥ ، والقصة في الأدب الفارسي د . أمين عبد المجيد ص ١٦ وما بعدها والملل للشهرستاني ج ١ ص ٢١٦ وما بعدها .

سنرى من مختلف المعتقدات الإنسانية .

### المانوية :

ظهرت هذه العقيدة على يد د هاني بن فاتك ، الحكيم ، وذلك بعد اضمحلال المسيحية ، أى ، بعد ظهور دين سماوى صحيح ، تعرض للتجريف وداخلته الاهواء البشرية ، وتنازعت الاغراض الدنيوية ، فكان د هاني ، أو د مانو ، يقول بنبوة المسيح عليه السلام ، ولكنه أدخل مع هذا القول تلك النزعة التى كثيرا ما تصيب عباد القديم ، فعاد إلى مجوسية الفرس القديمة وأقتبس منها القول بأن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين : أحدهما نور والآخر ظلمة ، وأنها أزيلان لم يزالا ولن يزالا ، وأنكر وجود شئ إلا من أصل قديم ...

ثم اختلفت المانوية في مرجع الخير والشر ومدى ارتباطهما بالنور والظلام ، فقال أكثرهم : إن سبب المزاج أن أبدان الظلمة تشاغل عن روحها بعض التشاغل فنظرت الروح فرأت النور فبعثت الأبدان على نمازجة النور فأجابتها لاسراعها إلى الشر فلما رأى ذلك ملك النور ، وجه إليها ملكا من ملائكته في خمسة أجناس من أجناسها الخمسة : فأختلطت الخمسة النورية بالخمسة الظلامية : فخالط الدخان النسيم ، - وإنما الحياة والروح في هذا العالم من النسيم ، والهلاك والآفات من الدخان - وخالط الحريق النار والنور الظلمة . والسوموم الريح ، والضباب الماء ، فذا في العالم من منفعة ، وخير وبركة . فمن أجناس النور ، وما فيه من مضرة وشر وفساد ، فمن أجناس الظلمة ، فلما رأى ملك النور هذا الامتزاج أمر ملكا من ملائكته ، بخلق العالم على هذه الهيئة ، لتخلص أجناس النور من أجناس الظلمة ، وإنما سارت الشمس والقمر وسائر النجوم والكواكب ، لاستصفاء أجزاء النور من أجزاء الظلمة فالشمس تستصفي النور الذى امتزج بشياطين الحر ، والقمر يستصفي النور الذى امتزج بشياطين البرد ، والنسيم الذى فى الأرض لا يزال يرتفع ، لأن من شأنها

الارتفاع إلى عالمها ، وكذلك جميع أجزاء النور أبدا في الصعود والارتفاع ، وأجزاء الظلمة أبدا في النزول والتسفل .. حتى تخلص الأجزاء من الأجزاء ، ويظل الامتزاج ، وتنحل التراكيب ، ويصل كل إلى كاه وعالمه ، وذلك هو القيامة والمعاد .

وبما يعين في التخليص ، والتمييز ، ورفع أجزاء النور ، التسييح والتقديس والكلام الطيب ، وأعمال البر ، فترتفع بذلك الأجزاء النورية في عمود الصبح إلى فلك القمر ، ولا يزال القمر يقبل ذلك من أول الشهر إلى نصفه ، فيمتلئ فيصير بدرا ، ثم يؤدي إلى الشمس إلى آخر الشهر ، وتدفع الشمس إلى نور فوقها ، فيسرى ذلك في العالم .. إلى أن يصل إلى النور الأعلى الخالص ، ولا يزال يفعل ذلك ، حتى لا يبقى من أجزاء النور شيء في هذا العالم إلا قدر يسير منعقد ، لا تقدر الشمس والقمر على استصفائه ، فعند ذلك يرتفع الملك الذي يحمل الأرض ، ويدع الملك الذي يجنب السموات فيسقط الأعلى على الأسفل ، ثم توقد نار حتى يضطرم الأعلى والأسفل ، ولا تزال تضطرم حتى يتحلل ما فيها من النور ، وتكون مدة الاضطرام ألفا وأربعمائة وثمانيا وستين سنة ، (١) إلى آخر هذه التدخلات العقلية البشرية التي تنزل العقيدة الصحيحة من عليائها إلى فلسفة لاتصلح إلا لزمانها وقد لا تصلح مده إلا زمنا يسيرا ومع بعض العقول الساذجة الضعيفة بما يدل على صحة اتجاهنا الذي يؤكد رجعية هذه المعتقدات وتحلفها بعد نقاء الوحي وسموه .

الشريعة المساوية وأثر الوحي فيها :

فرض مانو، أو دمان، على أصحابه العشر في الاموال كلها . والصلوات

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني ص ٢٢٧ وما بعدها ح ١

الاربع في اليوم والليله والدعاء إلى الحق ، وترك الكذب والقتل والسرقة ، والزنا ، والبخل ، والسحر ، وعبادة الاوثان ، وأن يأتي على ذى روح ما يكره أن يؤتى إليه بمثله ، إلى غير ذلك مما يدل على وضوح آثار الوحي الصحيح في هذه الشريعة الامر الذي يؤكد انحرافها بعد السلامة واختلالها بعد الاستقامة . بسبب ردة العقول البشرية ، وتخلفها ، وقد جاءت من بعد ذلك رجعة أهد ورده أبعد على يدمزك .

### المزدكية :

ثم كانت المزدكية امتداد المانوية وصورة جديدة التدخل البشرى ، وكيفية خضوع البشر لاهوائهم وأغراضهم الدنيوية ، فكان «مزدك» يقول : بالاصلين ، لكنه أدعى أن النور يعمل بالقصد والاختيار أما الظلام فيعمل بالصدفة والاتفاق ، وأن النور بهذا يكون عالماً حساساً بعكس الظلام الذى يصير جاهلاً لا يدرك ولا يحس ولا يرى .

ويترب على كل هذا أن «المزاج» يعمل هو الآخر بالصدفة والاتفاق ولا يعرف قصداً ولا اختياراً ، وكذلك النجاة والخلاص يقعان بالصدفة والاتفاق لا بالاختيار .

وكان مزدك يحرص - في اعتقاده - على تعاون الناس واتفاقهم ، كما يحرص على تحقيق الحب والمودة في حياتهم ، وراح يضع خطة لتحقيق ما يحرص عليه ، فوضع أوامره العامة ومنهياته في :

١ - عدم المخالفة .

٢ - عدم المباغضة .

٣ - عدم القتال .

أما رؤياه لما يحقق ذلك فقد حددته في أسباب ما يراه يرفع المخالفة والمباغضة والمقاتلة وهي النساء والأموال ، فأحل النساء وأباح الأموال ، وجعل الناس شركاء فيهما كاشتراكهم في : الماء والهواء والكلاء والنار .

وحكى عنه أنه أمر بقتل النفس : - أى الانتحار - لتخلص من الشر ومزاج الظلمة (١) .

#### العقيدة عند مزدك :

برؤية العبيد القاصرة ، وب عقلية البشر المستقلة العاجزة كان مزدك يعتقد أن معبوده يجلس على كرسى في العالم العلوى ثم يصور لنفسه ولأتباعه هذه الجلسة بصورة الملك أو القيصر أو الامبراطور في العالم السفلى ويقرب الصورة أكثر فيذكر د خسرو ، بالذات .

وبين يديه أربعة أشخاص ، وكذلك إله مزدك بين يديه أربع قوى : قوة التمييز ، وقوة الفهم ، وقوة الحفظ ، وقوة العلم ، وهذا العدد هنا يدبر أمر العالم بسبعة من ورائهم ، وهذه السبعة تدور في اثني عشر ... إلخ .

وكل إنسان تجتمع له هذه القوى الأربع والسبع والاثنا عشر يصير ربانيا في العالم السفلى ، ويرفع عنه التكليف ... إلخ (٢) .

وهكذا لا يزال العقل الإنسان يسبح وراء خيالات وأوهام بينها على أساس أو على غير أساس حتى ينحرف عن الحقيقة أو يحرفها أو يتلفها ويفسدها .

وهكذا كان « مزدك » والمزدكية وما تفرع عنها من فرق شملت

---

(١) راجع المال والنحل للشهرستاني ج ١ ص ٢٢٩

(٢) المرجع السابق ص ٢٣٠ ج ٢

بلاد فارس ونواحيها ، وما تفرع على القول بالأصلين النور والظلمة  
وقدرتهما نفيا وإثباتا قصدا واختيارا أو طبعاً وإضطراباً كل هذه  
الاجتهادات الإنسانية لا تمثل غير الدليل الحى على أن البشر أعجز من أن  
يصلوا إلى الحقائق الدينية الصحيحة من غير الاستناد إلى الوحي الصحيح ،  
مهما كانت درجة حضارتهم المادية أو تقدمهم الفكرى ، أو إنتاجهم العلمى .

وعليه فلا دليل لأحد هنا على أن الدين الصحيح من صنع إنسان أى  
إنسان ، كما لا دليل لأحد على أن الدين يتطور مع الحضارة المادية رقياً  
وانحلالاً ، إلا أن يكون هذا الدين صناعة بشرية خالصة ، وحتى هذه  
الصناعة البشرية الخالصة تجدها لا توافق فى درجة اقناعها للعقل أية صناعة  
بشرية أخرى كما سنرى فى معتقدات البابليين واليونانيين .

الفصل التاسع  
نقد علماء مقارنة الأديان والقول بالتطور  
في ضوء معتقدات البابليين  
تمهيد : تصور البابليين الألوهية – اليوم الآخر ، – علاقة الآلهة بالكون





ثم يسد :

كانت أرض بابل مثالا حيا جديداً على عبجز البشر عن الوصول وحدهم من غير وحي إلى الوجدانية المنزهة الحقيقية .

فعلى الرغم من توسط أرض بابل العمران الآسوى ، وانفتاحها المطلق على معتقدات شتى من بلاد الفرس والهند ومصر والشام ، وبلاد أخرى مجهولة المعتقدات وعلى الرغم من أن حضارة بابل تعد من أقدم الحضارات في التاريخ بل يذهب المبالغون من الأوربيين إلى ادعاء أن حضارة بابل أقدم الحضارات البشرية على الإطلاق .

على الرغم من كل ذلك لم يصل أصحاب هذه الحضارة إلى توحيد حقيقي من عند أنفسهم ، بل لم يؤثر عنهم الاتجاه إلى أذكار التوحيد على أى شكل من الأشكال .

يقول العقاد : - وهى - أى الحضارة البابلية - على قدمها لم يكتب لها أن تؤدى رسالة ممتازة في تاريخ الوجدانية . ويقول : ويستطاع الجزم بأن الرسالة البابلية في الدين لم تتجاوز رسالة الديانة الشمسية السفلية .

فالفزوات التى تروى عن الأرباب الأقدمين هى غزوات أبطال من الأسلاف الذين برزوا بملاح الآلهة ، بعد أن غابت عن الأذهان ملاحظتهم الإنسانية . ثم تلبست سيرتهم بظواهر الكون العليا ، فسكنوا فى مساكن الأفلاك وحماة الأفلاك أسماءهم ، ولا تزال تحمل بقية منها إلى اليوم .

فرودى إله الحرب هو كوكب المريخ وقد تغلب على نيمات ربة الأغوار المظلمة فأخذ زوجها وخلانها الأحد عشر ، وسلسهم أسارى فى مملكته السماوية ، فهم المنازل الإثنى عشر التى بقيت فى علم الفلك إلى اليوم (١) .

ويظهر أن مبالغة الشعب البابلي في تقدير حكامه الذين كانوا يمثلون القادة العسكريين ويقودون البابليين إلى الانتصار في عصور الغزو والهمجية . هذه المبالغة في التقدير تطورت إلى تقديس ، ثم إلى تأليه .

وحتى عندما وقعت بابل تحت حكم الدولة الآشورية في القرن العاشر والتاسع قبل الميلاد ، فقد لجأ سرجون الثاني الغالب إلى تملق البابليين المغلوبين بمعاملة ربها وإلهها بعل مردوخ ، وكهنتها وتجارها أحسن معاملة . وفي أواخر القرن السابع ق م وأوائل القرن السادس تأسست الإمبراطورية البابلية الثانية التي تخلصت من الآشوريين . ووصلت درجة عالية من القوة والثراء تحت حكم نبوخذ نصر العظيم وامتدت سيطرته إلى بلاد يهوذا ، فحاول حكمها بطريقة سلمية لكن اليهود أعملوا الذبح في موطئيه البابليين فزق دولتهم كل ممزق وأمر فنهبت أورشليم . وحمل من بقي بها من الناس إلى بابل أسرى ، وكانت الأسفار الخمسة من العهد القديم التي تنسب إلى موسى عليه السلام بيد اليهود .

إلا أن البابليين لم يتأثروا بدعوة التوحيد إلى الحد الذي يجعلهم ينتصرون لها .

فعما كان لآخر أفراد الأسرة الكلدانية من ملوك بابل وهو دناونيداس ، من ذوق أدبي رفيع ، إذ ناصر البحوث التاريخية القديمة وشملها برعايته حتى إذا وصل الباحثون من علمائه إلى تحديد تاريخ تولى سرجون الأول عرش بابل خلد ذكرى هذا الواقعة بما سطر من نقوش :

إلا أن محاولاته لبث الروح المركزية في إمبراطوريته لم تتمخض إلا عن فكرة إحضاره إلى بابل عدداً من الآلهة المحليين المختلفين ، وإقامة المعابد لتلك الآلهة بها ، بدلا من توحيد الإله وعبادته (١) .

---

(١) راجع موجز تاريخ العالم ص ٧٣ وما بعدها .

وقد اتفق الساميون والشعريون ، أصحاب الحضارة الشمرية التي ازدهرت في أرض بابل قبل انتقال الساميين إليها ، على الأرباب الكبرى البابلية كإله النور الذي يسميه الساميون « شمس » ويسميه الشعريون « آنو » ، أو كالزهرة ربة الحب التي يسميها الساميون عشتار ، ويسميها الشعريون ننسيانه . .

ولكن الأرباب البابلية أوفر عدداً من أن ينتظمها اتفاق بين قومين مختلفين ، لأنهم ارتفعوا بعددها إلى أربعة آلاف وقرنوا بها أندادا لها من الشياطين والعفاريت تبلغ هذا العدد أو تزيد .

ومامن علة لتبرير هذا التمدد الغريب غير استغلال العقول والأفكار والأهواء ، وعدم وجود الدعاة القادرين على إقناع هذه العقول والأفكار والأهواء بالاتحاد على إله واحد أو إلهين أو ثلاثة .

وهكذا تذهب الأفكار البشرية إذا لم يجد عليها سلطانا من البشر ولا موجهها قادرا على إقناعها . . .

فلا عجب أن برعت هذه العقول والأفكار في ميدان الحضارة المادية لما تتمتع به من حرية . وفشلت في ميدان العقائد لعدم الموجه المقنع . .

( ولهذا كانت سياسة السكون كما تخيلوها أشبه بالجمهورية بل بالمشيخة القبلية ، فكانوا يتخيلون أن الأرباب تجتمع كل سنة في يوم الاعتدال الخريفي لتنظر في السماء مقادير السنة كلها ، وتسكتبها في لوح محفوظ لا يمحي قبل نهاية العام ، . وكان الملك نفسه يتلقى سلطانا على الأرض عاما بعد عام في مثل ذلك الموعد . . فيمثل الكهنة رواية الخلق ، ويشهدوا الملك كمفرد من الأفراد ، ويعتمدون في بعض مواقف التمثيل أن يهينيه ويستخفوا به

ليقرروا بذلك أنه فقد كل سلطان له على رعاياه . . فلا يعود إليه السلطان إلا بإذن جديد من «مردوخ» ، يتلقاه قبل ختام الرواية من يد حبر الأخبار (١)

### اليوم الآخر :

هذا ولم يؤثر عنهم أيضاً في عهد الشمرين إيمان بعالم آخر أو يوم للحساب والجزاء ، فمن اجتراً على فعل محرم أو قصر في الصلوات والأقاربين فالآلهة تجزيه عن ذنبه بمرض يصيبه لا يشفيه منه غير كاهن المعبد بعد توبته والتكفير عن ذنبه

وإن لم يكن جزاؤه مرضاً فهو شيء آخر كالنقص في الأموال والأنفس والأثروات ، وكل مصيبة تعد تنبهاً إلى ذنب اقترفه أو فريضة أهملها .

وقد نعم الذنوب فيعم العقاب ، وترسل الآلهة على الأرض طوفانا أو وباء يعم البريء والمذنب على السواء ، ولكنها قد تنذر الناس قبل حلول العقاب وتلهم الكهان وحدثهم تفسير ذلك النذير (٢) .

### علاقة الآلهة بالكون وبعضهم :

تمثل علاقة الآلهة البابلية بالكون وبعضهم البعض فيما يروونه من أخبار وغزوات لتلك الآلهة قبل خلق هذه الدنيا وفي قصة الخلق نفسها ، وفي قصة سقوط الإمبراطورية البابلية ووقوعها تحت حكم قبيل بن قورش الفارسي .

---

(١) الله - ص ٩٢

(٢) المرجع السابق ص ٩٢

يقول العقاد : وهم يذكرون لتلك الأرباب غزوات وأخبارا قبل خلق هذه الدنيا كأنهم كانتات لاحتاج إلى خالق .

فيروون عن « تيمات » ربة الغمر أو ربة الأغوار والظلمات أنها هزمت « أنو » إله السماء بجحافل من جيوشها .

وعاد « أنو » ، فانتصر عليها وسكن بعد أن برز من الماء بطل وليد ، هو مردوخ رب الجنود وسيد الحروب الذي عمد إلى « تيمات » فشققها نصفين : صنع الأرض من أحدهما وصنع قبة الفضاء من النصف الآخر ، ثم وضع أسراه في هذه القبة ، فهم لا يبرحونها إلا بأذنه ، ورفع إلى السماء ما شاء من الأرباب .

أما قصة الخلق عندهم : فهي أن الدنيا كانت قسمة بين « تيمات » ربة الأغوار ، أو ربة الماء الأجاج ، أو ربة الفوضى والعماء ، أو ربة الظلمات والأغوار ، وبين آيا إله الماء الخذب وعنصر الخير في الوجود ، وموقع الأرض البابلية بجعلها في قبضة هذين الربين ويوحى إلى أهلها الإيمان بما عندهما من المخاوف والخيرات حتى هزمت تيمات وقسمها مردوخ إلى قسمين صنع الأرض من أحدهما وصنع الفضاء من القسم الثاني .

وقد كشفت الألواح التي تضمنت شروح هذه القصة بالخط المسماري في أواخر القرن التاسع عشر ، ونقلت إلى المتحف البريطاني بلندن حيث تحفظ الآن .

ويتم البابليون قصة خلق الإنسان بقصة أخرى هي معاقبة الإنسان على طموحه إلى الخلود واجتهاده في اختلاس سره من الآلهة بالموت يعاقب به على ذلك إذ تأبى الآلهة أن يشاركها أحد من الخلق في نعمة الحياة الباقية .

وتدل القصة على أنها من مآثورات قوم عريقين في سكنى تلك البلاد ولم تنقل إليهم من بلاد أجنبية عنها ، ويرجع ذلك على التخصيص ذكر الطوفان

المفصل في بعض القصص البابلية ، لأن الباحثين في الآثار يعتبرون أن الطوفان قد غمر ما بين النهرين إلى الشمال ، وأن الجبل الذي استقرت عليه سفينة نوح هو الجبل المعروف اليوم بجبل أراارات ولم تشتمل قصص الطوفان في البلاد الأخرى على تفصيل كهذا التفصيل ولهذا اعتبر العقاد قصة الخلق البابلية أهم نصيب ساهمت به المآثورات البابلية في علم المقابلة بين تواريخ الأديان (١).

أما قصة سقوط الامبراطورية البابلية ووقوعها تحت سيطرة الفرس فيقول ويلز بأن محاولة ( نابونيداس ، آخر أفراد الأسرة الكلدانية من ملوك بابل إحضار الآلهة المحليين وإقامة المعابد لتلك الآلهة في بابل أثارت غيرة كهنة « بعل مردوخ ، الأقوياء ، وهو رب البابليين الأكبر ، فأخذوا يدبرون الخطة للتخلص من نابونيداس والبحث عن بديل له ، ووجدوه في شخص « قورش ، الفارسي ، حاكم الامبراطورية الميديّة المجاورة ومن قبل ذلك كان اسم « قورش ، قد برز حين هزم « كرويسوس ، ملك ليديا التري في شرق آسيا الصغرى .

وزحف قورش على بابل ودارت المعركة خارج أسوارها ، وفتحت له أبواب المدينة سنة ٥٣٨ ق م . ، فدخلها جنوده بلا قتال .

المهم أن التوراة تذكر أن ولي العهد « ييلشاصر ، بن نابونيداس كان في وليمة عندما ظهرت يد وكتبت هذه الكلمات على الجدار بأحرف من نار . هنا ، مناتكيل ، و فرسين mene mene le el Uphasin وقد أولها النبي دانيال الذي استدعاه الأمير ليقرأ اللغز بأن معناها أحصى الله ملكوتك وأنهاء ، وتكيل معناها وزنت بالموازين فوجدت ناقصا ، و فرسين معناها قسمت ملكك وأعطيت لمادى وفارس ، (٢) يقول ويلز وربما كان كهنة بعل مردوخ على

---

(١) الله ص ٩٣ - ٩٤

(٢) سفر دانيال الاصحاح الخامس

علم بأمر تلك الكتابة المسطورة على الحائط ، وقتل « بيلشاصر » ، في تلك الليلة كما تقول التوراة ، وأخذ نابونيداس أسيرا ، وتم احتلال المدينة بهدوء وسلام بحيث استمرت الصلاة لبعل مردوخ دون أى توقف ، (١) إلى هذا الحد كانت ضآلة الفكر العقائدى فى دواة عرفت الحضارة إلى حد لا يختلف كثيرا عن حضارة هذا العصر كما يصور ذلك ه . ه . ويلز ص ٧٦ - ٧٧ فى مؤلفه موجز تاريخ العالم .

---

(١) موجز تاريخ العالم ص ٨٦ .

## الفصل العاشر

نقد علماء مقارنة الأديان والقول بالتطور

في ضوء

معتقدات قدماء اليونان

تمهيد : تصورهم للألوهية - تصور علاقة الآلهة بالكون وبيعضهم -  
أساطير وقصص .



تمهيد :

تعد بلاد اليونان مهدا من مهور الحضارات القديمة الخصيبة بأنواع العلوم والفنون والآداب وجميع فروع المعارف الأخرى التى بلغت فيها مكانة راقية تسامت الذرى ، حتى لقد ظل مؤرخو الغرب يعتقدون طويلا أن مهد المدينة الغربية كان اليونان ، إلى أن تبين لهم سبق بلاد النيل ودجلة .

إلا أن هذه البلاد لم تحظ برقى مماثل فى العقيدة ، لاعتمادهم فى هذا الشأن على العقل الإنسانى وحده والفكر المستقل عن الوحي وإنسان هذا شأنه لا يمكن أن يصل إلا إلى المستوى البشرى العاجز الذى يحاول أن يرضى فطرته المتطلعة إلى الأيمان بمدير لهذا الكون ، بأمور حسية أو خيالية ساذجه ، هى كل ما يمكن أن يصل إليها عقله المستقل ، وهى أمور قد ترضى الفطرة إلى حين . ولكنها لاتقنع العقل إلا زمنا يسيرا ، لهذا سرعان ماتطور مثل هذه العقائد وتغير . ولكن كل تطور وتغير يبقى ساذجا طالما بقى الوحي بعيدا عنها ، أو بمعنى أصح طالما بقى الإنسان بعيدا عن استمداد عقيدته من الوحي الإلهى الصحيح .

وهكذا كان شأن اليونانيين القدامى ، كما يبدو مما نقل عنهم فى همجيتهم ومنذ بداية تحضرهم.

### تصورهم للألوهية :

فهذه « أرباب الأولمب » الذين خلدوا فى أشعار هو ميروس فى الملحمين العظيمين : الألياذة والأوديسا . وشاعت عبادتهم بين الاغريق يقول عنهم العقاد : كان من الواضح أنها أرباب مستعارة من الأمم التى سبقتهم إلى الحضارة وتنظيم العبادات .

فالاله « زيوس » أكبر أرباب الأولمب هو الإله « ديوس » المعروف فى

الديانة الهندية الآرية القديمة ، واسمه متداول في العبادات الأوربية جميعاً ، مع قليل من التصحيف بين اللغات واللهجات والربة « أرتيميس » ومثلها الربة « أفروديت » ، أو « فينوس » ، هي الربة عشتار الثمانية البابلية ومنها كلمة « ستار » ، التي تدل على النجم في بعض اللغات الأوربية الحديثة .

والربة « ديمتر » ، هي « إيزيس » ، المصرية كما قال هيرودوت - المؤرخ اليوناني المشهور - ، وهي واحدة من أرباب كثيرة تشابهت عبادتها في بلاد الأغريق .

وأضيف إلى هذه الأرباب « أدونيس » ، من « أدوناي » ، العبرية بمعنى السيد أو الإله . .

كما أضيفت إليها عبادة « ديونيسيس » ، في أطوارها المتتابعة التي تلبست أخيراً بعبادة « مترا » ، في الديانة الأورفية السرية (١) .

ثم رسم لهم خيالهم صوراً لآلهتهم الكثيرة ، علموها سر السكائنات وما يقع لها من أحداث .

فما سطع نجم ولا تجمعت سحابة ، ولا هبت نسمة إلا وصور لهم خيالهم وراءها إلهاً موكلًا بها

وقد عبروا عن كل هذا بتماثيل ورسوم أوحى بها خيالهم أيضاً

فالموكل بالليل عندهم إله في صورة امرأة متراخية الأعضاء يداعب الناس جفونها ، وفي يدها مشعل مقلوب . ويكسوها رداء قد زين بالنجوم .

وكانوا يعتقدون أن كبار آلهتهم يقيمون فوق جبل « الأليم » ، أو

«الأميس»، وأن كبيرهم «زيوس» له فوقه قصر وعرش ، وأن من حوله أحد عشر من كبار الآلهة يدينون له بالطاعة ، وينفذون أوامره ونواهيته .

وكانوا يتصورون أرباب الألبان يقتربون ما يقترب منه البشر من آثام ويمجرون وراء شهواتهم الشرهة .

فثلاثا قتل «زيوس» أباه «كرونوس» وضاحج بنته ، وهجر سمائه ليطارد عرائس البحر ويغازل بنات الرعاة في الفلوات ، وغار من ذرية الإنسان فأضمر له الشر والهلاك ، وضمن عليهم بمر النار ، وعاقب المارد «بروميثيوس» لأنه أنى للإنسان نقبس من النار من السماء .

ولم يستطع خيالهم حتى ذلك الحين تصور الإله «زيوس» خالقاً للعالم أو خالقاً للأرباب التي تحيط بعرش في جبل الألبان ، فهو على الأكثر والد لبعضها ومنافس لآلئاده منها ، وتعوزه أحياناً رحمة الآباء ونبل العداوة بين الآلئاد ، فنصيه بدلاً منها القوة والعذر .

ثم يتصورون القدر فوق الجميع حتى زيوس نفسه يخضع لهذا القدر ويتقيد بقيوده ، ويعجز عن الفكك عما يقضيه .

وإليك صورة مفصلة بعض الشيء عن بعض الآلهة نذكرها فيما يلي :

١ - زيوس : كان زيوس حسب اعتقاد اليونانيين القدامى . ابن لـ «كرونوس» Cronos أو إله الزمن وأتراً Terra إلهة الأرض ، وكان أبوه قاسياً يخشى على سلطانه حتى من أبنائه فكان يقتل من يولد له ففررت أمه أبعاده عنه ، فأوكلت إلى بعض الرعاة رعايته وحمايته وتنشئته ، فأخذوا يغذونه بلبن الماعز حتى شب وترعرع ، ولما أصبح شاباً نحى والده عن الرياسة ثم تبوأ مكانه .

لكنه لم يصل إلى هدفه هذا إلا بعد معارك وقاتل مرير مع أشرار المردة

الذين كان من دأبهم رجم الآلهة بكسل الصخر الهائلة تلك الكتل التي اعتقدوا بأنها كونت عند سقوطها من السماء الجزر والجبال .

ثم زوج زيوس بهيرا ملكة السماء ودانت له الأمور وجلس فوق عرشه ، وفي يمينه الرعد والبرق ، وعلى رأسه صولجان على هيئة الذسر .

أما زوجته « هيرا » فراحت تشرف على الزيجات والولادة ، وكانوا يمثلونها بهيئة سيدة مهابة على رأسها تاج وبجوارها طاووس .

٢ - أثينا : إلهة الحكمة والعلوم والفنون وكانت مقربة إلى كبير الآلهة « زيوس » ، ولذا كان يستجيب لجميع مطالبها ولقد أقام لها أهالي مدينة أثينا معبداً تكريماً لها وأقاموا بداخله تمثالا صنعه « فيدياس » من الذهب والعاج وهو من أبدع ما نفذته يد إنسان ويسمى هذا المعبد « البارثيتون » .

٣ - هestia : إلهة النار عندهم ، ولقد كان من وسائل التقرب إليها مداومة إشعال النار داخل معبدها ، وكانوا يرمزون لها بتمثال على هيئة امرأة وفي يدها مصباح ، وعليها رداء أبيض اللون ومن فوقه وشاح أحمر .

٤ - أبولو : وهو أحد أبناء « زيوس » ، وقد خصه أبوه بالضوء ويقولون إنه هو الذي يقود عربة « الشمس » ، وقد منحه أبوه كذلك الشباب وطول العمر ، كما جعله يهيمن على الموسيقى والفنون والشعر والطب ، وكانوا يمثلونه بشاب جميل ويده القوس وعدداً من السهام رمزاً لأشعة الشمس .

٥ - أرتميز : وهي ابنة « زيوس » ، وكانت توأماً لأخيها أبولو . وهي عندهم في الأرض إلهة الغابات والصيد ، وفي السماء إلهة القمر . ويشبهونها بامرأة مكشوفة القدمين في ثياب الصيد وفوق جبينها هلال .

٦ - ديمترا وكانوا يعتقدون أنها هي التي علمت الإنسان حرث الأرض

وبذر الحبوب وحصاد الزرع كما علمته عمل الحبز وكانوا يشبهونها بأمرأة  
تجمرى بجثا عن ابنتها «بروسرينا» ، وأحيانا يتمثلونها امرأة وعلى رأسها  
أكليل من نبات القمح

٧ - هفيسٽس - وهو من أبناء «زيوس» ، وكان قبيح الخلقة أعرج ،  
ولكنه كان أعظم اجتهداً وقد وكل إليه القيام بالكثير من الأعمال ،  
فمن الذى يصنع الآلىء والحلى ، كما يصنع الأسلحة لا كايـز بطل الإغريق .  
وهو كذلك عندهم إله الحديد والنحاس والفضة والذهب ، ويرمزون  
له برجل فى يمينه مطرقة وفى يسراه ملاقط .

٨ - آرس (مارس) : وهو عندهم إله الحرب ، ويرمزون له برجل  
قوى فى لباس الحرب من درع وخوذة ورمح وترس .

٩ - أفروديت : ( فينوس ) إلهة الجمال والحب ، وكان ابنها  
( كيويد ) يساعدها فى إتمام الزيجات والولادة ، وفى كل ما كان له بالحب .  
ويمثلونها دائماً مبتسمة ابتسامة تكشف عن ثناياها راكبة عربة تجرها بجعتان

١٠ - ديونيس : وكان الإغريق يعتقدون أنه هو الذى علم الناس  
زراعة الكروم ، وقد مثلوه برجل يركب برميلا ، وفوق رأسه أكليل  
من أوراق العنب ، وله قرنان دلالة على القوة .

١١ - تيمس : وهى عندهم إلهة العدالة والقانون والسلام ويمثلونها  
وهى تقبض بإحدى يديها على السيف ، وترفع بالأخرى الميزان ، وقد  
وضعت عصابة فوق عينيها رمزا لعدم التمييز لأحد المتخاصمين .

١٢ - أيروس (كيويد) كان رمز الحب ، وقد علم أبوه وقت ولادته  
أنه سيكون مبعث المتاعب والشقاء ، وأراد التخلص منه ، ولكن أمه  
«فينوس» أخفته عن أبيه فى الغابات وأرضعته بلبان الماعز ويمثلونه

بطفل جميل له جناحان ، وفي يده قوس ، وجميعه سهام وهو يصيب بها الناس  
خبط عشواء .

١٣ - جوفيتس : وهى ساقية الآلهة ، ورمزوا لها ب امرأة توجت رأسها  
بالأزهار وفي يدها قدح ، وقد زعموا أنها عندما تزوجت خلفها في عملها  
« جنيا مبد ، وكان أمير الطلبة ، فاختارته الآلة ليكون لهم ساقيا فخمله  
نسر وطار إلى جبل الأولمب .

وهكذا مامن شيء إلا نسبوه إلى إله من آلهتهم العديدة التي ذكرنا بعضها  
والتي قدسها اليونانيون وجعلوها آلهة وعبدوها وقدموا لها القرابين خشية  
بطشها ، أو ترلفا إليها ابتغاء مرضاتها. وتصورها على هذه الصورة الساذجة  
البلهاء التي تدل على طفولة فكرية وبدائية عقائدية ، في وقت نمت فيه  
حضارتهم العلمية والمادية والأدبية إلى مستوى راق يحسدون عليه . ويحسن  
أن نورد هنا قصتين تكشفان مدى هبوط الفكرى العقائدى البشرى - مثلا  
في بلاد اليونان - عندما لا يلجأ إلى الوحي الإلهى الصحيح . وتبين هاتان  
القصتان أيضا تصور علاقة الآلهة ببعضهم وبالكون .

#### تصور علاقة الآلهة بالكون وبعضهم :

تتمثل علاقة الآلهة بالكون وبعضهم فيما يرويه تاريخ قدماء الإغريق  
من قصص تمجد أبطالهم . وتظهر قدرات أربابهم ، ومن بين تلك القصص  
قصتان تذكرهما لتوضيح هذه الصورة .

#### القصة الأولى : ( قصة رأس ميدوزا ) (١) .

بلغ « تيسيس » الخامسة عشرة من عمره ، وبدا فنيا قويا جميلا وسيما ،  
وغدا مولعا بركوب البحار ، ومالبث أن صار بحارا ماهرا وفي ذات يوم على  
أثر رحلة له إلى إحدى الجزر غلبه النعاس فرأى « الآلهة » ، « أثينا » ، قد وقع  
اختيارها عليه لقتل « ميدوزا » ، وأطلعته على صورة « ميدوزا » ، فرآها قبيحة

الوجه وعلى رأسها بعض الأفاعى تسمى . وكانت هيأنها تبعث الرعب في قلوب الناظرين واستيقظ « نيسيس » من نومه ولم يجد أحدا ، فعاد إلى بيته فلم يجد أمه ، وعلم أنها أخذت قسرا إلى بيت الملك لتعمل خادمة فعز عليه ذلك وهو ابن بنت أمير في « أرجوس » تخلص منه وهو وأمه خشية منه أن يقتله كما أنبأه بذلك شيخ عجوز تنبأ بذلك كعقاب على اضممار الجحد قتل أخيه ، فوضعه هو وأمه في صندوق وألقاهما في اليم فعثر عليهما شقيق حاكم لاحدى البلاد. فأكرمهما حتى وقع هذه الحادثة لأمه ، فتوجه « نيسيس » إلى بيت الملك ، وهم بقتله لولا أنه وجد « دكتيز » الذى أكرمه هو وأمه جالسا فأكتفى نيسيس بأخذ أمه إلى معبد أقيم في المدينة للالهة « أثينا » وتركها فيه لتكون فى حمايتها .

ولكن الملك حنق على نيسيس وأضر له الشر حتى دعى إلى احتفال بقصر الملك ، فسأله الملك ساخرا « ماذا أعددت لنا من الهدايا فى هذا اليوم ؟ »

فضحك الحاضرون من الأمراء والعظماء سخرية وتحقيرا ، وقال بعضهم « وماذا فى مقدور هذا المعدم أن يقدمه إلا قليلا من الزهور » ، وقال آخر : أنه أعجز من أن يأتى بعمل مجيد ، فقال نيسيس : إني لآت بما لا تستطيعه ولا يستطيعه أحد منكم ، فقال محاوره : كأنك قادر على قتل « ميدوزا » ، فتحمس نيسيس وأجاب بالإيجاب فدوت القاعة بالضحكات من جميع الأركان ، بينما صمم نيسيس على تحقيق قوله ، فأغراه الملك وهدده بالاسبيل لعودته إلا إذا وفى موثقا بهلاكه .

وخرج نيسيس وأدرك أنه تسرع ولا يدرى ما هو فاعله ، وبينما هو غارق فى أفكاره إذ رأى نورا وهاجا يخطف الأبصار ، وأمعن النظر فإذا به يرى « أثينا » تحمل الترس فى يدها وبجانها رجل ينبعث من

عينية ضوء كوهج الشمس ، وييده سيف قد من جوهره غالية ذات بريق  
كما كان يلبس حذاء من الذهب الخالص وله جناحان وسأل عن الرجل  
فقبل له لأنه «هرمين» .

وقالت له : إن عهدي بك قويا شجاعا فهل أنت قادر على قطع رأس  
«ميدوزا» ؟ فسألها عنها عن خبرها فقالت : لقد كانت امرأة جميلة ،  
ولكنها ارتكبت وزرا فاستحقت عقاب الآلهة ، فسلبوها جمالها ،  
وجعلوها في هيئة مخلوق دميم الخلق ، وفوق رأسها الأفاعى تسمى ، كما  
جعلوا أصابع قدميها كخالب الطيور ، ولكي يزدوا في نفور الناس منها  
ومقتهم لها ، جعلوا كل من يقع نظره عليها يتحول صخرًا .

ثم قالت خذ هذا الترس ، واذهب به ، حتى إذا اقتربت منها ، فلا تنظر  
إليها ، ولكن انظر إليه وحركه يمنة ويسرة ، وعندما تراها فيه ، تقدم  
واقطع رأسها ، ثم لفه في قطعة من القماش حتى لا يراه أحد ، وأعلمته أنها  
في مكان بعيد ، والطريق إليها ملوء بالمتاعب والآلام التي لا يتحملها بشر ،  
وعلمته كيف يتحایل على بنات الليل ذوات العين الواحدة ، حتى وصل  
إليها بعد أن حصل على معطف الليل كوسيلة لاحتجابه عنها ، ووصل  
إلى «ميدوزا» ، واستطاع أن يميز بينها وبين أختها ، ثم أمسك بالسيف  
وضرب به عنقها منفذا تهائم أثينا تماما ، ولكن أختي «ميدوزا» طاردها ،  
فأخذ يطير مبتعدا عنهما ، وسترة الليل تحجبه عن أنظارهما حتى أعياه  
الطيران ، فهبط ليستريح ، وإذا به وسط صحراء جرداء لا نبات فيها ولا ماء  
فظن أنه هالك لا محاله من الجوع والعطش ، ولكنه تذكر «أثينا» ، فنادها ،  
واستغاث بها ، فرأى الماء يجري والثمار تنقل أغصان الأشجار : فأكل  
وشرب ، وواصل الطيران ، حتى أبصر من عليائه امرأة قد قيدت بالأغلال ،  
فهبط إليها وسألها عن حالها فقالت أنا «أندروميدا» ابنة ملك هذه البلاد ،  
وقد أعجب بي أبي وقال : ليس بعد جمالي جمال .



وعز هذا على ملك الأسماك ، فقال : « ليس هناك أبهى ولا أجل من زوجتي ، ووجه مياه البحر نحونا فأغرقت بلادنا ، ثم أرسل إلينا «تينا» هاتلا ففتك بالإناس ، واشترط على أبي أن يقدمني قربانا لذلك التنين حتى يحسر الماء . ورفض أبي ، ولكن الناس ثاروا عليه وحملوني إلى هذا المكان رغبة في انحسار الماء عن أرضهم .

والتفت «ثيسيس» فرأى التنين قادما ، فامتشق سيفه بسرعة وضرب أغلالها فقطعها ، ثم قال لها : ضعبي يدك فوق عينيك ولا تنظري ، واقرب التنين فكشف «ثيسيس» عن رأس «ميدوزا» المقطوع فتحول بالنظر إليها حرجاً .

وحمل «ثيسيس» أندروميذا ، بين ذراعيه ، وطار بها إلى قصر والديها الحزين وأما المنتهجة فغمر السرور قلبيهما .

فعرض عليه الملك خلافته من بعده وأن يزوجه ابنته ، فشكره «ثيسيس» ثم استأذنه في الذهاب إلى والدته وقد صحبته «أندروميذا» في رحلته ونام ذات ليلة ورأى «أثينا» تقول له : « لا حاجة لك بعد اليوم إلى السيف ولا إلى الحذاء والرداء » ، ثم اختفت واختفت معها تلك الذخائر .

فعاد إلى والدته وطمأنها ، ثم ذهب إلى الملك الذي هدده بالقتل لأنه قد فشل في ظنه ، فصاح «ثيسيس» انظر إلى رأس «ميدوزا» فنظر الملك ومن معه ، فتحولوا أحجاراً

ودعا «ثيسيس» شقيق الملك الذي سبق أن أكرمه وآواه هو ووالدته فتوجه ملكا مكافأة له على ما صنع ، ثم سار إلى بلده «أرجوس» مسقط رأسه ، ولكنه وصل بالسفينة إلى «ملككة» لارسا وعلم أن جده «أكريسيديس» يحضر احتفالا بيوم الألعاب ويوزر ملكها ، فتخفى «ثيسيس» واشترك في

المباريات وفاز في كل مباراة اشترك فيها لدرجة افنت أنظار الجميع ، وكان في نيته أن يتجه إلى جده بعد نهاية المباريات ويقول له « أنا ابن دانا ، أى ابن بنته دانا ولكنّه أثناء مباراة رمى القرص ألقى بفارغفغ وكان كالسهم ، والناس يهللون وهم في دهشة ، وإذا بالقرص يهوى فوق جدة « أكرئيس ، ويصيب منه مقتلا ، وتحققت نبوءة الرجل العجوز .

ويذهب «ئيس ، إلى ارجوس ومعه امه «دانا، وزوجته « اندروميدا ، وهناك يتوجه الشعب ملكا .

#### القصة الثانية : قصة الطوفان (١) .

- بما يرويه الاغريق القدماء مذكورة عن الطوفان ، وهو ان كبير آل اهتم « زيوس ، خلق « يندورا ، وهى اول امرأة فى الوجود من الطين ، ومنحها كثيرا من الهدايا ومن بينها صندوق اوصاها ان تعطيه لمن ينزوجه ، فاخذه « ايمثيس ، وتزوجها .

وبينا كانا يتسامران ، إذ بها تعبت بالصندوق ثم تفتحه ، فتخرج منه نحلة وتلمسها ؛ ويثب منه كلب كبير ويعقر زوجها ، ثم تخرج الشرور ومتابعة من غيرة وحسد وحروب وأمراض على اختلاف أنواعها ، ويعاتبها زوجها فتحنى عليه باللائمة لأنه لم يمنعها . ويتأمل الصندوق فيرى طيرا يشع منه الضوء ويخرج الطير ويغرد ثم يقول : أنا الأمل ، لقد دخلت الصندوق خلصة وسوف أدخل الآن قلوب جميع البشر .

لقد دبر « زيوس ، كل هذا لينتقم من الإنسان الذى جحد به وطنى وتكبر .

وعمت المفاسد والشر بين الناس ، فنزل « زيوس » إلى الأرض متسكرا ليرى ما أصاب الإنسان وذهب إلى حيث يقيم أبناء الملك ليسكامون وعدددهم خمسون وظن أنهم سيسكرمون وفادته ، ولكنهم نروه ونأوا بجانبهم عنه ظنا منهم أنه متسول حقيق . ودفعوا بسكلاهم تنبح عليه وتهم بالفتك به ، فتركهم ولجأ إلى قصر الملك يطلب طعاما ومبيتا ، فقابلته الملك أسوأ مقابلة بل هم بقتله ، فما كان من « زيوس » إلا أن نظر إليه نظرة ارتعدت لها فرائصه ، وما لبث أن تحول ذنبا عاويا .

وتلبدت السماء بالسحب ، وهطلت الأمطار مدرارا فلات السهول والوديان وفاضت البحار والمحيطات ، وغرق كل ما على الأرض ، وهبت عاصفة هوجاء فأغرقت جميع السفن إلا واحدة .

وكان باليونان وقتئذ رجل يقال له « ديوكاليون » وامرأة تدعى « بيرها » وكان من الاتقياء المتعبدين ، فنجاهما إلا له ، وركبا السفينة التي حملتهما إلى جبل « يرناسس » ، ولم يكن قد غمرت قطة المياه ، حتى توقف نزول الأمطار وانحسر ماء البحار عن الأرض فزلا فوجدا أرضا مقفرة ؛ فصاحا يا ويلتنا كيف يتسنى لنا العيش على هذه الحال . ؟ وسما صوتا ينادى في الفضاء سيعمر الكون مرة أخرى إن سرتما وعلى وجه كل منكما نقاب ، ثم ألقيتما بعظام أمكما من فوق الأكتاف إلى وراء .

وفطن الرجل إلى ماطلب بعد تفكير ، وأخذا يقذفان بالأحجار وراءهما وهما لا ينظران إليها وما إن انتهينا ونظرا إلى وراء حتى وجداها قد صارت حشودا من الرجال والنساء . وعمر الكون بعد خراب .

من هاتين القصتين يتبين فهم اليونانيين للآلهة والقدر ، فالآلهة يدون في صورة بشرية ، ويحيون مثل البشر ، ويمارسون ما يمارسه البشر من ما كل

ومشرب وتزواج ولهم مال للبشر من شهوات وعواطف ونقاأص وعصديات ولا يميزهم إلا أنهم أذكى عقلاً وأكثر قدرة ، ويمجى فى عروقهم سائل يكفل لهم الخلود ، وهم فى سيطرتهم على شئون البشر لا يلتزمون العدل ، ولا يتقيدون بالأخلاق ، فيفرضون عليهم سلطاناً أعمى يعرف النظر عما فى أعمالهم من خير أو شر ، ويبدو أنهم يحبون القوة فى الإنسان ويحترمونها أحياناً وليس عندهم فى العالم الآخر ثواب ولا عقاب وإذا ندر ووجد شىء من ذلك فإن الآلهة توزع الثواب والعقاب بغير عدل كما حدث فى الدنيا وتصوره قصة أوديب .

وهذه القصة تقوم على فكرة تحكم القضاء والقدر فى حياة الإنسان وقهره مهما حاول هذا الإنسان أن يفلت من أحكامه ، ومهما كان فاضلاً فأوديب يقتل أباه ويتزوج أمه ، ورغم علمه أن القدر كتب عليه ذلك ، ورغم محاولاته الإفلات من هذه الجريمة ، ففى تتم رغماً عنه ، فالصراع هنا يتم بين الرجل الفاضل النبيل والقوى الشجاع أوديب الذى أنقذ المدينة من الوحش الرهيب ، والذى أنقذها مرة ثانية من اللعنة التى حلت بها بسبب جريمته ، فكان ذلك على حساب نفسه ، وبينه وبين القضاء والقدر ، وهو صراع غير متكافئ يضطر فيه أوديب أن يكفر عن جرائمه لادب له فيها بأن يفتأ عينيه بنفسه .

ولم يزل زيوس ، كبير الآلهة فى تصور اليونانيين خاضعاً للقدر هو نفسه إلى عصر ( هوميروس ) كما صورت ذلك الإلياذة والأديسا .

#### تطور هذه المعتقدات :

لما جاء هزيبود الشاعر المتدين (١) صور ( زيوس ) على مثال أقرب إلى

---

(١) ولد حوالى ٧٠٠ ق . م أى بعد هوميروس بحوالى قرن كامل من الزمان وكلاهما يعدان أول من صور عالم الآلهة عند اليونانيين .

خلائق الرحمة والإنصاف ومثال الكمال ، ولكنه نسب الخلق إلى أرباب أقدم من (زيوس) ومن سائر المعبودات الأوليمية ، وهي جيا : ربة الأرض و (كاوس) رب الفضاء و (إيروس) رب التناسل والمحبة الزوجية ، وجعل (إيروس) يجمع بين الأرض وزوجها الفضاء فتلد منه الكائنات السماوية والأرضية وآخرها أرباب الأليم وعلى رأسهم (زيوس) الملقب بأبي الأرباب ولكن هيزيود شارك هوميروس في إلصاق كثير من صفات النقص البشرية بالآلهة .

وقد وجدت في القرن السادس قبل الميلاد والقرن الخامس قبل الميلاد أيضاً . محاولات لنقد هذه التصورات الدينية ، ولكنه كانت محاولات فردية لم تحول هذه البلاد عن معتقداتها كثيراً

ف نجد ( أكسينوفون ) أو كسينوفانس المولود بآسيا الصغرى قبل الميلاد بنحو ستة قرون ، ينعى على قومه أنهم يعبدون أرباباً على مثال أبناء الغناء ( البشر ) ويقول أن الحصان لو عبد إلهاً لتمثله في صورة الحصان ، أن الأثيون لو تمثل إلهاً لقال أنه أسود الأهاب ويهاجم فكرة اعتقاد الناس أن الآلهة يتوالدون ، ويتناكحون ، ويرى أن الإله أرفع من هذه التشبيهات والتجسيمات .

كما نجد ( ثيوجنس ) المولود حوالي ٥٠٠ ق م ينقد ( زيوس ) أبا الآلهة نفسه بلهجة لاذعة حيث يقول : صديق العزيز زيوس تعجبنى سياستك أيها المتحكم في كل شيء . إلى أن يسأله قائلاً : ولكن كيف تقضى بالمساواة في المصير ، كيف تسوى بين الصالح والطالح .

وكان أثر الديانات الآسورية والمصرية أظهر من كل ما تقدم إلا أنه كان ضئيلاً ومع ذلك مهد لعصر الفلسفة اليونانية .

يقول ويلز : فإننا نجد فعلا في القرن السادس ق م ، بينما كان أشعيا لا يزال يتنبأ في بابل "نجد رجلا مثل ( طاليس ) وأنا كسيما ندر الملطي ، و ( هرقليتوس ) من أهل أفيسوس وهم قوم ، نسميهم اليوم باسم السادة السراة ، نجدهم قد كرسوا عقولهم للبحث والتدقيق بأسلوب الذكي الأريب في أحوال العالم الذي نعيش فيه ، متسائلين عن ماهيته ، وكنهه طبيعته الخفية ، ومن أين جاء ؟ وماذا يمكن أن تكون عليه مصائرهم ؟ ... ورافضين جميع الإجابات المعدة أو المحفوظة التي عن أعمال فكر أو تنطوى على التملص ... (١) .

ونجد في القرن الرابع ق م ، قوما ذوى تفكير عصرى أو يكاد ، اتحدت طرائق الفكر البدائي الشبيهة بطرائق الأطفال والأحلام محلها تناول مشا كل الحياة بطريقة منظمة ونقادة ، وهنا أيضا يهمل تماما كل لجوء إلى الرمزية وكل التخيلات السحرية البشعة الدائرة حول الآلهة البشعة المعبودة ، كما تلغى جميع المحظورات والمخاوف والقيود التي ظلت تكبل حتى آنذاك تفكير الإنسان (٢) ومع كل هذا ظلوا بعد الفلسفة يدينون بالوثنية التي كانوا يدينون بها قبل الميلاد بعدة قرون (٣) .

وهكذا بقي الإنسان كل هذه القرون يبحث بعقله المستقل عن الوحي ليرضى فطرة التطلع الإيماني ، فما وصل إلى مايقنع عقله ، وإن

---

(١) موجز تاريخ العالم ص ١٠٣

(٢) المرجع السابق ص ١١١ .

(٣) الله للعقاد ص ٩٨

أرضى فطرته إلى حين فكلما وجد ما يحرك تساؤلات جديدة راح يطلب الإجابة عليها ، وتتغير عقيدته وتتطور وتظل التساؤلات تستحدثها الأيام ، وتتطور العقائد التي هي من صنع الإنسان ، ولن يصل البشر إلى ما يرضى كل تساؤلاتهم العقلية ويشبع فطرتهم الباحثة عن الإله ، إلا إذا وصلوا إلى الوحي الصحيح ، واستلهموا منه العقيدة الحققة .

\* \* \*

## خاتمة

معتقدات بعض أمم الحضارات القديمة من القرآن ودلالاتها

من شروط المنهج العلمى كما سبق أن يقوم بالتجارب والملاحظات عالم بحلى التجربة أو الملاحظة وبطريقتها ، خبير بعناصرها ، محيط بخصائصها وبيئاتها وأسرارها ، قادر على أجراءها فى الموقع والزمان اللازمين لنجاح التجربة ، وقادر أيضاً على رصد هذه التجارب ، وتسجيل نتائجها بدقة .

ولم يتوفر لأحد حتى الآن وإن يتوفر لأحد بعد الآن هذا العلم أو هذه القدرة والخبرة والإحاطة غير خالق هذا الكون ومدبره ومسيره ، وصانع قوانينه ، وواضع حساباته . وهو صاحب كتاب محسوس منطور لسل ذى عين ، هذا الكتاب ، يتبع المنهج العلمى الصحيح ، بل يضع الأساس الحق للمنهج العلمى ، ولعله الكتاب الوحيد - فى ميدان الدراسات الاجتماعية والنفسية الإنسانية العامة - الذى تتوفر له شروط المنهج العلمى . بل هو كذلك بالقطع والتأكيد ، لأنه من لدن العالم المحيط الخير بالنفس الإنسانية ونظم الاجتماع الإنسانى فى العالم كله منذ نقداً وحتى تقوم الساعة ( أو لم يكف بربك أنه على كل شهيد ) ( ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ) يقرر القرآن . وهو ذلك الكتاب الذى سجل فيه العالم الخير تجارب الماضين ، ونتائج هذه التجارب بدقة معجزة : يقرر أن الله تدبّع الإنسانية بالأنبياء والرسل ففتح عن احتكاكهم بالأمم أحداث وردود أفعال مسجلة تعطى نتائج وقواعد وقوانين نفسية واجتماعية مسجلة أيضاً .

ومن بين ما سجله هذا الكتاب ، أن المعتقدات لم تخضع لنظرية التطور العقائدى إلا إذا كانت المعتقدات من صنع البشر ، أما المعتقدات الموحى بها والتي تواصى بها الأنبياء والرسل جميعاً منذ خلق أول إنسان فهى عقيدة



واحدة لم تتغير ولن تتغير ولم تتطور هي الإيمان بالله الواحد الأحد الذى ليس كمثله شئ وهو السميع البصير .

والإيمان بالرسول وبالملائكة ، وباليوم الآخر ، وبالوحي أو الكتب السماوية .

( إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والاسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتيناهم كتبنا ، ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً (١) ) .

آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا يفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير (٢) .

دقل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله (٣) ، .  
كما يقرر القرآن أيضاً أن التوحيد المنزه عرفه الإنسان الأول (آدم وحواء) وعرفته البشرية على لسان جميع الرسل والأنبياء .  
وأنه - أى التوحيد - قد يدعى إليه أناس وأمم فى أى وقت وفى أى ظرف بصرف النظر عن التطور الفكري أو المادى لهؤلاء الناس وهذه الأمم .

فقد تعدد الالهة من صنع البشر وقد يتسع ميدان الشرك والكفر فى الوقت الذى تبلغ فيه حضارة أمة المادية أوجاً عظيماً .

(٢) البقرة ٢٨٥

(١) النساء ١٦٣ - ١٦٥

(٣) آل عمران ٦٤

( أو لم يسيرا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم . وما كان لهم من الله من وافي ، ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا . (١) )

وقد قال يوسف المصريين - مثلاً - وهم في أوج عظمتهم المادية ( أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ) .

ودعا هود قومه إلى التوحيد فقالوا : ( يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلِهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ، إن نقول إلا إعتراك بعض ( آلِهتنا بسوء (٢) ) .

وهم في قمة حضارة صورها القرآن أيضاً حين قال : ( ألم تركيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد ) (٣) .

وفي قوله : أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ، وإذا بطشتم بطشتم جبارين . . . (٤) .

هذا التفاوت الظاهر والكبير بين التقدم الحضارى المادى وبين الفكر العقائدى الدينى . لا تفسير له إلا انتفاء الارتباط بين أحدهما والاخر . .

وتمود الذين جابوا الصخر بالواد ، واستعمرهم الله في الأرض فعمروها وبدت صورة تقدمهم في هذه الايات ( إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون الايات إلى أن قال : أتتركون فيماهاهنا آمنين في جنات وعيون وزروع ونخل وطلعها هضيم ، وتنجثون من الجبال بيوتا فارحين . . . الشعراء

١٤٢ - ١٤٩ .

فليس هناك دليل واحد إذن على وجود توافق بين التقدم المادى

(٢) هود ٥٣

(١) غافر ٢١ - ٢٢

(٤) الشعراء ١٢٨ وما بعدها .

(٣) ٨ ، ٧ ، ٦

والتقدم العقائدى على النحو الذى يصوره أصحاب اعتقاد تطور العقيدة تبعاً للتطور المادى والحضارى .

بل تقوم الأدلة على العكس : وهو إمكان تقدم الأمم مادياً وحضارياً فى الوقت الذى تراجع فيه وتتخلف عقائدياً .

وختاماً أرجو أن أكون قد وفقت فى كشف الحقائق التالية .

١ — القرآن كتاب توفرت له شروط المنهج العلمى الصحيح فصارت قوانينه وقواعده فى ميادين النفس والاجتماع العامة قوانين وقواعد علمية ، وأصبح الدين لصلته بالنفس والاجتماع الإنسانى علماً يمكن أن يستمد من خلال دراسة منهجية علمية . إذا ارتبط بالقرآن .

٢ — التطور العقائدى لا يخضع للتطور المادى والحضارى إلا إذا كان من صنع الإنسان ، أما الوحي فقد ينزل فى أى وقت وأى ظرف وأى حال منزهة عن كل نقص ؟

٣ — تفسير التطور والارتقاء العضوى لا يخضع لمنهج ولا يملك إخضاع الإنسان لهذا المنهج إلا من خلال الاستنتاج من مقدمات غير صحيحة أو التخمين والخيال ، وكلها أمور لا صلة لها بالعلم ولا بالمنهج العلمى وإذا كانت قد بقيت بعض التساؤلات فى لقاء فى أجزاء الكتاب التالية . إن شاء الله .

د عمارة نجيب

مكتبة  
المهتدين



الموضوع	ص
مقدمة	٣
تمهيد:	٥
حاجة الإنسانية إلى دراسة الأديان وكيفية هذه الدراسة	
الفصل الأول - الإنسان والدين	٢٣
متى نشأ الدين وآراء العلماء في هذا الموضوع	٢٥
مصدر الدين وبواعثه	٢٦
أصل الإنسان	٢٨
مناقشة الآراء في نشأة الدين ومصدره والباعث عليه	٤٣
قضية الإنسان الأول مع الوحي	٤٧
حقيقة الإنسان البدائي	٥٣
الفصل الثاني - الدين والإنسان والتطور	٦٥
آراء العلماء	٦٧
نقد نظرية التطور	٨٧
نوعية التطور	٩٣
أسلوب التشريع الإلهي	٩٤
أسلوب التشريع الإنساني	٩٦
الفصل الثالث - نقد التطور في ضوء المعتقدات البدائية والقديمة	١٠٥
معتقدات الإنسان البدائي	١٠٧
الأساطير	
الطوطمية	١١١
نقد نظرية التطور في ضوء معتقدات دول الحضارات القديمة	١٢٩

الموضوع	صفحة
الفصل الرابع - نقد نظرية تطور العقائد في ضوء معتقدات قدماء المصريين	١٣٥
معتقدات قدماء المصريين	١٣٧
مناقشة الآراء في معتقدات قدماء المصريين	١٥٩
معتقدات المصريين والمنطق العلمي .	١٦٦
الفصل الخامس - نقد نظرية التطور في ضوء معتقدات قدماء الهنود	١٧٣
معتقدات قدماء الهنود	١٧٥
الدين الطبيعي	
الديانة البرهمية	١٧٦
أصل البرهمية ومراجعتها	١٨١
الجينية والبوذية	٢٠٦
الفصل السادس - نقد نظرية التطور في ضوء معتقدات قدماء العرب	٢١٩
انحراف العرب عن العقيدة الصحيحة	٢٢٢
تعدد المعتقدات العربية	٢٢٥
الفصل السابع	٢٢٧
نقد نظرية التطور في ضوء معتقدات قدماء الصين	
العبادات والشرائع عند الصينيين القدامى	٢٣٠
الفصل الثامن	٢٣٥
نقد نظرية التطور في ضوء معتقدات قدماء الفرس	
عناصر التشابه في المعتقدات الفارسية مع غيرها	٢٣٧
شخصية زرادشت	٢٣٩
أسس العقيدة الزرادشتية	٢٤٣



الموضوع	ص
تطور الزرادشتية على يد البشر	٢٤٧
المانوية	٢٤٩
المزدكية	٣٥١
الفصل التاسع	٢٥٥
نقد علماء مقارنة الأديان في ضوء معتقدات البابليين	
٤هـ	٢٥٧
علاقة الآلهة بالكون وبعضهم .	٢٦٠
الفصل العاشر	٢٦٥
نقد علماء مقارنة الأديان في ضوء معتقدات قدماء اليونان	
تصورهم للألوهية	٢٦٧
تصور علاقة الآلهة بالكون وبعضهم	٢٧٢
أطور هذه المعتقدات	٢٧٨
خاتمة	٢٨٢
فهرس الموضوعات	٢٨٦

٢٢٢٤٢٦